شهريّة سياسية
تُعنى بشؤون الجزيرة
العربية « السعوديّة »

AL-JAZEERA AL-ARABIA
الجزيرة العربية

السنة الثانية ـ العدد الثامن عشر ـ يوليو ١٩٩٢ / محرم ١٤١٣ هـ ١٤١ هـ
NO 18. July 1992. Year 2

سهولة الحياة عندما يكون الحاكم تابعاً

أي دور للمثقف السعودي وفي أي إطار ؟

الإمبراطورية الإعلامية السعودية : الحاضر والمستقبل

المملكة مهددة : المشاركة أو التقسيم

المعارضة السعودية بين الهوى الإقليمي والوطنيّة الجامعة

سرّ المهنة

شعر

إثنان في أوطاننا
يَرتَعدانِ خِيفةً
مِنْ يَقظةِ النائِمْ :
اللصُ والحاكِمْ !

أسلوب

كُلّما حَلّ الظّلامْ
جدّتي تروي الأساطيرَ لنا
حتّى ننامْ .
جدّتي معجبةٌ جداً
بأُسلوبِ النظامْ !

إزدحام

كُلُ الدروبِ امتلأتْ
بالشرطةِ السّريّهْ .
فالحمدُ للّه على رحمتهِ
والشكرُ للوالي على خُطّتهِ الأمنيّهْ .
لم يَترِكِ الشرطةُ شِبراً فارغاً
يُمكنُ أن يَسلُكَهُ الضّحيّهْ !

إبتهال

كُلّ مَنْ نهواهُ ماتْ ،
كُلّ ما نهواهُ ماتْ .
رَبّ ساعدنا بإحدى المعجزاتْ
وأمِتْ إحساسنا يوماً
لكَيْ نقدِرَ أن نَهوى الوُلاةْ !

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزيرة العربية
AL - JAZEERA AL - ARABIA

شهريّة سياسية
تُعنى بشؤون الجزيرة
العربية « السعوديّة »

السنة الثانية ــ العدد الثامن عشر ــ يوليو ١٩٩٢ / محرم ١٤١٣ هـ

رئيس التحرير ــ حمزة الحسن — مكتب لندن — TEL. 081 9086084
مدير الإدارة ــ عبد الأمير موسى — مكتب واشنطن — TEL. 202 6627046
FAX. 202 6627047

المثقف السعودي : أي دور — 10
لا توجد طبقة مثقفين في المملكة بالمعنى الأكاديمي ، والمثقفون السعوديون لم يستطيعوا حتى الآن أن يكونوا أصحاب دور متميز في الساحة ، لأن النظام السياسي لا يتيح الفرصة لأحد أن يلعب دوراً يجعله في وقت من الأوقات منافساً له . لقد تعرض المثقفون لضربة قوية بسبب سيطرة البادية وقيمها على الحياة السياسية والاجتماعية في المملكة منذ تشكلها .

الشراكة السياسية أو التقسيم — 24
تأسست المملكة إثر الهزائم التي مُنيت بها المناطق المختلفة في المملكة والتي شكلت وحدتها السياسية القسرية ، ولكن الوحدة لم تتطور الى الإندماج الكامل بينها .. ويرجع السبب الأساس في ذلك الى التفرقة بين المنتصر والمنهزم .. وشعور أغلبية السكان بمناطقية الحكم وممثليه ، ولا شك فإن تمثيل السكان سياسياً يمتص الإنتماءات الضيقة ويبعد المملكة عن شبح التقسيم .

الإمبراطورية الإعلامية — 19
شغلت الأوساط الصحفية العربية والعالمية بتحليل واستكشاف ما سمي بالإمراطورية الإعلامية السعودية ، وفي حين ركزت تلك الأوساط على الإمكانيات الضخمة التي تحظى بها هذه الأمبراطورية .. فإن القليل منها حاول استكشاف أبعادها وتأثيرها المحتمل في توجيه الرأي العام العربي . المقالة تقف على خلفيات هذه الأمبراطورية وعناصر توجهها ومدى تأثيرها الحالي والمستقبلي .

المعارضة السعودية والهوى الإقليمي — 40
هل هناك خصوصية للمعارضة السعودية يجعلها تختلف عن نظيراتها في الخليج والبلدان العربية الأخرى .. المقالة المطولة في هذا العدد تؤكد ذلك خاصة من جهة تأثرها بظروفها المحلية . والمقالة تسلط الضوء على تأثير الإنتماء الإقليمي على عمل كل فصيل من فصائل المعارضة .. كما تستعرض المقالة في سرد معلوماتي تفاصيل عن أهم التنظيمات التي ظهرت في المملكة .

سعر النسخة : في بريطانيا (جنيه استرليني) ــ في الولايات المتحدة (ثلاثة دولارات)
الإشتراك السنوي : بريطانيا (٢٥ جنيهاً) ــ أوروبا (٤٠ دولاراً) ــ بقية دول العالم (٥٠ دولاراً)
اشتراك المؤسسات السنوي : ٢٠٠ جنيه إسترليني
تكتب الشيكات لأمر H. ALQURAISH وترسل الى عنوان المجلة التالي : P.O.BOX 1532, LONDON W7 1EQ, U.K
مكتب المجلة في الولايات المتحدة : 1331 – A PENNSYLVANIA-AVE, N.W, SUITE 333 – WASHINGTON D.C. 20004, U.S.A

قسيمة الاشتراك

الإسم ..... Name.....
العنوان ..... Adress.....
مدة الإشتراك ..... One year Two years
عدد النسخ ..... number of copies.....

سهولة الحياة عندما يكون الحاكم تابعاً

□ سألت سياسياً بارزاً يعرف عن قرب طبيعة التفكير الرسمي ويتعامل عادة مع كبار المسئولين في المملكة عن الأسباب التي تجعله يعتقد بان السياسة الخارجية للمملكة تتسم بقصر النظر ، على الرغم من التجربة الطويلة الأمد نسبيا للمسئولين الحكوميين في قطاع السياسة الخارجية ، فاجاب باختصار ان هناك سببا وحيدا اصليا هو (التبعية) ، وعقب بان التبعية مريحة جدا لأصحابها ، بخلاف الإستقلال الذي تتطلب صناعته جهدا كبيرا ، ويتطلب الحفاظ عليه جهدا اكبر .

حسب معلوماتنا فان وسطاء عديدين كانوا يسعون منذ اواخر العام الماضي الى اصلاح العلاقات بين المملكة والدول العربية التي لم تؤيد موقفها خلال ازمة الخليج ، لكن الملك فهد رفض فتح الطريق امام استمرار هذه الوساطات حتى تبلغ غايتها ، على الرغم من وجود عدد من السياسيين القريبين جدا من مركز السلطة يؤيدون اعادة تطبيع العلاقات مع الدول العربية .

وحسب سياسي خليجي التقى بالملك وبعض الأمراء قبيل موسم الحج الماضي ، فان الملك اعترض على فكرة طرح هذا الموضوع للنقاش في القمة الخليجية المقرر عقدها في ابوظبي بالإمارات العربية المتحدة في ديسمبر من العام الجاري ، واعطى لمسئولين خليجيين كانوا يعرضون علية الفكرة ، انطباعا بانه لايعتزم استعادة علاقات المملكة مع اربع دول عربية قبل ان يرى زعماءها يعتذرون له عن موقفهم خلال الأزمة ، ويبدو ان هذا الراي الذي ابلغ الى تلك الدول قد قوبل برد عنيف من جانب زعمائها ، فقد اكد الملك حسين على ان الأردن لن يركع لأحد وانه سيبقى الشريف المتحدر عن اهل البيت الذين حفظوا الإسلام ، وانه لايعتزم المساومة على كرامة الأردنيين مهما تكاثفت الضغوط عليه .

اما الرئيس السوداني الفريق عمر البشير فقد اكد في تصريحات متعددة كان اخرها خطابه في الذكرى الثالثة لتوليه السلطة ، ان السوداني لن يجوع بعد اليوم كما لن يركع على قدميه طالبا القوت ، وان السودان يخطط للإستغناء عن المعونات الأجنبية التي تترافق مع المساومة على السيادة الوطنية وكرامة الشعب .

اما اليمن فقد انطلق في توثيق علاقاته الدولية ، مستفيدا من الإمكانات الواعدة التي تحفل بها اراضيه لاسيما على صعيد البترول ، الذي يبدو الآن انه يجتذب اهتمام العالم باليمن بدرجة ملحوظة ، وقد حصد التحرك النشط للمسئولين اليمنيين ثماره مبكرا على صورة علاقات مستجدة بين صنعاء والعواصم الأوربية التي كانت في الماضي تعتبر علاقاتها مع اليمن مضمونة مادامت تقيم اتصالات مع الرياض ، وتجسد هذا الإهتمام في زيارات لعدد من المسئولين الاوربيين هي الأولى من نوعها بعد قيام الوحدة ، كان اخرها زيارة الرئيس الألماني ، وقبله وزير الخارجية الفرنسي .

ان هذا الأسلوب من رد الفعل من جانب الحكومات الثلاث ياتي على النقيض تماما من التوقعات الرسمية ، اذ فوق انه يكشف عن استهجان المسئولين فيها لفكرة الإعتذار للملك ، فان هذا المطلب الملكي قد جاء بعكس ما هو متوقع منه تماما فقد ساعد من الناحية الواقعية على توسيع الشقة بين المملكة والدول الأخرى ، الأمر الذي سيجعل استعادة المملكة لنفوذها التقليدي في تلك الدول امرا عسيرا في المستقبل .

وحسب السياسي الخليجي الذي نقلنا انطباعاته في السطور التالية فان فكرة الأعتذار التي تسيطر على تفكير الملك هي من ايحاء احد الأمراء الشباب ، الذي شرح للملك جدوى الأحتذاء بالمثال الأمريكي في السياسة الخارجية ، والذي يقوم على تضييق الحزام حول الحكومات التي تصنف باعتبارها معادية او متمردة حتى لاتجد امامها بدا من العودة الى بيت الطاعة او السقوط ، وبما ان الدول التي ساءت علاقاتها مع الرياض كانت تعتمد في تدبير امورها على التمويل السعودي ، فانها ستجد نفسها بعد انقطاع هذا التمويل مضطرة لمراجعة حساباتها ، سيما مع تزايد الضغوط الإقتصادية التي ربما تؤدي الى انشقاق واسع في الشارع وتصاعد التوتر السياسي .

وثمة ادلة متعددة ظهرت خلال السنتين الماضيتين توضح ان مثل هذا التفكير هو السائد فعلا في الرياض ، ففي كل مرة ترتفع درجة التوتر بينها وبين اي عاصمة عربية ، سرعان ما يتلو الإعلام الرسمي للمملكة قائمة المساعدات المالية التي قدمتها لتلك الدولة ، بل انها في جردها لفاتورة المساعدات التي قدمتها للسودان تجاوزت المن على النظام الحالي الى المن على السودانيين جميعا حينما عرضت المساعدات التي قدمتها المملكة للسودان منذ السبعينات ،ولم تقتصر على تلك التي قدمت في عهد البشير .

وحسب المعلومات المتاحة فان عددا من كبار المسئولين قد اشاروا على الملك بفتح الأبواب امام جهود الوساطة لاسيما بعد تصاعد الأصوات في الخليج داعية الى تجاوز انعكاسات الأزمة وتطبيع العلاقات العربية .

ويستند هؤلاء الى فكرة ان العلاقات مع المحيط العربي هي احد العوامل المهمة المؤثرة على استقرار البلاد ، وليس في الإمكان تخفيف التوترات التي تعيش في ظلها المملكة في الوقت الذي تسيطر البغضاء والكراهية على علاقاتها مع الجوار الإقليمي ، ويضرب هؤلاء مثالا عن الأمن الإقليمي الذي كان في الماضي موضع قلق الملك فهد ، لاسيما بعد فشل دول مجلس التعاون في الإتفاق على نظام محدد ، وعلى سياق العلاقة مع ايران التي تستعد لبناء قوة عسكرية هي الأقوى في المنطقة .

لكن لايبدو ان الملك يشعر بكثير من القلق على استقرار البلاد في الوقت الراهن ، فما دام قد استطاع استقطاب الدعم الأمريكي لتحرير الكويت ، فانه سيكون اكثر قدرة على استقطاب هذا الدعم لحماية العرش السعودي ، هذا على الأقل مايمني الملك به نفسه وما يتحدث عنه المسئولون الأمريكيون الذين يزورون الرياض بين حين واخر ، ومادامت البلاد ستبقى تابعا امينا للولايات المتحدة الأمريكية ، فليس ثمة من حاجة ملحة لإرهاق النفس بالتفكير في وسائل اخرى لحفظ السلطة ، وليأت المختلفون زحفا على الأقدام او ليذهبوا الى الجحيم .

لعل هذا هو الذي يتراءى لأصحاب القرار الذين يرفضون اصلاح العلاقات السعودية مع الأشقاء العرب ، وهو يكشف الى اي حد تضاءلت المسافة بين مصلحة البلاد والمشاعر الشخصية ، بل انه يكشف عن حقيقة ان الذين يملكون القرار في بلادنا لايمكن وصفهم باكثر من قصر النظر ■

الخيارات الصعبة في الدور السياسي السعودي القادم

فؤاد الإبراهيم

■ ■ بمقدار ما قلبت كارثة الخليج الثانية موازين القوى السياسية في المنطقة ، فقد ساعدت في المقابل على قيام قوى جديدة ، وتبعا لها تبدلت الادوار الاقليمية والدولية لكل قوة من هذه القوى ، وكان للتحولات الدولية تماس مباشر بدور كل قوة كما كان لسقوط الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي دور مباشر في تراجع قوى عديدة في العالم خلف المسرح السياسي بعد أن كانوا في الواجهة .. ويفترض أن تكون المملكة واحدة من الدول التي قد تشغل فراغا في مسرح السياسة الاقليمية والعربية بعد انهيار الكتلة الشرقية ، وبعد تبدد الخطر والقوة العراقيتين وخروج العراق — وإن كان مؤقتا — من المعادلة السياسية الاقليمية والعربية كعنصر رئيسي وفاعل .

لقد طرحت أزمة الخليج تساؤلات عدة حول ماهيّة القوى الجديدة المؤثرة في حركة الاحداث والموجهة لها على ضوء المعطيات السياسية الجديدة على المستويين الاقليمي والعربي ، على أساس أن ثمة انقلاباً كبيراً قد حصل في موازين القوى المرتبطة الى حد كبير بالصراع الدولي في مرحلة الحرب الباردة ، ومع محاولة الانتقال الى مرحلة جديدة بشّر بها الرئيس بوش في السابع عشر من يناير ١٩٩١م ، فان القوى الحليفة للولايات المتحدة ستحتل موقعاً متقدماً ودوراً متميزاً في مجمل مراحل الحدث السياسي الاقليمي والعالمي .

ويعتقد البعض أن المملكة قد حجزت موقعها في النظام العالمي الجديد وبدأت فعلا بممارسة نشاطها من ذلك الموقع ، ولذلك فهي تتعامل مع من حولها بمنطق جديد وأساليب مختلفة تنسجم مع موقعها الراهن ، ويستشهد هؤلاء على ذلك بما جرى خلال شهر يونيو الماضي ، ففي غضون أقل من شهر تفجرت الخلافات بين المملكة ودول عربية مجاورة بشأن موضوعات متعددة .. قضم أراضي يمنية وضمها الى الخارطة السعودية ، مناوشات عسكرية سعودية على الحدود اليمنية ، واشاعة البلبلة في صفوف الشعب اليمني للاطاحة بنظام الحكم وافشال الوحدة .. وتجاوز الدور الاردني في رعاية الاماكن المقدسة ، وارسال مساعدات عسكرية الى المتمردين في جنوب السودان .

هذه القضايا وغيرها والتي تفجرت على الساحة الاعلامية في وقت واحد يفترض أن تثير ذعر العائلة المالكة ، وأن تشعرها وكأنها وسط عاصفة هوجاء ، الا أنها قابلت هذه التفجرات باسلوب في غاية الصرامة — على غير عادتها — الامر الذي دفع بها الى اصدار بيانات غاضبة للرد على هذه الاتهامات بطريقة أقل ما يقال عنها أنها متشنجة .. فرغم العناية الشديدة التي توليها العائلة المالكة — عادة — في كتابة البيانات ، الا ان الأخيرة منها جاءت متحررة من أي شكل من أشكال العناية .. فقد وجه المصدر المسؤول في الحكومة السعودية « صفعة لحاكم السودان » على حد تعبيره ، وسلب من الملك الاردني نسبه الهاشمي ، واتهم اليمنيين بالافتراء والكذب ، ثم أطلق العنان للصحافة المحلية بسرد باقي مفردات التشهير والمنّ والتحريض والتي كرست صفحات خاصة اشتملت على قوائم طويلة بالمساعدات الاقتصادية ، كما تضمنت دعاوى في غاية الاثارة كالدعوة للاطاحة بنظام الحكم في السودان .

ولا بد أن تصريحات المصدر المسؤول قد أثارت انتباه المهتمين بالشؤون السعودية ، فالمملكة التي اختطت لنفسها اسلوبا معتدلا في التعاطي مع القضايا الخارجية ، وحرصت على ادخال كافة الخلافات تحت المظلة الدبلوماسية ، بعيدا عن عيون الصحافة والرأي العام العربي والاجنبي ، بل ومحاولة رأب الصدع وتسوية الخلافات عبر الاتصالات السرية ، وعلى أقل التقادير التكتم عليها وعدم اثارة انتباه من حولها أو من تعتبرهم المتربصين بها الدوائر ، فاذا بها ترد بأسلوب متحامل غارق في التشدد والاستفزاز .

فهل هذه التصريحات تكشف عن استراتيجية جديدة للمملكة في سياستها الخارجية ؟ .

يرد تفسيران أوليان للاجابة على التساؤل المطروح :

التفسير الاول يقول : أن المملكة خرجت منتصرة بعد أزمة الخليج الثانية ، وبالتالي تشعر أنها أقوى من ذي قبل ، حتى وان لم يحدث أي تغيير في قوتها العسكرية الذاتية ، فتلاشي الخطر العراقي منح المملكة قوة معنوية ، الامر الذي حررها من كل التحفظات والهواجس التي ظلت تلاحقها لفترة طويلة من الزمن ، كانت فيها المملكة في موقع الدفاع والحذر .

التفسير الاخر يقول : أن المملكة أصبحت أكثر حساسية من ذي قبل ، لأنها أصبحت قاعدة انطلاق القوات الاميركية والغربية على حد سواء بعد توقيع المملكة عدة اتفاقيات دفاعية أمنية بصورة سرية مع الولايات المتحدة بعد أزمة الخليج ، وهو أمر في غاية الخطورة قد يشعل الرأي العام في الداخل والخارج ، اضف الى ذلك تورط الحكومة السعودية في قضايا معقدة أمام النقاش الداخلي كقضية السلام مع اسرائيل ، والتي يستحيل أن تجد لها قبولا من جانب شعب الجزيرة العربية ، لهذا اتخذت العائلة المالكة سياسة الهجوم على الآخرين واثارة قضايا ليست ذات علاقة بالمواضيع الحساسة التي تحاول التهرب منها ، كما أنها تحاول ضبط حركتها السياسية الخارجية ، ومراقبة اي صوت يثير الانتباه بحيث يمكنها من مواصلة السير نحو الاهداف النهائية .

وعلى أية حال فقد يكون التفسيران صحيحين ، ولكن يبدو أن فهم أبعاد هذه التصريحات يتجلى بصورة أكبر من خلال قراءة متأنية في طبيعة تعامل المملكة مع الموضوعات الخلافية ، والوسائل المعتمدة لديها والاهداف النهائية التي تسعى لتحقيقها من وراء هذه الموضوعات . والغرض من تلك القراءة تقييم السياسة الخارجية السعودية ، على ضوء تساؤل طرحته أكثر من جهة يقول : هل لدى المملكة مطمح قيادي في المرحلة القادمة ، على ضوء التحليلات التي تقول بأن المملكة قد صعدت كقوة اقليمية وعربية في ظل النظام العالمي الجديد ، وكيف تنظر الدول العربية الى المملكة ، والى اي مدى وصلت المملكة في مساعيها للوصول الى قمة الهرم القيادي سواء على المستوى الاقليمي أو القومي ؟ .

■ ■ أساور من شوك

قد نحتاج في المقام الاول وقبل الكشف عن المطمح القيادي للمملكة ، الى اطلالة سريعة على المحيط الاقليمي الذي تعيش المملكة في وسطه ، لنرى أن الاخيرة محاطة بأساور من شوك ، لم يتم تحضيذها بعد ، وهي سبب هذه التفجرات السياسية في علاقة المملكة مع الدول المجاورة ، كما لها نسبة معقولة من التداعيات الخطيرة على أوضاع المملكة الداخلية . ويمكن استعراض البؤر الكامنة المتوترة بين المملكة ودول الجوار على النحو التالي :

□ **اليمن : خلاف سياسي مزمن ، يغذيه خلافات حدودية نتجت عن تعديات سعودية تستهدف اقتطاع اراض ، الى جانب التدخل في الشؤون الداخلية لليمن . ويعزز كل هذا الخلاف المذهبي حيث المذهب يغلب في الشطر الشمالي لليمن والمذهب الشافعي في**

الشطر الجنوبي .. ويعتبر المذهب الرسمي للمملكة على خلاف بين هذين المذهبين ، وقد اصدر قادة المذهب الرسمي فتاوى تكفر الشيعة الزيود .

□ **عمان** : خلاف حدودي قديم ، وخلاف مذهبي حيث المذهب الأباضي سائداً في عمان ، وهو مذهب كفري بنظر المذهب السعودي الرسمي ، وقد توترت العلاقة بين البلدين أكثر من مرة بعد فتاوى أصدرها الشيخ عبد العزيز بن باز ضد الاباضية .

□ **الامارات** : خلاف حدودي على البريمي ، وتذمر من تدخلات سعودية في شؤون بعض الإمارات ضد شقيقاتها في الإتحاد ، وللتذكير بالدور السعودي هذا ، فإن المملكة ساعدت على الإنقلاب الفاشل في الشارقة قبل نحو خمس سنوات .

□ **قطر** : رغم التوافق الرسمي بين البلدين مذهبياً ، فقد كان الخلاف الحدودي وقضم الأراضي القطرية والتي كان آخرها أجزاء كبيرة من منطقة « سلوى » ، وضمها الى الاراضي السعودية ، إضافة الى الخلاف حول خور العديد ! ، كانت هذه المسائل الحدودية سبباً في توتير العلاقة بين البلدين خلال السنوات الثلاث الماضية ، خاصة بعد محاولة قلب نظام الحكم الفاشلة التي تمت في العام الماضي وقام بها أعضاء في العائلة الحاكمة بدعم سعودي مباشر .

□ **البحرين** : التدخل في الشؤون الداخلية للبحرين جعل المحللين يعتبرونها التابع الأضعف بين دول الخليج للمملكة ، وقد زاد الجسر الذي يربط جزر البحرين بالمملكة من إمكانية الأخيرة في السيطرة على الأوضاع الداخلية في البحرين وزيادة نفوذها فيها . تجدر الإشارة الى أن أغلبية سكان البحرين هم من الشيعة وهم بلا شك على خلاف مذهبي مع المذهب السعودي الحاكم .

□ **الكويت** : خلاف حدودي ، وهناك مخاوف شديدة من محاولات النفوذ السعودية للكويت ، لتخريب تجربتها الخاصة بها في الحكم والإدارة .

□ **العراق** : خلاف سياسي تاريخي مزمن وكذلك توجد خلافات حدودية ومذهبية .

□ **الاردن** : خلاف عائلي وسياسي وحدودي ، فالمملكة لاتزال تعتقد بأن العقبة ومعان جزءاً من أراضيها ، وأن هاتين المنطقتين تتبعان الحجاز الذي سيطر عليه السعوديون وطردوا الحكومة الهاشمية منه ، وهي العائلة التي تحكم الأردن اليوم .

هذا إضافة الى الخلافات والهواجس التي تحكم علاقة المملكة مع عدد من الأقطار المجاورة كإيران والسودان .

لهذا فإن المملكة محاطة باساور من شوك ، نتيجة العلاقات الاقليمية المضطربة والمتسمة الى حد ما بالعدائية ، رغم ما يفترض أن تكون المملكة قد أولته من أهمية كبيرة للمحيط الاقليمي للحيلولة دون تسرب تأثيراته الى داخلها ، وإن سوء العلاقات الحالية بين المملكة ومحيطها العربي وربما الإسلامي يجعلها عاجزة عن لعب دور فاعل في الدائرة العربية الاوسع .

■ ■ من العزلة الى النفوذ

كانت المملكة وحتى أواخر الستينات تعيش شبه معزولة لمشاكلها الداخلية والصراعات التي كانت تعصف بأجنحة الحكم ، ولخلافها مع محيطها الذي تجلى في دخولها الحرب مع ثورة اليمن والإصطدام بالتيار القومي المتصاعد يومئذ .. لكن وبعد نكسة حزيران ثم وفاة عبد الناصر بدأ ما أسماه الصحافي المصر محمد حسنين هيكل بـ « الحقبة السعودية » وظهور الملك فيصل كسياسي بارع تمكن من اخراج المملكة من طوق العزلة الذي فرضه المد الناصري عليها نحو عقدين من السنين .

استخدم الملك فيصل الشعار الديني الإسلامي بحذاقة في أعماله السياسية ، وقد ساعده على ذلك سقوط الشعار القومي نتيجة النكسة . ولعبت المملكة في عهد الملك فيصل دوراً حيوياً في التصدي للمشاكل العربية والإسلامية ، وخطت السياسة الخارجية بصورة تمكن البلاد من لعب دور في سياسة الوساطات والمصالحات لتطبيع وجودها ودورها في السياسة العربية .

فدخلت المملكة في عهد فيصل ، وتبعه على ذلك النهج خلفاؤه الى حين ، وسيطاً في الخلاف المصري السوري بعد توقيع اتفاقية فك الارتباط الثاني أو اتفاقية سيناء الثانية ، وشاركت في موضوع الحرب الاهلية في لبنان ، وفي اثارة أمن البحر الاحمر ، وفي الازمة بين شطري اليمن ١٩٧٨م ، وفي الازمة بين الاردن وسوريا ١٩٨٠م ، ودخلت في وساطة بين عمان واليمن « الجنوبي آنذاك » وبين عمان والامارات في قضية الخلافات الحدودية ، وبين البحرين وقطر على مسألة الجزر ، وسوريا والعراق على مياه نهر الفرات ، والعراق والكويت على الحدود المتنازع عليها الى ما قبل الغزو ، وأكثر من ذلك بذلت المملكة جهوداً في المصالحة فيما يتعلق بالصراع المغربي ــ الجزائري على الصحراء الغربية عام ١٩٧٦م ، وغير ذلك .

على أن تطور الديبلوماسية السعودية من لعب دور الوسيط والقاضي الى دور المشارك أوقعها عملها السياسي في حرج بالغ ، وعرض مكانتها للإهتزاز ، كما حدث ذلك في الحرب الأهلية اللبنانية ، وكما في مسألة الخلاف حول جزر حوار حيث مالت الى البحرين قبال قطر . وهذا التحول في الدور هو الذي بدّد مكانة المملكة الخارجية في السنوات الأخيرة ، حتى بين دول مجلس التعاون الخليجي .

إن لعب دور « المشارك » في الصراع لم يوسع دور المملكة فينقله من مستوى النفوذ الى مستوى السيطرة والقيادة ، وكانت تجربة مجلس التعاون الخليجي وما وصل إليه دلالة واضحة على أن الأقوى لا يستطيع دائماً ممارسة نفوذه وتوسيع سيطرته حينما يعتمد سياسة الإنحياز ، ويزرع بذور الشك والريبة لدى أصدقائه .

■ ■ الاستقطاب والردع

الانكماش الذي عاشته المملكة في عقدي الخمسينات والستينات هو حصيلة للتطورات السياسية الخطيرة التي شهدتها الساحة العربية ، خاصة بعد تهاوي عدد من الانظمة الملكية والمحافظة وظهور اتجاه راديكالي يقوده العسكر في عدد من الدول العربية ، بحيث اصبحت المملكة طرفاً مستهدفاً ، وعلى حد قول وليم كونت في كتابه « السعودية في الثمانينات » : بأن « السعوديين كانوا متورطين في تعقيدات السياسة العربية . ويمكن القول بأن ما من حركة أو حزب أو فصيل في العالم العربي لم يشهّر بالسعوديين أو يحاول الاطاحة بهم » .. الامر الذي جعل العائلة المالكة تبحث ملياً عن مخرج لتجاوز الحذر والترقب والخوف من المجهول ، وهنا لعبت الشيكات النفطية دوراً فاعلاً في اخماد بؤر التوتر التي قد تنفجر تحت أقدامها . ونشير هنا الى أن وصول العسكر الى الحكم في بعض الدول العربية أدى الى اضعاف دور الجيش السعودي خشية أن يقوم بانقلاب عسكري كما كان مجرباً في تلك الفترة .

وبالفعل نجحت المملكة الى حد كبير في استمالة كثير من أعدائها ، وتمكنت من اسكات الحملات الاعلامية التي كانت توجه من القاهرة وبغداد وبيروت وطرابس الغرب وعدن ، وبذلك ادارت أفواه المدافع الى جهة أخرى ، وتمكنت من تدجين عدد من الحركات الراديكالية في البلاد العربية ، وبكلمة نجحت العائلة المالكة في تأمين وضعها الداخلي واستقرار نظام حكمها ، بفعل دور الوساطة والمصالحة المدعوم بالمال .

■ ■ التغيير وتأمين الداخل

بداية نقول ان المملكة تخشى التغيير أياً كان نوعه وحجمه ، وهذا طبع الدول المحافظة التي يستمد نظام الحكم فيها قوته من بقاء الاوضاع واستقرارها دون تغيير لفترة طويلة ، حسب القاعدة التي وضعها مكيافيلي ! . وفي حال السعودية حيث يتلخص الحكم في العائلة ، فان تبدل هذه الصيغة بمشاركة أطراف أخرى في الحكم يعد من وجهة نظر تلك العائلة تهديداً مباشراً لها ، هذا على صعيد الداخل .

أما في الخارج فان المملكة تنظر الى التحولات السياسية الجارية على الساحة

الاقليمية أو الدولية على أنها تشكل خطراً عليها بفعل تموجاتها ، ويزداد خطر التحولات حين يتأثر بها القريبون ، ولذلك فمن الطبيعي أن تعكس ظلالها على الاوضاع الداخلية ، خاصة في حال سقوط نظام ملكي عائلي في أي من دول العالم خاصة الدول القريبة منها ، فانه يضاعف من خوف المملكة ويدفع بها لأن تحاذر من أن تخطو باتجاه الدول المعرضة للسقوط ، ولذلك تسعى للابقاء على الوضع القائم بكل ما فيه من سلبيات وأزمات . بل وتتمسك به حتى اللحظة الاخيرة وتعتبر كل النشاطات التي تقوم بها لتحقيق هذا الغرض شرعية .

يقول عبدالله القباع في كتابه « السياسة الخارجية السعودية » : « أن المملكة تميل الى دعم الشرعية وتقاوم الخروج عليها . ومن هذا المنطلق فان النزعة السعودية ، تنسجم تماماً مع نظرتها المحافظة وتوجهها العام » . مثال ذلك ما قاله الملك فهد ــ الامير يومئذ ــ في مقابلة مع مجلة الحوادث البيروتية قبل أيام من انتصار الثورة الاسلامية في ايران : « إن المملكة مازالت متمسكة بالشرعية المتمثلة في الشاه محمد رضا بهلوي » . رغم أن الاخير كان قد حزم حقائبه لمغادرة ايران . وتكرر تصريحات مشابهة حول دعم الشرعية في دفاع الأمراء عن الأنظمة المتهاوية او الساقطة ، وكان آخر استخدامها أبان الغزو العراقي للكويت ، وكذلك في حوادث الجزائر الأخيرة ، حيث اصرّت المملكة استخدام منطق الشرعية ، ليس للدفاع عن آل صباح أو الطغمة العسكرية الحاكمة في الجزائر في واقع الأمر ، وإنما للدفاع عن النظام القائم في المملكة نفسها .

جانب آخر للتغيير كانت تخشى منه المملكة هو قيام الاتحادات والكيانات الكبرى التي يمكن أن تهدد مكانتها أو تعطي الدول المحيطة قوة مضاعفة تستطيع تهديد المملكة أو موازاة قوتها ، والأمراء السعوديون يفترضون أن كل اتحاد هو موجه ضدهم ، تأسيساً على قاعدة أن كل الدولة المحيطة بالمملكة ــ عدا دول الخليج ــ تصنّف كدول عدوه أو في مقام العدو .. لقد عارضت المملكة قيام اتحاد الهلال الخصيب كما عارضت الجمهورية العربية المتحدة التي قامت في ١٩٥٨م بين مصر وسوريا ، بل وقررت افشالها عن طريق تقديم رشاوي الى عبد الحميد السراج لقيادة انقلاب في سوريا ، لأن المملكة تنظر الى مثل هذه الكيانات كقوى خطرة تهدد مصيرها ، وهي نفس النظرة التي حملتها المملكة تجاه اليمن ، وتجاه مجلس التعاون العربي الذي أعلنت وفاته بعد الغزو العراقي للكويت .

وبصرف النظر عما يدور في أذهان العائلة المالكة التي تؤمن بالنظرية التآمرية في معظم الظروف والأحوال .. فان البيانات الغاضبة والموتورة وان لم تمثل خطأ سياسياً جديداً في نهج السياسة الخارجية للمملكة ، الا أن ذلك لا يعني مطلقاً أنها قد غفرت لمن خالفها في الموقف السياسي من أزمة الخليج ، بل مازالت مصممة على معاقبة المخالفين بطريقة تستعيد فيها بعض ما خسرته من رصيدها السياسي العربي والاسلامي . لكن المملكة اليوم لا تستطيع فتح جبهة صراع عريضة مع عدّة دول ولوقت طويل في الوقت الذي تتسمّر عيون أمراء العائلة المالكة على الداخل وتطوراته غير المريحة ، فهي إنما أرادت من الصراع مع دول الجوار : تحصين الداخل عبر إفتعال عداوات خارجية ، ولكن إذا ما تغيّر الأمر وأصبح الصراع مغذّياً للمشاكل الداخلية ، فإن الأمراء سيتراجعون عن نهجهم هذا .

■ ■ الرهانات الصعبة : القيادة ــ العزلة ــ الهوية العالمية

تتباين آراء الباحثين والمحللين السياسيين في توقعاتهم لدور المملكة المرتقب ، فيما يقوّم بعضهم هذا الدور على أساس عناصر القوة والضعف لديها والتي تحكم حركة السياسة السعودية ، ويمكن استعراض تلك الآراء على النحو التالي :

□ يقول بعض الباحثين : أن المملكة لا يمكن أن تكون رائدة سياسياً في أي محيط اقليمي أو عربي أو اسلامي أو دولي ، لأن سياستها في الغالب تتسم بالغموض والتكتّم والحذر وضعف المبادرة ، وهذا يعكس جانب ضعف كبير في البناء السياسي ، كما أنه يكشف عن ضعف القرار . يقول وليم كونت : « الاسلوب السعودي في اتخاذ القرار بطيء عادة ، وعبارة عن ردة فعل أكثر منه مبادرة ، ومداورة أكثر منه مباشرة » ، ولأن المملكة تخشى من الآخر المجهول ، فلذلك تحاول التعاطي معه والنفوذ اليه بحذر . ويتضح الحذر بصورة أكبر في خشية المملكة من « المعلومة » حيث تعتبرها عنصر خطر وشبح مخيف ، ولذلك فهي تحاول محاصرة مصدر تدفق المعلومات ، بل أن صناعة القرار واتخاذ الموقف لما فيها من جانب معلوماتي تتم بطريقة مغلقة باحكام ، وتفضل المملكة الصمت بشأن القضايا الحساسة مما يوحي بأنه أصبح عنصراً في صناعة القرار السياسي .

□ ويرى آخرون : أن عوامل التأهيل للزعامة ليست مقتصرة على الثروة فحسب ، بل هي مطمح صعب المنال يتطلب ــ الى جانب الثروة ــ عناصر تأهيل متعددة وذاتية منها : التراث التاريخي والثقافي والحضاري ، والثقل البشري ، والتفوق العلمي والصناعي ، والتجربة السياسية ، والديبلوماسية الفاعلة ، إضافة الى القوة العسكرية والشخصية الكاريزمية القيادية ، ومكانة الدولة وسمعتها في المحيط الاقليمي والقومي والدولي .. والمملكة تفتقر الى كثير من هذه العناصر ، وهناك دولاً عربية أقدر من المملكة على لعب دور الزعامة والقيادة .

ويؤكد اصحاب هذه النظرة بأن المملكة التي نجحت في استخدام الثروة كرهان في حلبة الزعامة طيلة العقدين الماضية ، لم تبدل من نظرة الآخرين عنها ، فالمملكة في نظر القابضين ليست سوى بنك ممتلىء بالمال ، يقدم قروضاً ومساعدات لحل أزمات الاخرين دون أن تكون لها سلطة عليهم حتى من الناحية المعنوية ، لأن القابضين يعدّون ما يحصلون عليه من مال حقاً للفقراء في مال الاغنياء .. ودليل أصحاب هذه النظرة في ذلك أن المملكة وبعد أيقافها صنبور المساعدات الاقتصادية عن بعض الدول العربية إبان أزمة الخليج الثانية ، فتحت على نفسها جبهة عريضة ، وأن المساعدات والقروض التي دفعت قبل أزمة الخليج لم تستطع أن تحقق غرضها السياسي في وقت كانت المملكة بأمس الحاجة الى الدفاع والحماية والتأييد .

□ وهناك رأي ثالث يقول : بأن المملكة عجزت عن لعب دور مستقل في سياستها الخارجية ، فقد كان دورها وطيلة العقود الماضية دور التابع للسياسة الأميركية ، يرتفع وينخفض مؤشره تبعاً لمواقف شعوب وحكومات الدول العربية والإسلامية من اميركا والغرب . ولهذا لا ينظر للمملكة إلاّ وكأنها مجرد أداة بيد الأميركيين ، أو ملحق بالسياسة الخارجية الأميركية ، وقد عجزت المملكة عن صنع نهج سياسي خاص بها ، ولا يعتقد أن تبعيتها السياسية ــ المطلقة بعد أزمة الخليج ــ ستجعلها مؤهلة في أي وقت من الأوقات للعب دور بارز على صعيد الزعامة العربية والإسلامية .

من هذه النظرات مجتمعة يمكن القول بأن المملكة قد خرجت من أزمة الخليج بدون رصيد سياسي ، وقد تعود الى سابق عزلتها في عقدي الخمسينات والستينات ، كنتيجة لتدهور علاقاتها مع عدد كبير من الدول العربية ، وبالتالي فان الانتصار الذي حققته الولايات المتحدة بعد انهيار المعسكر الشرقي وأزمة الخليج الثانية ، لن يدفع المملكة لأن تكون دولة قائدة بل أن الاحداث التي أعقبت الازمة أفقدت المملكة الكثير من المواقع والمكتسبات .

وخلاصة القول أن المملكة قررت تجاوز الدائرتين الاقليمية والعربية ، بهدف لعب دور من خلال النظام العالمي الجديد ، يظهر ذلك في صور عدة : مشاركة المملكة الفاعلة في مؤتمر السلام مع اسرائيل ، رفض المشاركة العربية في النظام الامني الاقليمي وتوقيع اتفاقية دفاعية أمنية مع الولايات المتحدة ، وضعف الحركة الديبلوماسية السعودية على المستوى العربي .

المحكمة العليا الامريكية تبحث دعوى ضد الحكومة السعودية

تدخلت الادارة الامريكية بطلب من الرئيس بوش يوم الاثنين الموافق للثامن من يونيو الماضي لمنع مثول الحكومة السعودية امام المحكمة الأميركية العليا لمقاضاتها بشأن دعوى زعم فيها مواطن امريكي انه تعرض للتعذيب على ايدي من وصفهم بعملاء للحكومة السعودية .

ويزعم المواطن الامريكي سكوت نيلسون « ٣٨ عاما » انه ضرب ضربا مبرحا في عام ١٩٨٤ بعد ان كتب تقارير عن انتهاك قواعد السلامة في مستشفى الملك فهد التخصصي في الرياض حيث كان يعمل مهندسا لانظمة المراقبة .

ورفع نيلسون الدعوى على اساس قانون صدر عام ١٩٧٦ ويسمح للمواطنين بمقاضاة دول اجنبية عن تصرفاتها اذا كانت تتعلق بأنشطة تجارية في الولايات المتحدة . وقال نيلسون في دعواه ان القانون ينطبق على حالته لأن اجراءات تعيينه واستخدامه تمت في الولايات المتحدة .

وزعم نيلسون في الدعوى انه اعتقل وسجن ٣٩ يوما واستجوب وقيد انتقاما لابلاغه عن الانتهاكات ، ويطالب نيلسون في دعواه بتعويضات مالية لم يكشف النقاب عن حجمها .

ونفت الحكومة السعودية تعرض نيلسون لأي سوء معاملة ، وقالت انه اعتقل لتزويره الشهادات التي استخدم على اساسها حيث قدم شهادة مزورة من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا .

وكان قاضي اتحادي قد رفض الدعوى في ميامي ، ولكن محكمة استئناف قضت في عام ١٩٩١ باستمرار نظرها .

وكان ممثلو الدفاع عن السعودية في الطلب المقدم للمحكمة العليا قد قالوا « ان هذا الحكم ليس سابقة فحسب ولكنه خطأ » . وأضافوا بأن للقضية آثارا مهمة على علاقات الولايات المتحدة بدول اجنبية .

ودافع المحامون بأن المحاكم الامريكية غير مختصة ببحث تطبيق دولة اجنبية لقوانينها السيادية ، وقالوا انه يجب رفض الدعوى . وأيدت الادارة الامريكية في وثائق قدمها محامو وزارتي العدل والخارجية طلب السعودية .

وقال محامو الحكومة الامريكية ان حكم محكمة الاستئناف من شأنه اخضاع دولة اجنبية لسلطة محكمة اتحادية بشأن موضوع يخرجه قانون الحصانة السيادية الاجنبية من نطاق السلطة القضائية الامريكية .

وطالبوا بايجاد حل للقرارين المتناقضين حول هذا الموضوع ، ووضع قواعد عامة وواضحة تحدد الحالات التي ينطبق عليها الاستئناف من قانون الحصانة السيادية .

وقالت هيئة الدفاع عن نيلسون وزوجته انه يجب رفض الطلب ويجب استمرار الدعوى .

وقد رفعت زوجة نيلسون دعوى منفصلة تزعم فيها ان شخصا وصفته بأنه عميل للحكومة السعودية ابلغها بأنه يمكن اطلاق سراح زوجها في مقابل الجنس ، وساومها حول الافراج عن زوجها مقابل الموافقة على ممارسة افعال شائنة .

وكانت وزارة الخارجية قد ذكرت في رسالة بعثت بها الى السفير السعودي في واشنطن الامير بندر بن سلطان في مارس ١٩٩١ انها « ترحب بأي خطوات تقوم بها الاطراف لحل هذا النزاع في تسوية عن طريق المفاوضات » .

وكان الامير بندر قد طلب المساعدة في هذه القضية من وزير الخارجية الامريكية جيمس بيكر فور انتهاء حرب الخليج . وذكرت انباء صحفية ان وزير الخارجية الامريكي نصح السفير السعودي بالتفاوض مع صاحب الدعوى ومحاولة التفاهم معه على مبلغ للتعويض مقابل تنازله بدون اثارة القضية في المحاكم .

ومن المقرر ان تفتح المحكمة العليا باب المرافعة في الدعوى ثم تصدر قرارا خلال دورتها التي تبدأ في اكتوبر القادم .

واشنطن توجه يلتسين لجمع الاموال من السعودية !

من المتوقع ان يصل الرئيس الروسي بوريس يلتسين الى السعودية خلال شهر يوليو الجاري بعد ان نصحته الادارة الامريكية بالقيام بهذه الزيارة الفريدة من نوعها ، والتي تعتبر اول زيارة رسمية لرئيس روسي منذ قيام المملكة ، وتكتسب اهمية كونها تأتي بعد انهيار القوة السوفيتية وتلاشي دور القوة الثانية في العالم .. وبالتالي فهي لا تستهدف تهديد المصالح الغربية التي حرص الامريكيون على ابقاء الروس بعيدين عنها خلال الحرب الباردة .

وتقول انباء مطلعة ان الحكومة الامريكية نصحت الرئيس يلتسين بزيارة الرياض متعهدة ببذل جهود لاقناع الحكومة السعودية تقديم مساعدات اقتصادية وقروض طويلة الاجل لحكومة يلتسين ، مقابل تعهده بتدمير نصف ترسانته النووية والموافقة على مشروع امريكي بمراقبة بيع الاسلحة ومنع انتشار الاستراتيجية منها .

وقد اعتذرت الادارة الامريكية عن تقديم قروض في الفترة الراهنة نظرا للازمة التي يعاني منها الاقتصاد الامريكي ، وحرص الرئيس بوش على احراز تقدم في العلاقات بين البلدين ــ أميركا وروسيا ــ ليزيد من رصيده الانتخابي في وقت يشهد منافسة حادة من المرشح المستقل بيرو .

وفكرة الدفع بالنيابة ، فكرة قديمة مارستها الحكومة السعودية لشراء حلفاء لصالح الولايات المتحدة ، وبالتالي كسب وتعزيز اهتمام الحكومة الامريكية بها وتشجيعها للدفاع عن النظام القائم في المملكة .

وكانت السعودية قد قدمت بناء على توصية امريكية قرضا عاجلا في اغسطس ١٩٩١ للاتحاد السوفيتي السابق بعد يوم واحد من فشل الانقلاب ضد الرئيس جورباتشوف ، وفي حين تقدمت جميع الدول الدائنة للاتحاد السوفيتي بطلب تثبيت وتسجيل ديونها لوريثة الاتحاد وهي روسيا ، فإن الحكومة السعودية لم تتقدم بعد للمطالبة باعادة تسجيل دينها .

كما شاركت السعودية في مؤتمر عقد قبل اشهر في الولايات المتحدة وشاركت فيه سبعون دولة بهدف تجميع مبلغ ضخم لمساعدة الجمهوريات السوفياتية المستقلة وخاصة روسيا ، من اجل دفعها لحجب خبرتها النووية عن الوصول لدول قد تعيد تجميعها ضد مصالح الولايات المتحدة .

بوش يعتذر عن استقبال الملك فهد ، والسعودية تمول حملته الانتخابية

قالت انباء صحفية ان الملك فهد طلب زيارة الولايات المتحدة لاجراء فحوصات طبية والاجتماع بالرئيس الامريكي جورج بوش ، الا ان الادارة الامريكية اعتذرت للحكومة السعودية عن عدم تمكن الرئيس الامريكي من الاجتماع بالعاهل السعودي لانشغاله بحملته الانتخابية .

وقالت تلك الانباء ان المملكة فسرت سبب الزيارة باظهار التأييد للرئيس بوش في حملته الانتخابية ، واعربت عن استعدادها تقديم مبلغ قدره ٥٠ مليون دولار كمساهمة لتمويل حملة الرئيس بوش الانتخابية ، وهو الرئيس الذي ارسل قواته لحماية السعودية ومحاربة العراق .

وفي حين اعتذرت الادارة الامريكية عن استقبال الفهد ، فإنها لم تذكر شيئا بشأن المساهمة المالية في دعم حملته الانتخابية ، وكانت انباء اخرى قد ذكرت ان امير الكويت قد عرض على الرئيس بوش خلال لقائه القصير معه في البرازيل على هامش مؤتمر قمة الارض بتكفل الكويت كامل تكاليف الحملة الانتخابية للرئيس بوش .

وكانت السعودية قد اعتادت على مساعدة الرؤساء الأميركيين في حملاتهم الإنتخابية بينها ، حملة كارتر للرئاسة الثانية ، وحملة ريغان الإنتخابية الثانية .

اضطرابات سياسية في حج هادىء

بالرغم من ان الحكومة السعودية تحدثت عن موسم الحج باعتباره اكثر المواسم السابقة هدوءاً ونجاحا من حيث التنظيم ، وبالرغم من ان الامير نايف اعلن للصحافة المحلية ان اجهزة الامن تمكنت من تحقيق اعلى نسبة من الامن واستطاعت ان تمنع « كل من تسول له نفسه » العبث او استغلال موسم الحج .. إلاّ أن الأنباء الواردة من حجاج ومواطنين تفيد بأن موسم الحج الماضي كان من اسوأ المواسم على الاطلاق في التنظيم خلال ربع القرن الماضي ، وقد شهد حج هذا العام الكثير من الموتى بسبب ضعف الخدمات أو سوء تنظيمها .

ومن جهة أخرى فإن عدداً غير قليل من الحجاج السودانيين والمصريين واليمنيين قد اعتقلوا بتهم إثارة الشغب ، واتهمت اجهزة الأمن السعودية الحجاج السودانيين بأنهم كانوا وراء توزيع منشورات تهاجم الحكومة السعودية وتتهمها بتغذية الصراع في الجنوب السوداني وتمويل المتمردين المسيحيين .

ومن جهة ثالثة ، فإن العديد من الحرائق ــ قيل أنها مفتعلة ــ شبّت في منى في الأيام ٧ ، ٨ ، ٩ ، من شهر ذي الحجّة الماضي وأتت على نحو عشرة آلاف خيمة معدّة للحجاج ويملكها أحمد شيخ رئيس مطوفي الهنود .

ورغم كل ما قيل من حسنات عن الموسم من أجهزة الإعلام السعودية ، فإن جنود الاعلام والدبلوماسية السعودية خاضوا اكثر من حرب سياسية مع دول عربية بشأنه .

فقد ورثت الحكومة السعودية من حرب الخليج شعورا بنشوة النصر دفعها للمواجهة بعنف ضد كل من يعارضها او يشكك في مواقفها بعد ان كانت تتريث او تسعى للاحتواء .. وخلال موسم الحج ساءت العلاقات الى ادنى مستوى لها بين السعودية وليبيا بشأن موضوع سفر الحجاج الليبيين وسط الحصار الدولي المفروض على بلادهم ، وهاجمت الحكومة ومن بعدها الصحف الجماهيرية الليبية واتهمتها بقطع السبيل بسبب قيام متظاهرين ليبيين بمسيرات تندد بالحكومة السعودية بدعوى منعهم من اداء مناسك الحج ، وهو اتهام ردت عليه السعودية بالنفي وهاجمت السلطات الليبية بسببه .

واستمرت الصحف المحلية تنتقد الجماهيرية حتى وجدت لها مادة اخرى ، صنعها وزير الاوقاف العراقي عبد الله فاضل الذي كان مدة طويلة من الزمن صديقا شخصيا للمسؤولين السعوديين ، ومستخدما لتجميع فتاوى التكفير ضد من يخالف موقف السعودية او يعارض اشرافها الديني على الاماكن المقدسة .

وقال فاضل ان الحكومة السعودية تعرضت بالاهانة لمواكب الحجاج العراقيين وانها اعتقلت العديد منهم وعذبتهم ، وان نحو عشرة حجاج عراقيين ماتوا نتيجة سوء المعاملة وحصرهم ساعات طويلة تحت اشعة الشمس . واتهم الحكومة السعودية باعادة بين ٥٠ الى ٦٠ حاج عراقي الى ديارهم من الحدود وعدم السماح لهم باداء مناسك الحج .

وقد ردت الحكومة السعودية فورا على الاتهام العراقي وهاجمت الصحف الرسمية سلطات بغداد ، ونفت اي اساءة للحجيج العراقيين متهمة الوزير العراقي باختلاق قضية وهمية لتغطية هزيمة بلاده في حرب الخليج ! .

الى ذلك لا تزال الحملات الاعلامية ضد دول « الطوق المعادية » مستمرة في الصحف السعودية وتأخذ منحى تصاعديا سيما ضد السودان والاردن ، حيث استضافت الصحافة السعودية ووسائل الاعلام معارضين مناوئين لنظام الحكم في السودان وبينهم الرئيس المخلوع جعفر نميري واعضاء في حركة الجيش الشعبي لتحرير السودان بزعامة جون قرنق ، واعضاء آخرين منشقين عنه ، ولوحظ بين جوقة المعارضين الذين فتحت الصحافة السعودية صفحاتها امامهم لكيل السباب والاتهامات ، وجود شخصيات عارضت النظام بسبب تطبيقه للشريعة الاسلامية ، ولاتزال تعارضه لهذا السبب ، وهو مادفع بالمعلقين الى القول ان الرياض حشدت كل انواع الاسلحة لمواجهة دولة عربية ، وجاءت باعدائها من اقصى اليمين الى اقصى اليسار للنيل منها .

صحيفة بريطانية : الكاسيت وسيلة حرب ضد الحكومة السعودية

كتب مراسل صحيفة الاندبندنت في الشرق الاوسط روبرت فيسك ، مقالاً في الحادي عشر من يونيو الماضي ، استعرض فيه نشاط التيار الديني السلفي في المملكة وعلاقة الأخيرة بالحكومة السعودية ، من خلال تلك النشاطات ، وقدم فيسك تصوراته حول طبيعة المعارضة السياسية في الشرق الاوسط في المرحلة الراهنة والتي يقودها المتدينون .

يقول فيسك : « عادت الاشرطة المسجلة للانتشار من جديد في العربية السعودية ، وبنفس الطريقة التي شهدتها المملكة في أوج القصف الجوي لقوات التحالف ضد العراق . تقول هذه الاشرطة بأن اصلاحات الملك فهد ومجلسه الشوري ليسا ذا قيمة ، وأن كل من حضر مؤتمر السلام الشرق أوسطي في مدريد كان خائناً » .

وحول ردود فعل السلطات الامنيةالسعودية حيال انتشار الاشرطة السلفية يقول فيسك : « قامت الشرطة الدينية السعودية بمباغتة محلات بيع الكاسيت ومصادرة الاشرطة التي تحوي خطبا دينية تتخللها صيحات التأييد من قبل جموع المصلين . وتقول مصادر دينية سنيّة في القاهرة بأن ٢٠ شخصا على الاقل قد تمّ اعتقالهم . وتزعم نشرة لبنانية باسم « قضايا » وتطبع وتوزع في باريس ، بأن سفر الحوالي ، رئيس قسم العقيدة في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، هو قائد الاصولية الجديدة في المملكة » .

والحوالي خطيب سلفي متشدد هاجم الحكومة في مرات قليلة ، ولكنه وجه سهامه ضد الفئات الدينية التي تخالفه في الرأي وهاجم السيد محمد علوي المالكي ، أحد أهم رجال الدين السنّة في الحجاز ، كما قاد الحوالي مواجهة ضد منن أسماهم بالعلمانيين ، في حين تصفه جهات سلفية بأنه خطيب مفوه لكنه يفتقد المؤهلات الفكرية والشخصية ليتحول الى رمز او قائد للسلفيين في المملكة فضلا عن خارجها .

ويضيف فيسك قائلاً بأن « أبرز ما تحتويه اشرطة الكاسيت : توجيه اللوم للزعماء العرب لقبولهم بالنظام العالمي الجديد الذي فرضه الرئيس الاميركي جورج بوش على الشرق الاوسط . ويقول هؤلاء ــ أي السلفيون ــ اذا كان اجتياح الرئيس صدام حسين للكويت مبرراً لارسال قوات لمنطقة الخليج في ١٩٩٠ ، فان الملوك والجنرالات العرب ساعدوا مخطط واشنطن لتدمير الانبعاث الاسلامي » .

وحول تأثيرات النشاط الديني السلفي على الصعيد السياسي في المملكة يقول فيسك : « إن المحاضرات المحظورة تبدو على درجة كبيرة من الاهمية ، ليس لأنها تغضب العائلة المالكة في السعودية فحسب ، ولكن لأنها تظهر مدى الغضب الذي تخلفه الهيمنة الاميركية على الشرق الاوسط ، وتاثيرها على الانقسام العربي . فبدون حليف دولي أو قيادة عربية ممثلة عنهم بين دولهم ، فإن الشعور بالاحباط يتنامى » .

أما عن الصفقات العسكرية التي أبرمتها السعودية مع الولايات المتحدة مؤخراً فيقول كاتب المقال : « عمدت السعودية بصورة أكبر لشراء أسلحة وصواريخ وقاذفات أمير كية . ومنذ حرب الخليج فان السعودية تقدمت بطلبات تسلح بقيمة ١٥ بليون دولار من الولايات المتحدة ، بينما حصلت مصر على مساعدات عسكرية وسددت بعض ديونها من قبل واشنطن ، كما تسلمت تركيا معدات عسكرية جديدة من المانيا والتي استخدمتها ضد المدنيين الاكراد . واذا كانت السعودية ومصر وتركيا تمثل الاعمدة الثلاثة للسيطرة الغربية في الشرق الاوسط ، فان الوسائل الميدانية التى ظلت حاكمة هي : السلاح » .

ويخلص روبرت فيسك من مقالته بالقول : « إن المعارضة للحكم السعودي موجودة ومتسعة ، ولكن تحت الارض ، وهي في الغالب خطيرة » .

صحفيون مصريون يتهمون السعودية باشعال الفتنة الطائفية

ابدت الصحافة السعودية انزعاجها من اغتيال الكاتب المصري فرج فودة الذي يعتبر على نطاق واسع في مصر انه احد اهم دعاة العلمانية واشد المهاجمين للدين الاسلامي والجماعات الدينية ، وابرز الداعين الى تصفية الجماعات الدينية واطلاق النار عليهم باعتبارهم « ظلاميون وفاشيون » .. وقد لوحظ باستغراب دفاع الصحافة السعودية عن الكاتب المصري الذي لم يسلم من لسانه احد .. لكن الاكثر غرابة ان المغدور كان قد اعد دراسة مطولة يهاجم فيها الحكومة السعودية ويدعو الى كبح نفوذها في مصر وهو مااعتبر مفاجأة للاوساط الصحفية السعودية التي تضامنت معه .

فقد نشرت صحيفة الاهالي تحقيقا عن المقال المثير للجدل والذي كان قد اعده الكاتب المصري الراحل لنشره في مجلة « الحرية » التي كان ينوي اصدارها .. واتهم فيه السعودية بالترويج للفتنة الطائفية والتطرف في مصر .

وربط فودة بين المال السعودي ودور التلفزيون المصري في تشجيع نمط الاستبداد السياسي وتمجيد الرموز الديكتاتورية في التاريخ العربي فقال « ان المسلسلات الدينية تحرص على تقديم الحكام المستبدين طوال اكثر من ١٣ عاما على انهم يتصفون بالعدالة والحكمة والزهد والتحضر ، بينما ان حقيقة الامر ان سلوكهم ابعد ما يكون عن القيم الدينية » واضاف « ان تزييف الوعي الذي يقوم به التلفزيون متلوث باموال البترول لانتاج برامج حسب طلب المنتجين في السعودية » والمعروف ان اكبر مؤسسة انتاج عربية ساهمت في انتاج سيل هائل من الافلام والمسلسلات المصرية هي مؤسسة « ارا » للانتاج التي يمتلكها الشيخ وليد ابراهيم شقيق زوجة الملك فهد .

اما الكاتب رياض سيف النصر مدير تحرير صحيفة « الجمهورية » فقد حمّل السعودية مسؤولية الفتنة الطائفية مستشهدا برسالة وجهها عالم دين سلفي هو الشيخ ابو بكر الجزائري الى البابا شنودة ، ونشرها في مجلة دينية تصدر في القاهرة تتضمن تجريحا وعبارات حادة تطالب الزعيم القبطي بالعدول عن دينه الى الاسلام .

وقال الجزائري في رسالته « ارجو من الله ان يلهمك رشدك ويأخذ بيدك ويد اخوانك نصارى الاقباط وغيرهم ، ممن ضلّوا سواء السبيل فأصبحوا عرضة لخسران الدار الآخرة والحرمان من الطهر الروحي وازكاء النفس في هذه الدار ، ان لم يتداركهم الله تعالى بالتوبة العاجلة » .

واعتبر رياض سيف النصر ان رسالة الجزائري تحمل اكثر من مجرد كونها خطاب من متطرف متستر وراء حرية الفكر ، الى كونه تدخلا وغزوا سعوديا لازكاء الفتنة في مصر .

تأشيرات سعودية لليهود لزيارة المملكة

قالت صحيفة « جويش كرونيكل » اليهودية البريطانية الموالية لاسرائيل نقلا عن مراسلها في لوس انجلوس بالولايات المتحدة تموم توجوند ان الحكومة السعودية منحت رجل اعمال يهودي تأشيرة دخول للاراضي السعودية للاشتراك في مزاد تجاري للمواد المتخلفة بعد حرب الخليج بعد ان كانت السفارة السعودية في الولايات المتحدة قد رفضت منحه من قبل هذه التأشيرة .

وقالت الصحيفة اليهودية ان السفارة السعودية ردت بأنها كانت مخطئة في قرارها بعدم منحه تأشيرة الدخول وانه سوء تفاهم جرى تفاديه .

وكان رجل الاعمال اليهودي الامريكي شوارتز قد ارسل ملفا بالرسائل المتبادلة مع السفارة السعودية الى الحاخام ابراهام كوبر كبير مساعدي رئيس مركز فيزنستال ، فبعث ذلك المركز رسائل احتجاج الى وزير الدفاع ديك تشيني والى بندر بن سلطان .

وحمل الحاخام اليهودي على القانون الاسلامي الذي قال ان الحكومة السعوية تعمل به ، وصفه بالجمود والتحجر وانه لا يتناسب مع روح العصر ، بعدها تلقى الحاخام مكالمة هاتفية من السيد عادل الجبير مساعد الامير بندر . واخبره ان الشخص الذي رفض منح رجل الاعمال اليهودي تأشيرة الدخول واسمه السيد مرهون ناصر ، ارتكب خطأ وانه لا يفهم ماهي السياسة السعودية الراهنة اضاف مساعد الامير بندر : ليكن معلوما لديك بافضيلة الحاخام ان الذي فات قد مات وان المملكة العربية السعودية لا تميز الان بين يهودي وعربي ! .

ام بي سي تقود التطبيع مع اسرائيل

فوجيء المشاهدون لمركز تلفزيون الشرق الاوسط السعودي « ام بي سي » ان المحطة قد استنفرت جهدها من اجل تمجيد انتصار حزب العمل الاسرائيلي في الانتخابات وكانت المحطة قد التقت لأول مرة على صعيد جميع وسائل الاعلام العربية بزعيم حزب العمل الاسرائيلي السابق شيمون بيريز واجرت معه لقاء تحدث فيه عن تطلعه لشرق اوسط جديد تختفي فيه الفوارق والازمات الاقليمية .

وقد خرج المشاهدون لمقابلة بيريز وعشرات الساسة واساتذة الجامعات والصحفيين الاسرائيليين ، وكلهم قدموا تحليلا واحدا لفوز العمل وهو ن مرحلة جديدة من الهدوء والاستقرار ستعم المنطقة ، وبالغوا في تصور ما سيقوم به حزب العمل من اجل عملية السلام ، خرج المشاهدون بانطباع هو ان المحطة السعودية التي تتلقى توجيهها من الرياض ، تتبنى محاولة تطبيع اعلامي ونفسي لدى الجمهور العربي الذي يشاهدها .

السعودية توافق على التفاوض مع اليمن ولكن في جنيف

رفضت الحكومة السعودية اقتراحا يمنيا بأن يبدأ البلدان مفاوضات مباشرة بشأن الخلافات الحدودية بينهما ، في اي من العاصمتين الرياض او صنعاء ، ووافقت على ان تكون المفاوضات في جنيف ، خلال النصف الاول من شهر يوليو الجاري .

ويقول محللون ان رفض السعودية لاجراء المباحثات في احدى الدولتين المتخاصمتين يدل على رغبة بتدويل المشكلة المعلقة بين البلدين ، وكانت المملكة قد رضخت لضغوط دولية بشأن حل النزاع مع اليمن ، بعد وساطة من المجموعة الاوروبية ، ووزير الخارجية الفرنسي الذي زار المملكة اواخر الشهر الماضي ، غير انها طالبت صنعاء بتوقيع اتفاقية

اميل حبيبي يكشف عن استثمارات سعودية في اسرائيل

كشف الكاتب الفلسطيني وعضو الكنيست الاسرائيلي السابق اميل حبيبي شراء المملكة لمجموعة من العقارات في اسرائيل والاراضي المحتلة خلال عهد تكتل ليكود برئاسة اسحق شامير .

وقال حبيبي الحائز على جائزة ادبية اسرائيلية والذي اعرب عن تأييده لهذه الخطوة ، ان من ابرز العقارات التي اشترتها السعودية فندق « الحياة » في القدس ، بالاضافة الى مجموعة استثمارات اخرى في مدن اسرائيلية ومدن محتلة .

وجاء كلام حبيبي هذا في ندوة اعد لها المركز الفلسطيني للدراسات السياسية في واشنطن يوم الجمعة ٢٦ يونيو الماضي .

وكانت انباء سابقة قد ذكرت وجود علاقات تجارية بين السعودية وتل ابيب واعلنت اسرائيل رسميا ان المملكة وافقت على فتح خطوط اتصال هاتفية مباشرة معها ، كما تعهدت الرياض بالغاء المقاطعة فورا والبدء في تطبيع العلاقات الاقتصادية بين الدولتين كثمن لاستجابة اسرائيل لمساعي السلام التي ترعاها واشنطن .

الحدود القديمة ورفضت بحث المسألة مجددا .

وكان رئيس وزراء اليمن حيدر ابوبكر العطاس ، الذي تعرض لمحاولات اعتداء قتل في احدها شقيقه ، واشيرت اصابع الاتهام الى جهات تدعمها السعودية تعمل على تقويض النظام اليمني ، قد صرح بأنه يرحب بالاجتماع في اي مكان ولو انه فضل ان يكون في احدى الدولتين الجارتين .

وكانت معلومات خاصة قد افادت ان مبعوثا سعوديا التقى وزير الاسكان اليمني محمد احمد سلمان المقرب من الرئيس اليمني علي عبد الله صالح لبحث تهدئة النزاع الاعلامي بين البلدين .

كما افادت معلومات اخرى ان الزيارة التي قام بها السلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان الى المملكة في ١٨ يونيو الماضي كانت تهدف الى اجراء وساطة بين السعودية واليمن ، بشأن نزاعهما حول مناطق حدودية يبدو انها غنية بالنفط ، وكان التوتر قد تزايد بين البلدين بعد ان وجهت السعودية تحذيرا الى ست شركات نفطية تعمل في اليمن ذكرت فيه ان هذه الشركات تزاول نشاطها في منطقة متنازع عليها ، مما دفع بشركة بريتش بتروليوم البريطانية وشركة الف ايكتان الفرنسية الى وقف عمليات التنقيب .

وكان وفد اوروبي قد سعى في العشرين من الشهر الماضي الى اجراء وساطة بين البلدين .. ويتكون الوفد من برلمانيين اوروبيين ، وكان من ضمن الوفد كلود شيسون وزير الخارجية الفرنسي السابق الذي امتدح التجربة اليمنية واعتبرها صمام امان لمنطقة القرن الافريقي والجزيرة العربية ، وحذر من تراخي التجربة الديمقراطية والوحدة بين الدولتين معتبرا ان فشل هذه التجربة سيبعث انعكاسات سلبية على مجمل المنطقة .

وقد اعلن سفير اليمن في كندا محمد سعيد ان الشركات الكندية مستمرة في عملياتها ولم تتأثر بالتهديد السعودي .. كما ان شركة « هنت » الامريكية التي تنقب عن النفط هي الاخرى اعلنت انها ستواصل عملياتها ، ونفت ان تكون لديها اي نية للاستسلام للضغوط المجاورة .

وكان العطاس قد ذكر ان اليمن يتوقع ان يرتفع انتاجه من النفط في عام ١٩٩٦ من حوالي ١٦٠ الف برميل في اليوم الى ٧٥٠ الف برميل .

مما يضع اليمن في نفس المستوى مع الجزائر ، ويجعله متقدما على ثلاث دول اعضاء في اوبك هي الاكوادور والغابون وقطر .

صحف خليجية توجه انتقادات لحكومات الخليج

خلال الاحتفال بعيد الاضحى المبارك ، خرجت الصحافة السعودية والخليجية بشكل عام عن محافظتها المعتادة لتوجه انتقادات لاذعة لمؤسسات حكومية متهمة اياها بالفساد والفوضى وعدم الجدوائية ، وطالبت العديد من تلك الصحف بمواقف رسمية ، مشرفة « ازاء العديد من القضايا التي تمر بها الامتين العربية الاسلامية ، وعدم الاكتفاء بالشجب والتنديد ، وهي لغة جديدة في الصحافة المحلية الرسمية الشديدة المحافظة .

فقد كتبت صحيفة « عرب نيوز » اليومية السعودية تقول : « لا زلنا بعيدين عن التماسك والترابط الداخلي برغم كل ما نردده عن الاخوة ، واننا لا زلنا نمثل المشهد الحزين لبيت منقسم على نفسه » .

واضافت الصحيفة « ان هذا يجعل من المستحيل على المجتمع الاسلامي حتى ان يبدأ في القيام بتحرك هادف ما نحو حل اكثر المشاكل الحاحا وهي تلك التي تهدد وجوده الفعلي » .

واستطردت الصحيفة تقول « ان يوم العيد هذا يجب ان يكون دافعا لنا على تصحيح اخطائنا والزام انفسنا بمباديء الاخوة والوحدة الاسلامية » .

اما صحيفة « الخليج تايمز » الاماراتية فقد شنت هجوما على منظمة المؤتمر الاسلامي لموقفها السلبي من جميع القضايا التي مرت على العالم الاسلامي خلال تاريخها ، ورأت الصحيفة ان الشعائر المقدسة التي تحفل بها مناسك الحج اصبحت مجرد طقوس عبادية مفرغة من محتواها وقالت « بالنظر الى الموقف على ارض الواقع فإنه يبدو ان الدعوات وما ترمز اليه الشعائر الجماعية لا تذهب الى مدى ابعد مما يعتبره الكثيرون مجرد شعائر سنوية » .

وأضافت « ان روح الوحدة والاخوة تتبدد وتتلاشى بسرعة بمجرد عودة الحجيج الى اوطانهم وانتهاء احتفالات العيد » .

وانتقدت منظمة المؤتمر الاسلامي بقولها ان موقفها اتسم بالسلبية ازاء هجمات الصرب ضد القوات المسلمة في البوسنة والهرسك ، وإزاء غارات اسرائيل على جنوب لبنان ، والقمع الاسرائيلي في الاراضي المحتلة ، واضافت : « ان مسلمي البوسنة يعانون من المجاعة وهم معرضون للابادة الجماعية ، ولكن المنابر المختلفة مثل منظمة المؤتمر الاسلامي لا تفعل سوى اصدار بيانات الشجب والاعراب عن القلق » .

وقالت « ان الفلسطينيين يعاملون بوحشية في الاراضي المحتلة كما يتعرض اللبنانيون لهجمات صهيونية مستمرة ولكن البلدان الاسلامية تقصر نفسها على تمرير قرارات تدعو الى تحرك دولي » .

واضافت « ان كل هذا يحدث بينما العالم الاسلامي يتمتع بموارد ضخمة ولديه قوة اقتصادية تسمح له بالتأثير او حتى بتحسين الامور اذا تم فقط استغلال الطاقات والامكانات المستترة باسلوب متعقل يتسم بالتنسيق الجيد » .

اما صحيفة « عرب نيوز » فقد وجهت انتقادات عنيفة لحكومات الدول الاسلامية لعدم انقاذها لملايين المسلمين الذين يموتون بسبب الجوع والاوبئة والكوارث الطبيعية في افريقيا وآسيا . ووجهت اتهاما فريدا من نوعه لحكومات المنطقة واصفة اياها « بالتبعية » لقوى خارجية ، وهو خروج عن المألوف في صححافة الخليج .

وقالت الصحيفة « انه رغم كل الموارد التي لدينا وكل القدرات التي نتمتع بها فإننا عاجزون حتى الآن عن وضع برامج علمية وعملية تساعدهم على الخروج من الجحيم الذي يعيشون فيه » .

وأضافت الصحيفة « ان الاسباب التاريخية ربما تفسر تخلفنا الحالي في مجال التكنولوجيا المتقدمة ، ولكنها لا تقدم تفسيرا ومبررا لعزم واضح على البقاء كدولة تابعة لقوى خارجية » .

واشنطن تحتج على تصريحات الملك فهد

اعرب مساعد وزير الخارجية الامريكي ادوارد جريجيان عن امتعاضه للتصريحات التي ادلى بها الملك فهد لصحيفة كويتية واعتبر فيها الديمقراطية مخالفة لحكم الاسلام ، وكشف جريجيان عن ان الادارة الامريكية فاتحت الملك فهد بهذا الخصوص وطالبته بالتراجع عن هذه التصريحات التي تشكل عقبة في طريق الاصلاح السياسي .

وقال جريجيان في اجابته على اسئلة النائب الديمقراطي لي هاملتون رئيس لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس النواب الامريكي « اثرنا مع مسؤولين على مستوى عال في السعودية مسألة ادلاء الملك فهد بتصريحات ـ لصحيفة كويتية ـ اعتبر فيها الديمقراطية غير مناسبة للسعودية » .

وقال « اننا في حوار مستمر مع الحكومة السعودية حول حقوق الانسان والانتقال الى الديمقراطية والمشاركة السياسية الاوسع ، نعرب عن اهتمامنا ونحاول تشجيع بلدان مثل السعودية على الاتجاه نحو مشاركة سياسية اوسع » .

وهذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها مسؤول في الإدارة الأميركية بأنها تمارس ضغطا أو تشجيعا للعائلة المالكة في السعودية من أجل احترام حقوق الإنسان وإصلاح النظام السياسي ومنح الشعب حق المشاركة السياسية .

مدخل لدراسة العلاقة بين المثقفين والسياسة في المملكة

النَسَق التاريخي للعلاقة بين المجتمع والسلطة وتأثيره على المثقفين ـ ١

توفيق الشيخ

■ يعتبر العديد من منظري العلوم السياسية إن الدور الاجتماعي للطبقة المثقفة ينطوي بالضرورة على مضمون تنافري مع مؤسسة السلطة الرسمية ، إن هذا التصنيف القاعدي لا يضيره بعض أشكال التداخل الآني أو الدائم بين المثقفين ـ بعضهم على الاقل ـ والسلطة السياسية ، من حيث ان كلا الفئتين تشتركان في الحياة في مجتمع واحد ، ويفرض العيش المشترك نمطاً من العلاقات المتبادلة والتفاعل في مستويات معينة .

وثمّة من يرى أن الثقافة باعتبارها وجها متميزا في الحياة الإجتماعية ، لا تخضع في تقييم الجانب الاجتماعي لعلاقتها بالسلطة ، لذات المقاييس المتّبعة في قياس أشكال ومضامين العلاقة بين الشرائح الاجتماعية الاخرى ، اذ ان الثقافة كحالة والطبقة المثقفة كاطار لدور خاص ، تسير ضمن نسق متخارج عن السياق الإجتماعي العام ، وما يتضمنه من قواعد لتصنيف العلاقة ، بين كل شريحة اجتماعية وبين بقية الاطراف بما فيها السلطة السياسية .

ان هذا التخارج هو ما يعطي للثقافة قيمتها الخاصة بين أوجه الحياة الاجتماعية ، وما يعطي للمثقفين التقدير الخاص الذي يتمتعون به ، باعتبارهم متقدمين نسبياً على المجتمع ، وبالتالي فهم بالضرورة مختلفين عنه ومعه ، وبالطبع مع الجهة التي تمثّله « السلطة » .

إن الثقافة ـ بناء على هذا التقدير ـ هي حالة منفصلة عن السياسة ، والمثقفون كفئة اجتماعية منفصلين عن السلطة ، وهذا الانفصال هو المبرر الرئيسي للاختلاف ، بل والصراع في غالب الاحيان .

كلا الطرفين ـ المثقفين والسلطة ـ يعتبر لنفسه دورا متقدما ، بل ومؤثرا على بقية الفئات الاجتماعية ، لكن مهمات كل منهما وأدواتهما ومضمون العلاقة بينهما وبين أطراف المجتمع الآخرين ، مختلفة بل متناقضة في كثير من الأحيان ، من حيث أن السلطة تستمد قوتها من أمر واقع تمثله ، ويتضمن عناصر القدرة على الجبر والإكراه المادي ، بينما تستمد الثقافة قوتها من أمر تدعو لإيجاده « إبداعي » ، ولا يتضمن خطابها الموجه للآخرين عناصر الجبر المادي ، بل تتوسل بأساليب أخرى جوهرها التأثير الفكري والنفسي ، وبالتالي فالعلاقة بين الطبقة التي تمارس العمل الثقافي وبين المجتمع ، هي علاقة تأثير اختياري بخلاف السلطة السياسية التي تمارس علاقة ذات مضمون جبري .

أي دور للمثقف السعودي وفي أي إطار ؟

إنه لمن قبيل التساهل القول بأن هناك « طبقة مثقفة » في المملكة ، على الرغم من أن هناك العشرات من المشتغلين بالشأن الثقافي ، ذلك أن إيحاءات هذا المصطلح ومفهومه لا ينطبق على الوضع القائم هنا .

يطلق مصطلح « الطبقة » على مجموعة ذات حالة إجتماعية ـ دور إجتماعي أو تموضع واحد ـ متفقة على مصالحها ، وطرق التعبير عن تلك المصالح ، وثمّة وحدة في خطابها المعبر عن مصالحها وتطلعاتها الاجتماعية ومواقفها من مختلف التطورات ، انه التقريب العربي لمصطلح الأنتلجنسيا في علم الإجتماع الغربي .

على انه يجب عدم اغفال حقيقة ان هذا التعريف يصف المثقف المستقل الذي يستمد اعتباره من الافكار التي يتبناها ، ويمارس على اساس تميزه بها ، دورا خاصا في المجتمع منفصلا عن دور السلطة او القوى الاجتماعية الاخرى ، التي تستمد اعتبارها من مصادر اخرى غير التميز الفكري ، وهو على هذا الاساس لا يشمل المثقفين الاعضاء في السلطة باعتبار دورهم وتطلعاتهم منصهرة في دورها ، ان السلطة هي اللاعب الرئيسي في الحياة العامة لاي بلد ، وهي قادرة على امتصاص كل التمايزات التي يمكن ان تنشأ في داخل اطاراتها لصالح الدور الرئيس للسلطة اي السيطرة ، كما انه لا يشمل المثقفين الملحقين بالسلطة وان لم يكونوا جزءا منها ، بالنظر الى ان دورهم ملحق بدورها ، وانهم يستمدون اعتبارهم من هذه العلاقة وليس من افكارهم ، وبالتالي فانه ليس بوسعهم ممارسة الفعل الاجتماعي باعتبارهم مستقلين .

شهدت الحياة الثقافية في المملكة العربية السعودية دورات صعود وهبوط متوالية تأثر فيها دور المثقفين بالعلاقة بين المجتمع والدولة ، ولاسيما موقف السلطة السياسية من الثقافة والمثقفين بصورة خاصة ، ومن القوى الاجتماعية المستقلة عموما ، ففي جميع الاوقات كان دور المثقفين يسير في خط معاكس لخط اتساع او انحسار دور السلطة في الحياة العامة ، ففي ظل الغياب الجزئي للسلطة ـ كما كان الحال في عهد الملك سعود ـ تصاعد هذا الدور ، وفي ظل إشتداد حضورها ـ كما في السنوات الاولى من حكم الملك فيصل ـ تراجع .

إن ذلك يعود بدرجة كبيرة الى أحد العناصر الرئيسية لفلسفة الحكم السعودي ، وهو السيطرة على الفضاء الاجتماعي والثقافي في البلاد ، بما لا يسمح ببروز اي قوة اجتماعية ، او تمحور اجتماعي يمكن ان يمهد لظهور قوة موازية للسلطة ، وقد تسببت دورات الصعود والهبوط تلك في تاخير ظهور ما نطلق عليه الطبقة المثقفة ، بالتعريف الذي اوردناه سالفا ، بالتوازي مع تأخر ظهور القوى الاجتماعية المستقلة ، لاسيما تلك المنطلقة من خارج

ساهمت التطورات منذ مطلع الثمانينات في ظهور مؤشرات تكشف عن بداية تشكّل وعي مشترك بالحاجات بين مثقفي المملكة ، قد يكون تمهيداً لقيامهم بلعب دور مستقل

اطارات الانتماء الاجتماعي الاولي « الاقليم ، القبيلة او العائلة » التي سادت في المجتمع السعودي باعتبارها اطارات وحيدة يعبر الانسان من خلالها عن وجوده الاجتماعي وطموحاته .

لكن التطورات الاخيرة ولاسيما منذ مطلع الثمانينات ، ثم وبصورة ملموسة إثر اندلاع أزمة الخليج في اغسطس ١٩٩٠ ، أظهرت مؤشرات تكشف عن بداية تشكل وعي مشترك بالحاجات بين مثقفي المملكة ، نعتقد انه قد يكون تمهيدا لقيام المثقفين بلعب دور مستقل ، مؤسس على السمات الخاصة المشتركة بينهم في معزل عن اطارات الانتماء الاولي غير المؤسسة على الاعتبار الاجتماعي او الذاتي لعناصر قوتهم المشتركة .

ان قصور النخبة المثقفة التي على الرغم من انعدام دورها ، حافظت على وجود محسوس ، يعود كما نظن الى جملة عوامل هي ذات العوامل التي تحول دون قيام مانطلق عليه اليوم مؤسسات المجتمع المدني ، لكن ثمة عوامل فرعية هي اعادة انتاج لبعض انعكاسات العامل الاصلي ، يشار اليها احيانا باعتبارها عوائق تبطيء من التحرك باتجاه قيام المثقفين بالدور المطلوب ، ونذكر هنا عاملين رئيسيين هما سقوط المدينة باعتبارها الحاضن الطبيعي للثقافة ، وتموضع المذهب الرسمي في مقابل الثقافة .

سقوط المدينة

كان قيام المملكة العربية السعودية في العام ١٩٣٢ ثمرة مباشرة لسقوط أبرز حواضر الجزيرة العربية يومها بعد احتلال الحجاز .

فخلال الفترة التي امتدت ربع قرن بين يناير ١٩٠٢ و حتى سقوط جدة في يناير ١٩٢٦ ، اعتمد الملك عبد العزيز آل سعود على القوة العسكرية للبادية ، والتي سعى فعلا الى توطينها ، لكنّه حافظ عليها منفصلة عن الحواضر الرئيسية ، وعندما اختتم حروبه باحتلال مدينة جدة ، ثغر الحجاز على البحر الاحمر ، كان ذلك بمثابة الاعلان غير الرسمي لسقوط المدينة باعتبارها رمزا لحالة اجتماعية على يد البادية ، التي اصبحت الان الحاكم الوحيد على الحواضر الواقعة بين البحر الاحمر والخليج العربي .

ولم يكن عبد العزيز بدويا ، فقد استوطنت عائلته الدرعية ثم الرياض في وسط الجزيرة منذ اواسط القرن السابع عشر الميلادي ، لكن التنظيم الاجتماعي لحواضر نجد ، يجعل الانتماء الى القبيلة ضروريا للحفاظ على المكانة الاجتماعية وضمان الحياة ، كما يجعل القيم القبلية ونمط التفكير القبلي ، عنصر شدّ قوي لاعضاء القبيلة يجتذبهم الى العيش وفق النمط القيمي / الثقافي والسلوكي الذي ميّز الحياة في صحراء الجزيرة العربية .

ولا شك ان الميول المدينية كانت تتنازع الملك ، لاسيما بعد ان انتهت مرحلة اقامة السلطة وبدأت مرحلة بناء الدولة ، ونجد امثلة على ذلك في في استثماره المتقن للامكانات التي وفرتها المدينة سواء في الحجاز او قبلها في الاحساء وبعض حواضر نجد ، لكن فشله في استمالة سكان المدن للخدمة العسكرية التي احتاجها سعيه الدائب للتوسع ، واعتماده الكامل تاليا على البادية ، عززت ايمانه بالضرورة النهائية لاعتماد البادية ركنا وحيدا في ضمان بقائه على الحكم .

وفي التطبيق العملي لهذه القناعة ، فان النمط البدوي / القبلي في التفكير والعلاقات ، أصبح هو السائد في العمل السياسي للملك ، وفي النتيجة فان البادية بكل ما تعنيه من بشر وانماط تفكير ونظام علاقات ، اعادت انتاج نفسها متحوّلة من قوة عسكرية محترفة يستخدمها سياسي مديني للسيطرة وتوسيع النفوذ ، الى مضمون ايديولوجي لحركة سياسية تسعى لصناعة نظام سياسي تعتبره البديل الوحيد القادر على الحكم في المناطق التي تم الاستيلاء عليها ، بالاستعمال المباشر والفعال للقوة العسكرية .

ان المدينة هي الحاضن الطبيعي للثقافة ، كما ان نظام العلاقات المديني هو الظرف الوحيد الذي يوفر الفرصة لقيام المثقفين بدور خاص في الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان التحوّل السابق الذكر قد أدّى ، بالتوازي مع الغاء الشخصية السياسية للمدينة ، الى الغاء مكونات هذه الشخصية ولاسيما دور القوى الاجتماعية ، وبينهم بطبيعة الحال المثقفون الذين تحولوا الى الهامش ، بعد ان حاولوا قليلاً المقاومة للحفاظ على مكانتهم .

تعطي معظم الكتابات التي عرضت لتاريخ الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية الثالثة ، انطباعا بان الجزيرة العربية كانت تتساوى جميعها في ان نمط الحياة الذي ساد مجتمعاتها ، كان النمط البدوي ، وان الحكم كان يقوم دائما على أسس قبلية ، وقد كان هذا الامر صحيحا في بعض مناطق الجزيرة ، لكنه لم يكن كذلك في الحجاز والاحساء وتهامة الجنوبية ، التي قام الحكم فيها قبيل استيلاء الجند السعودي ، على قاعدة التوافق بين الجمهور والحاكم ، وفي بعض الفترات على مستوى واسع النطاق من المشاركة الشعبية ، تصل الى حد اختيار الحاكم من جانب اعيان البلاد ، فضلا عن قيامهم بالرقابة الفعليّة على سياساته كما حدث في الحجاز لاسيما في اواخر عهد الاشراف .

ان ذلك التصوير صحيح في وسط الجزيرة فقط ، مثل الدرعية قبل قيام دولة السعوديين الأولى ، التي استمد الحكم فيها قدرته على الاستمرار من تحالف العائلة الحاكمة مع الخوالد ، القبيلة القوية في الاحساء ، وكان مضمون هذا التحالف هو ولاء حكام الدرعية للخوالد مقابل استمرار هؤلاء في تزويد حلفائهم بالمؤن والاغذية من الاحساء الغنية زراعيا والنشطة تجاريا ، وفي الحقيقة فان معظم الامارات التي قامت في نجد يومذاك ، كانت تعتمد على نمط مماثل اتاح لها الغلبة على قبائل المنطقة التي كانت مضطرة الى موالاة الحاكم الحليف للخوالد من اجل ضمان تموينها السنوي بالاغذية ، في مناطق نجد الصحراوية القاحلة .

وفيما بعد ، ومنذ ان استطاعت العائلة السعودية فرض قوتها بفضل تحالفها مع مؤسس الدعوة الوهابية ، استمرت في الاعتماد على نمط مماثل من الحكم ، يقوم على توفير حاجات القبائل والبداة من المؤن ، لكنها اصبحت الان تحصل عليها بفضل القوة والغلبة ، وليس بفضل التحالف التبعي لقوة اخرى كما كان الحال في السابق .

لقد كرس هذا النمط من السياسة فكرة أحقيّة القبيلة الغالبة بالانفراد بالسلطة ، وتسويغ قيام الحكم على الجبر المعبّر عنه بوسائل الضبط المباشرة ، وفي العهود اللاحقة ، فان هذه الفلسفة التي يعتقد امراء الاسرة السعودية انها هي السرّ في تمكّنهم من الاحتفاظ بالسلطة لوقت طويل ، قد تمّ

سقوط المدينة كنظام للقيم والعلاقات لصالح البادية والقبيلة أودى بفرص النخبة التي تسعى لمكان في الحياة العامة ، واضطر بعضها الى النكوص احتماءاً باطارات الانتماء الاولى والانحصار ضمن حدودها

تعميمها مع امتداد سلطة العائلة السعودية من الدرعية ثم الرياض الى باقي اجزاء الجزيرة العربية ، التي تشكّل اليوم النطاق السياسي للمملكة .

ولا تخطىء العين حقيقة ان النظام على الرغم من مرور فترة طويلة على تأسيسه ، مايزال يعتمد ذات الفلسفة التي يرجع اليها الفضل في قيامه واستمراره ــ وفق التفسير الخاص بالعائلة على اقل التقادير ــ ويشار عادة الى ان هذا النوع من الحكم هو الاكثر انسجاما مع تقاليد البلاد وحاجاتها الراهنة ، في معرض تبرير استمرار هذا النمط غير المعتاد .

لقد ادى تدفق البترول على البلاد الى تحول البادية العريضة ، والواحات المتناثرة الى مدن دائمة التوسع ، لا تختلف من حيث مظهرها الخارجي عن اي من نظائرها في الدول المتقدمة ، لكنها في الحقيقة لا تشبهها بأي صورة في المضمون الداخلي . ان المدينة من حيث هي اطار لحالة اجتماعية تتعدى المظهر الخارجي « العمران » الى نمط الحياة وهيكل العلاقات والقيم الحاكمة على حياة سكانها ، ومن المفترض ان هذا النمط يؤسس شخصية خاصة تتميز بها المدينة عن الصحراء او حتى عن الريف ، وأهم سمات هذه الشخصية هو اعتبار الراهن وليس الموروث اساسا للتقييم ، وبالتالي المكانة الاجتماعية ، وتبعا لذلك سيادة القيم المعبرة عن الراهن مثل العمل والكفاءة الشخصية بدل النسب ، وتوفير الفرصة للاختلاف او التمايز اعتمادا على هذه القيم ، الامر الذي يهيء فرصا خاصة للافراد الذين لا يتمتعون بدعم اجتماعي لاسباب غير الاسباب التي يصنعونها بذاتهم .

وبهذا التعريف تختلف المدينة عن البادية « كحالة اجتماعية لا كوضع جغرافي » التي تقدم الاعتبار للافراد وفقاً للهوية التي يرثونها بغض النظر عن انتاجهم ، وتقيم العلاقات على اساس النسب وليس العمل ، كما تختصر المصلحة العامة في حدود القبيلة وليس المجتمع او الوطن .

ان سقوط المدينة ــ كنظام للقيم والعلاقات ــ لصالح البادية / القبيلة ، قد أودى بفرص النخبة التي تسعى لمكان في الحياة العامة ، واضطر قسم منها الى النكوص احتماءاً باطارات الانتماء الاولي كالقبيلة ، وبالتالي الانحصار ضمن حدودها ، كما دفع بالباقين الذين لا يتمتعون بمرجعية مماثلة الى الهامش ، ليتخلوا عن طموحاتهم او يلتحقوا بعربة القبيلة الغالبة التي اصبح اسمها الان « الدولة » .

ان ذلك يفسر التباعد الكبير بين مثقفي المملكة ، وعدم قدرتهم على التوصل الى فهم مشترك وتعبير مشترك عن ذاتهم ، ثم وبدرجة اكبر عدم سعيهم للاستعانة ببعضهم البعض في خلق مكانتهم الخاصة على الصعيد الوطني العام .

تموضع الدين في مقابل الثقافة

اصبح من التقليدي الحديث عن التحالف بين امراء العائلة السعودية وزعماء المذهب ، الذي أسسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، باعتباره حجر الرحى في الجهود التي أدّت الى قيام الدولة السعودية في مراحلها الثلاث .

لم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب شبيهة بمعظم الدعوات الدينية التي شهدتها المنطقة خلال تاريخها الحديث ، فهي لم تطرح نفسها كاجتهاد مواز لبقية الاجتهادات ، ولم يُدع اليها باعتبارها مشروعا افضل من المشروعات القائمة ، بل وببساطة عرفها مؤسسها ومن ثم خلفاؤه ، باعتبارها إعادة تأسيس للدين الاسلامي ، تستهدف علنا ارجاع الناس الى الطريق القويم بعد ان ذهبوا بعيدا في انحرافاتهم الفكرية والعبادية ، وهي بالتالي تقوم على إدانة الراهن بكل مكوناته ، بما فيها الثقافة الراهنة التي لم يكن لها بد من ان تكون في سياق مواز لنمط التفكير والحياة في كل مجتمع توجد بين ظهرانيه .

ومع الاخذ بعين الاعتبار :

* ان العمل الثقافي في مجتمع الجزيرة العربية ككل قبل قيام الدولة السعودية لم يكن منفصلا عن العمل الديني .
* وان العمل الديني خارج اطار الدعوة الوهابية وزعامتها كان مستهدفا رئيسيا لدعوتها الى ما أسمته قمع الانحراف عن الصراط المستقيم .

فان النشاط الثقافي والثقافة ذاتها والعاملين عليها ، اصبحوا مختارين او مرغمين في الخط الاول من المواجهة بين المجتمع الذي ينتمون اليه وبين الدعوة التي تتقدم مدعومة بقوة عسكرية وسياسية مستهدفة اخضاعهم ، ولذلك فان القول بان سقوط المدينة تحت سيطرة العائلة السعودية كان سقوطا في الحقيقة للحياة الثقافية المدينية ، هو قول يستند الى مبررات قوية وواقعية .

على ان سقوط الثقافة لا يجب ان يفسّر بأنه أدّى الى تغييبها او انتهائها تماما ، فالذي استقرّ في نفوس الناس لا يمكن الغاؤه بمجرد الاحتلال العسكري ، لكن من زاوية اخرى فان المجتمع المهزوم لن يكون شديد الثقة في مكوناته الذاتية ومنها الثقافة ، كما ان بناء الثقافة واستمرار فعلها رهين بتطورها ووجود الرجال الذين يحملونها ويمارسون الابداع فيها ، ولم يكن هذا متصورا في ظرف يحتمي فيه القمع الرسمي بالتسويغ بل التشجيع الديني .

لقد كان هذا الظرف واضحا في المنطقة الشرقية والحجاز ، وهما المنطقتان اللتان شهدتا اهم نشاط ثقافي خلال التاريخ المعاصر للبلاد ، فقد ترتب على احتلال العائلة السعودية لاراضيهما انحسارا متعاظما للعمل الثقافي نتج عن هجرة معظم المثقفين الى الخارج ، او انكماش الاخرين على ذواتهم طلباً للسلامة .

في النصف الثاني للثلاثينات ، وبعد ان اصبحت الدولة السعودية امرا واقعا اعترف به سكان المجتمعات التي انضمت حديثا اليها ، كما اعترفت به الدول الاخرى ، ظهرت الحاجة الى تنظيم الادارة الحكومية وظهرت الحاجة الى التعليم الضروري لاعداد الاداريين والموظفين ، والاستفادة من الطبقة المتعلمة التي اصبحت بالقياس الى حجم الدولة الجديدة صغيرة الحجم .

وتراءى حينها ان ذلك التطوّر سيكون بوابة لاستعادة بقايا المثقفين دورهم المفقود ، وحاول بعض مثقفي الحجاز إيجاد اطارات للعمل والتعبير عن الذات ، مستقلة عن الاطار الرسمي ، لكنها غير متعارضة معه ، فأصدر علي حافظ جريدة المدينة المنورة في ١٣٥٦ هـ « حوالي العام ١٩٣٧ » ، لكن تفاعلات الاسباب السابقة الذكر كانت ماتزال شديدة التأثير ، ولذلك فقد

فاعلية النخبة الحجازية فرضت على العائلة المالكة توسيع دائرة السلطة باتجاه نوع من التقاسم ، يضمن للحجاز تمثيلاً شبه ثابت في الوزارة ، وهي ميزة لم يستطع احد من سكان الاقاليم الاخرى ـ باستثناء نجد ـ الحصول عليها

فشل هؤلاء في ان يكونوا أكثر من ملحقين بالحكومة ، التي لم ترغب في ان ترى أحداً آخر يمارس دوراً يمنحه قدرة تأثير مستقلّة عن السلطة المركزية ، بل ان هؤلاء واجهوا صعوبات كبيرة حينما ارادوا خدمة الدولة الجديدة وفق أسلوبهم الخاص ، وقد كان موقف علماء الدين من المحاولة الاولى لاقامة تعليم على الطريقة الحديثة ، مثالا على الصعوبات التي واجهها هؤلاء ، حسبما يروي الاستاذ حافظ وهبه ، أحد أبرز مؤرخي تلك الحقبة .

ففي عام ١٩٢٧ م ، قررت ادارة المعارف افتتاح مدرستها الاولى منذ قيام الدولة السعودية ، مما أثار غضب العلماء الذين اجتمعوا في يونيو من ذلك العام واصدروا بيانا يشجب هذه الخطوة ، لان الدراسة تضمنت مناهج تعتبر علوماً كفريّة مثل الجغرافيا التي تقول بكروية الارض وتتكلم في النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف ، واللغات الاجنبية التي تتيح للمسلمين الاطلاع على علوم الكفار ، والرسم الذي هو التصوير المحرم .

وفيما بعد اضطر العلماء للتنازل عن دعواهم امام ضغط الملك الذي كان بحاجة الى اداريين لتنظيم اوضاع مملكته ، كما تجاوز في وقت لاحق اعتراضات المشايخ على ارسال الطلاب للدراسة في البلاد الاجنبية ، التي اعتبروها بلاد كفر ، حيث ارسلت ادارة المعارف عددا محدودا من الطلبة للدراسة في الازهر ودار المعلمين المصرية .

وبموازاة ذلك كان عدد من الوجهاء الاثرياء قد ارسلوا ابناءهم للدراسة في الخارج ، كما ان المهاجرين الذين فروا من البلاد عقب سيطرة العائلة السعودية ، استثمروا فرصة بقائهم في الخارج لتعليم ابنائهم .

اما بعيد الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت حاجة البلاد الى المتعلمين أشدّ قهراً من ان تتوقف على احتجاجات المشايخ ، وكان نجاح شركة البترول العربية الامريكية « ارامكو » في استخراج البترول من اراضي المنطقة الشرقية ، قد استقطب اهتمام الشركات والحكومات الاجنبية الى هذه البلاد ، التي كانت قبل ذلك جزءاً منسيا في السياسة الدولية ، ولذلك فقد انطلق تعليم الذكور بتسارع كبير ، اما الاناث فقد كنّ بحاجة الى الانتظار عشرين عاما اخرى ، حتى استطاعت زوجة الملك فيصل ، التركية المنشأ تجاوز احتجاجات العلماء واقامة اول مدرسة للاناث .

كان من المتوقع ان تؤدي هذه التطورات لاسيما في عقد الاربعينات الى استعادة قدامى المثقفين لدورهم ، او تبلور طبقة مثقفين جديدة ذات دور فاعل في الحياة العامة في بلد يتحرك في خطواته الاولى نحو العصر ، لكن الخيار السياسي الذي مارس دورا متناقضا ، كان من القوة بحيث لم يترك اي فرصة لدور مختلف يقوم به اخرون من بين المثقفين أو من سواهم .

فمنذ ظهور الدلائل الاولى على وجود البترول في الاراضي السعودية ، استطاع الملك عبد العزيز ان يضمن دعماً مالياً وسياسياً منتظماً من الولايات المتحدة الامريكية التي ورثت دور بريطانيا التي لعبت منذ البواكير الاولى للقرن العشرين دور الحليف الخارجي الرئيسي للعرش السعودي ، وازاء ذلك فقد تحددت صورة النظام السياسي للبلاد باعتباره نظاماً فردياً شديد المركزية ، يعتمد في ضمان استمراريته على قوة عسكرية موالية للعائلة المالكة ، ودعماً سياسياً واقتصادياً اجنبياً ، واذ تم تثبيت هذا الخيار فانه لم يعد ثمّة حاجة الى تفاهم او تعاون مع الفاعليات المحلية ، لاسيما تلك التي ترجع باصولها الاجتماعية الى اطارات خارج الاطار الخاص للسلطة المركزية .

ونعرض هنا مثال تأثير هذا النمط على الحجاز الذي توفرت فيه خلال المرحلة الاولى من تأسيس المملكة ، العديد من مقومات المجتمع المديني الذي ـ حسب مقتضى الحال ـ سيكون اكبر المتضررين من اتخاذ هذا الخيار .

تطور دور القوى الاجتماعية والمثقفين في الحجاز بعد قيام الدولة السعودية

كان لتثبيت الخيار السابق الذكر باعتباره فلسفة للنظام السياسي ، أثره الاكبر في إقليم الحجاز الذي يتمتع باكبر قدر من مواصفات المجتمع المديني بين أقاليم المملكة .

وقبل ذلك حاول المثقفون والفاعليات الحجازية استثمار الطبيعة التفاوضية التي تشكّل سمة بارزة من سمات الحياة في المجتمعات التجارية كمجتمع الحجاز ، وتطبع علاقاته الداخلية او علاقاته بالخارج ، حاولوا استثمار هذه الميزة في إقامة نمط جديد من العلاقة مع الدولة التي ورثت السلطة حديثا في بلادهم ، إلا أن التطبيقات العملية للخيار السابق الذكر ، والتي تتضمن تكثيف عناصر السلطة في الاقليم الحاكم « نجد » بوصفه الحاضن الاجتماعي للنظام السياسي ، جعلت محاولات هؤلاء بلا جدوى ، وكان على النخبة الحجازية ان تبقى ملحقة بالحكم وفاعلة لصالحه ، دون ان تجني من وراء ذلك أيّة مكاسب خاصة لاسيما على الصعيد السياسي .

يسكن اقليم الحجاز السياسي العدد الاكبر من المواطنين السعوديين ، ويضم اضافة الى المدن الثلاث الرئيسية في المنطقة « جدة ومكة المكرمة والمدينة والمنورة » المئات من القرى والمدن الصغيرة الجبلية والساحلية التي تتبع الاقليم ، لكن معظم الكلام الذي سيرد خلال هذا البحث يتناول في الاساس هذه الحواضر الثلاث التي تميزت عن غيرها بعناصر لا تخطؤها العين .

وقد كان الحجاز موضع اهتمام الدول التي تعاقبت على الحكم فيه ، وشهد ظهور اولى الصحف في الجزيرة العربية وهي صحيفة الحجاز التي صدر العدد الاول منها في العام ١٩٠٩ ، و استمر الاهتمام الرسمي بالمنطقة في ظل مختلف الامراء الذين تعاقبوا على حكمه ، خلال فترة الحكم العثماني المباشر او في عهد الاشراف الذي انتهى على يد الملك عبد العزيز .

ويرجع التميز الملحوظ في المجتمع الحجازي الى ثلاثة عوامل :

● أولاً : مركزية المدينة ، بما تمثله من نظام للحياة والعلاقات والقيم . لقد اعتمدت المعيشة في هذه المنطقة على التجارة وخدمة الحجاج ، وانعكست عليها تأثيرات العلاقة التي يقيمها هذا النمط المعيشي من سيادة النمط التفاوضي الذي يعتبر من مقومات العمل في السوق ، والتسامح الديني تجاه الاخرين الذين يحملون متبنيات مختلفة ، وقبول التعدد العرقي والثقافي في المجتمع ، بل واعتباره من اسباب استمرارية الازدهار .

النظام السياسي مارسِ دوراً كان من القوة بحيث لم يترك اي فرصة لدور مختلف يقوم به اخرون من بين المثقفين أو سواهم ، وبالتالي لم تتبلوّر طبقة مثقفين في المملكة ذات دور فاعل في الحياة السياسية

ولا يرجع سكان الحواضر الحجازية الى اصول قبلية ، او ان تلك الاصول قد تلاشت في السياق المديني ، كما ان نسبة كبيرة منهم ترجع في اصولها الى مناطق اخرى في العالم الاسلامي ، وقد ساعد هذا التعدد العرقي والتنوع الثقافي وما يترتب عليه من كثافة الاتصال بالخارج على انهاض الحياة الاجتماعية ومن ضمنها الحركة الثقافية .

● ثانياً : قيام السلطة في الحجاز على قاعدة اجتماعية واسعة نسبيا ، فقد كان للاعيان والوجهاء دور ملحوظ في صناعة القرار السياسي ، ورغم ان هذا الدور قد تراجع في بعض الاحيان الا ان حكام الاقليم كانوا في معظم الاحيان يتكلون على التشاور مع اعيانه ، بل ان قوة الاعيان بلغت في اواخر حكم الاشراف حد التحكم في اختيار الحاكم حينما قاموا بالاتفاق مع السعوديين ، وعينوا الملك علي خلفاً لابيه الشريف حسين ، الذي وافق ايضا على التعهد باحترام دستور للحكم تمّ وضعه لهذا الغرض .

ولعب الاعيان دورا ملحوظا ليس في السياسة فحسب ، بل وايضا في تطوير المجتمع ، فالمدارس الاولى في البلاد لم تؤسس على يد الحكومة بل على يد الاعيان ، فقد اسس محمد علي زينل اول مدرسة وفرت التعليم الحديث في الجزيرة العربية في العام ١٩٠٨ ، أي قبل عشرين عاما من اقامة الحكومة السعودية مدرستها الاولى ، وحافظ الاعيان على دورهم الاجتماعي هذا حتى في العهد السعودي ، فحينما لم تول الحكومة اهتماما بالمطالبات الملحة بتاسيس جامعة في الحجاز ، بادروا في ١٩٦٧ الى تأسيس جامعة أهليّة في جدة ، هي جامعة الملك عبد العزيز التي قامت الحكومة بتاميمها بعد عامين .

وخلال السنوات التالية لانضمام الحجاز الى الدولة السعودية ، احتفظ ابناء الاقليم بالقسط الاوفر من الحركة الثقافية في البلاد ، وصدر عنهم القدر الاوفى من الاصدارات الثقافية ضمن المجموع العام للمملكة ، ولاتزال على هذا النحو حتى اليوم .

● ثالثاً : التواصل الوثيق بين الاقليم والخارج ، من خلال الحجاج والعلاقات التجارية والسياسية التي نشأت كامتداد لوجود المقدسات في اراضيه ، او من خلال الجاليات الاجنبية التي هجرت مواطنها الاصلية واستوطنت الاراضي المقدسة ، وقد كان هذا التواصل قناة لانتقال التاثيرات بين المنطقة ومعظم بلاد العالم الاسلامي ، ساعدت على تنشيط الحياة الثقافية .

لقد تركت هذه العوامل أثراً بالغاً في تكوين قواعد مكينة لاقامة دولة حديثة ، بمقاييس تلك الفترة ، لاسيما بالمقارنة مع بقية امارات الجزيرة العربية التي كانت لاتزال اقرب الى المستوطنات القبلية منها الى الدولة بالمفهوم الحديث ، ولذلك فان الملك عبد العزيز وجد عند استيلائه على الاقليم عام ١٩٢٤ ، إمكانات تمثل نقطة انطلاق جيدة لبناء دولته الجديدة .

وهذا ما يفسّر اعتماد المملكة في بداية تأسيسها على الاجهزة الادارية والقوانين السائدة في الحجاز ، على الرغم من مخالفة العلماء النجديين لها باعتبارها قوانين وضعية ، وكانت قوانين الاحوال الشخصية تعتمد على المجلة العثمانية الموضوعة طبقا للفقه الحنفي ، المذهب الرسمي في الدولة العثمانية ، كما ان بعض القوانين التي وضعت لمعالجة قضايا العلاقات التجارية مثل القانون التجاري ، لاتزال مطبقة الى اليوم في المملكة .

وحتى في مجال المؤسسات الحكومية ، فقد انطلقت الادارة الحكومية للدولة السعودية في الحجاز حيث تأسست ادارة المعارف التي يرجع اليها الفضل في نشر التعليم الرسمي ، وإدارة الامن العام ، كما ولدت على اراضيها اول اذاعة للمملكة في عام ١٩٢٧ .

ان فاعلية النخبة الحجازية هي التي فرضت على العائلة المالكة توسيع دائرة السلطة باتجاه نوع من التقاسم ، يضمن للحجاز تمثيلاً شبه ثابت في الوزارة ، فمنذ تشكيل مجلس الوزراء الاول حصل الحجازيون على بعض المقاعد في مجلس الوزراء ، واستمر هذا التقليد سائدا حتى اليوم ، وهي ميزة لم يستطع احد من سكان الاقاليم الاخرى باستثناء نجد الحصول عليها .

صحيح ان هذا التقاسم يقوم على تركيز السلطة الفعلية في يد النجديين ، لكنه لا ينبغي التهوين من اهمية التنازل الذي حصلوا عليه سيما بالنظر الى الايديولوجيا السياسية التي قام عليها نظام الحكم في المملكة ، والتي لا تسمح بابقاء اي جزء من السلطة او شبه السلطة خارج الدائرة الاجتماعية الخاصة بالعائلة الحاكمة .

لقد كان الحجاز موعوداً بحصّة أوفر من السلطة ، تتناسب مع الثقل الذي يمثله سكانيا وروحيا ، قياساً بسائر اقاليم البلاد ، لولا تبلور ايديولوجيا السلطة في الاعتماد على البادية كمصدر للقوة العسكرية والتحالف مع الخارج كمصدر للقوة الاقتصادية والسياسية ، فقبل هذا الخيار كان الملك عبد العزيز يحاول التوصل الى صيغة توفيقية ، تضمن له سيادة كاملة على الاقليم دون تفعيل ادوات السيطرة المباشرة ، فقد وافق على مطلب وجهاء الحجاز الذي قدم مقابل اعلان الولاء للعرش السعودي والذي يتضمن وضع دستور للبلاد ، واشراك السكان في السلطة من خلال مجلس للشورى ، يشترك في اختيار اعضائه اعيان العاصمة « مكة المكرمة » مع السلطة المركزية في نجد ، وفي هذا السياق فقد حاول عدد من المثقفين الحجازيين ان يجدوا لهم دورا منسجما مع نظام الشراكة المذكور ، لكن الملك عبد العزيز كان حريصا على الحيلولة دون قيام اي اطار جديد مستقل عن السلطة المركزية ، يمكن ان يشكل محورا للقوة في الحجاز ، ولذلك فقد فشلت محاولات الاستاذ احمد نصيف الذي سبق ان تزعم مجموعة من الحجازيين الذين عارضوا الحكم السعودي في بدايات سيطرة الملك عبد العزيز على الحجاز من خلال مجلة بريد الحجاز ، فشلت في اقناع الملك بمنحه ترخيصا لاصدار مجلته في اطار جديد ينسجم مع واقع الشراكة السياسية التي اقامها الملك مع اعيان الحجاز ، مما اضطر نصيف الى الانتظار حتى وفاة الملك في ١٩٥٣ لكي يحصل على الترخيص اللازم لاصدار صحيفته تحت اسم جديد هو « البلاد السعودية » ، التي اتخذت خطا موالياً للحكم السعودي .

كانت النتيجة الفعلية لايديولوجية السلطة المركزية التي تبنّاها الملك هي تمركز السلطة بين يديه شخصيا ، ولذلك فان المؤسسات التي نشأت كاطار للمشاركة السياسية بين اعيان الحجاز والملك قد تراجع دورها بالتدريج منذ النصف الثاني من الاربعينات ، في مسعى مخطط يستهدف اتمام مركزة السلطة ، بالتوازي مع تبلور الخيار السياسي السابق الذكر ، وتحوله التدريجي الى واقع على الارض .

ويعكس تلاشي دور المؤسسات التي قامت بعد استسلام الحجاز ، يعكس بدقة التطور التناقصي لمجمل المؤسسات التي كانت اطارا بصورة او باخرى للمشاركة الشعبية في القضايا العامة □

البحرين .. ضغوطات تدقّ أبواب المرحلة الجديدة

السعودية تضغط لفرض نموذجها في الحكم ولتمنع قيام برلمان منتخب في البحرين .. وضغوط شعبيّة تدفع لمحاكاة التجربة الكويتية

■ ظاهر رسالة التهنئة بعيد الاضحى التي بعث بها خليفة بن سلمان رئيس وزراء البحرين الى صدام حسين توضح أن النظام في البحرين يمتلك صدراً واسعاً ، وأنه على استعداد لتناسي جرائم بحجم جرائم صدام .. الاّ أنها تشير في الوقت ذاته الى امرين خافيين :

□ الاول : علاقة خليفة بن سلمان المتميزة بشخص صدام .. فالرجل معجب بشخصية ديكتاتور العراق وتجمعها به صداقة قوية لم تنغصها الاحداث ولو كانت بحجم غزو الكويت والدمار الذي ألحقه صدام بأمن المنطقة .. فالعلاقة بين الرجلين قائمة ربما على اساس هم مشترك ، فكلاهما يمثل أقليّة قبليّة تفرض ارادتها على الاكثرية « وهم الشيعة بالتحديد الذين يمثلون أكثرية السكان في العراق والبحرين » .. وحتى عندما صدرت تصريحات من خليفة خلال أزمة الكويت موجهة ضد العراق .. كان الرد العراقي على تلك التصريحات غريباً حيث تميّز بالادب ، وبرّر الإعلام الصدامي تصريحات خليفة بأن خليفة ربما حصل على معلومات غير صحيحة من الغرب ! .

□ الثاني : ان الرسالة هي صورة للصراع المحتدم بين الامير وابنه من جانب ، وخليفة بن سلمان رئيس الوزراء من جانب آخر .. فالجميع يعرف أن تبادل برقيات التهنئة تتمّ بين الزعماء .. ثم بين رؤساء الحكومات .. وما جرى في تهنئة عيد الاضحى أن رئيس الوزراء في البحرين قد وجهها للرئيس العراقي .. وهذا يعني أن خليفة بن سلمان قد تجاوز بوضوح الامير ، بل ونائب الامير الأولى بارسال البرقية اذا افترضنا وجود عذر ما للامير .

الا أن رسالة خليفة الى صدام ومعانيها ليست هي الموضوع الاساسي المطروح في البحرين اليوم ، فالبلاد مشغولة بحديث التغيير من أقصاها الى أقصاها .. وتتقاذف النظام في البحرين ثلاثة اتجاهات رئيسية ضاغطة حول التغيير القادم وشكله واتجاهاته :

١ ــ ضغط سعودي يفرض عليه الاسلوب السعودي في التغيير الذي تمثل في مجلس الشورى المعيّن .. وهو ضغط مهم بالنسبة للسعودية ، لا لأن تعميم مشروعها الاصلاحي سيعطي مبررات لتأكيد نجاحه بالنسبة للداخل السعودي فحسب .. بل لسدّ الطريق أمام أي شكل آخر من أشكال التغيير يبدو أكثر تطوراً من المشروع السعودي ويعدّ ادانة حيّة له .

٢ ــ ضغط اقليمي يتناغم مع ضغط موجة التغييرات التي تجتاح العالم .. يدعو النظام الى تغيير معقول .. والى محاكاة تجربة الكويت الاقرب الى التجربة البحرانية السابقة المتمثلة في المجلس الوطني المنحل .. والتي تعكس تجربة أكثر جديّة في التغيير من المشروع السعودي الذي لم يبدأ تطبيقه حتى الآن .

٣ ــ ضغط شعبي متنام .. فالتغيير أصبح حديثاً يومياً في البحرين .. ولعل مبادرتي العفو اللتان أصدرهما الامير وبينهما قرار خفض اسعار الماء والكهرباء ، كانت لتنفيس ذلك الضغط أو توجيهه الى غير اتجاهاته الحقيقية . ويبدو أن الحديث الشعبي يتطلع الى تغيير سقفه حتى الآن التجربة البرلمانية السابقة رغم ثغراتها التي قضت عليها ، ولسنا هنا في مورد شرحها ، وبين تلك الضغوط يبدو أن النظام أمام خيارات محيّرة .. ربما تدعوه لاخراج شكل تغييري جديد يسعى لكسب الناس ويمكن النظام من ركوب موجة التغييرات العالمية ولا يغيظ السعودية في نفس الوقت .. وهي محاولة لا تبدو ميسّرة .

فرغم أن أجهزة اعلام النظام في البحرين قد اهتمت اهتماماً مثيراً بمشروع الاصلاح السعودي وأبرزته على مدى أسابيع في صدر صفحاتها .. ورغم الانباء التي تشير الى أن خليفة بن سلمان قد قابل العديد من الوجاهات المحلية وعرض عليهم المشاركة في مجلس معيّن .. رغم هذا وذاك ، فانه من الصعب على البحرين أن تتقبّل مشروعاً متخلّفاً عن التجربة البرلمانية التي تتقدمه بكثير والتي عايشتها سابقاً .. كما أن تقليد النموذج السعودي يتطلب تغييرات في دستور البلاد ليس من السهل تمريرها .

واذا كان بعض الوجهاء قد امتلك شجاعة التصريح لخليفة بن سلمان بهذه الحقيقة ، ورفض الاشتراك في المجلس المعين .. فان من وافق على المشاركة انما قبل تحت ضغط التهديد المبطن أو الواضح لمكانته التجارية أو مكتسباته الاخرى .. وهي تهديدات لها معناها في بلد تحكمه الاهواء بدل القوانين كالبحرين .

وعلى أية حال .. فان اتجاهات الضغط العالمي لا تتقبل خيار التغيير الترقيعي الذي يتمايل اليه النظام في البحرين ، بل ان تلك الاتجاهات تلتقي مع اتجاه الضغط الشعبي المتمثل في برلمان منتخب .. الا أن هناك ثغرة واضحة هنا .. هي أن الحديث العالمي عن التغيير ــ بخلاف الضغط السعودي المقرون بمشروع مطروح ــ يدعو الى تغيير ما دون أن يوضح صورته .. وهكذا الحديث الشعبي .. والمطلوب توضيح معالم هذا الحديث عبر طرح التصورات التي تريدها المعارضة للتغيير حتى تتمكن نخبة البلاد من وضع النظام أمام مسؤولياته .. وترسم للناس أهدافاً واضحة يتحركون على قاعدتها .. لأن ترك الامور دون توضيحات تصل الى حد التفضيل يعطي الفرصة لاجتهادات مختلفة تفوت على الناس وحدتهم وتشتت أصواتهم .. وتعطي الفرصة للنظام وحده لكي يطرح التصورات التي يراها للتغيير وهو في حلّ من أي تصور غير مطروح أو موضح .

المطلوب تصور واضح لبناء جديد مرتبط بالهندسة التي تناسب طبيعة العصر وطبيعة البلاد .

حملة إعلاميّة وسياسيّة لحماية الآثار الإسلامية في الحجاز

منذ شهر تقريبا والحملة الاعلاميّة المطالبة بحماية الآثار الاسلامية في الحجاز من الهدم مستمرة .

وتستهدف الحملة ـ كما يبدو من المنشورات والصحف العربية والأجنبية التي تحدثت عنها ـ وقف قرار الملك فهد بهدم البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ، وترشيد توسعة المسجد الحرام في محيطه الداخلي الأول ، بحيث لا تأت التوسعة على كثير من النقوش والآثار التاريخية التي يقدر عمرها بمئات السنين ، بل أن عمر بعضها زاد على ألف ومائة عام .

وفي حين ظهر على أحد المنشورات الملونة إسم « لجنة حماية الآثار الإسلامية في الحجاز » كجهة مسؤولة عن النشاط الإعلامي ، فإن صحيفة الديلي تلغراف اللندنية أشارت الى أن عددا من تجار الحجاز يقفون وراء الحملة ، باعتبار أن الآثار وإن كانت تخص جميع المسلمين ، إلاّ أنها تهمّ الحجازيين بشكل خاص .

وإذا صح القول بان الحجازيين ، مهما كانت صفتهم الإجتماعية ، هم وراء الحملة الإعلامية ، فان ذلك يعتبر مؤشرا ذا أهمية قصوى . اذ لم يسبق لهم أن قاموا بمثل هذه الإعمال الإعلامية السياسية التي تستهدف الضغط على الحكومة السعودية لثنيها عن قراراتها الخاصة بالموضوع الديني في الحجاز .. وهي مؤشر لمدى حدة الخلاف بين النجديين والحجازيين ، سواء على الصعيد المذهبي ، الذي يأتي موضوع التراث والآثار الإسلامي في سياقه ، أو على الصعيد السياسي ، إذ أن هذا الخلاف يحمل وجها سياسيا واضحا ، ولطالما كان الخلاف السياسي في وسط الجزيرة العربية وبين مناطقها المختلفة ، يأخذ وجها مذهبيا ، خاصة إذا ما أدركنا أن الدولة السعودية الحالية قامت على أساس مذهبي واضح .

وبطبيعة الحال ، فإن ممارسة أي نشاط إعلامي في خارج المملكة ، وحتى إن بدا الموضوع تراثيا بحتا ، فإن الحكومة السعودية تصنّفه على أساس نشاط سياسي معارض . وهي لا تريد أن تستوعب حقيقة أن قنوات الحل الداخلي حين تكون مسدودة سواء للمواضيع السياسية أو التي تحمل صفة دينية أو محلية ، فإنها تنتقل الى الخارج لتعبر عن نفسها بكل حرية .

وتأتي الحملة الاعلامية بشأن موضوع الآثار الإسلامية وضرورة المحافظة عليها ، في وقت تحدثت فيه الأنباء عن زيادة النقمة بين الحجازيين ضد الحكومة القائمة ، باعتبارها حكومة أقلية ، وأن الحجازيين ممثلون دونيا فيها ، وأنهم لا يلقون فرصة للتعبير عن آرائهم ومواقفهم الدينية وخصائصهم المحلية .

وفي سياق الحملة الإعلامية ، صدرت نشرة ملونة تحوي صورا للأماكن والنقوش التي من المقرر إزالتها في هذا الشهر يوليو ، كما تقول النشرة ، الذي حملت عنوان : « أيها المسلمون : أنقذوا بيت النبي وآثار الحرم المكي » . وقد وزعت النشرة على آلاف المصلين العرب والمسلمين في عدد من المساجد في بريطانيا ، وتعرضت الى محنة الأماكن المقدسة منذ احتلال السعوديين لها ، حيث لم يبق من آثار المسلمين في تلك البقاع الا القليل الذي يراد هدمه بحجه أو بأخرى .

أما صحيفة الديلي تلغراف فقد كتب آلان فيليبس في السادس من يوليو الماضي عن الحملة الاعلامية المتسعة لمنع الملك فهد من تدمير بيت النبي وآثار إسلامية أخرى . وأشار الى النشرة التي وزعت في مساجد لندن والتي تحدثت عن تدمير العمارة الإسلامية ليقوم مكانها « حضارة الكونكريت » ، ونقل الكاتب عن مصادر خاصة بأن وراء الحملة رجال أعمال حجازيين ، استبد بهم الغضب لمواصلة الملك فهد قراراته بهدم الآثار ، وقال فيليبس بأن من المحتمل ان يكون وراء العمل أمراء سعوديون ساخطون ، أو احدى الدول المجاورة كالأردن أو العراق أو اليمن والتي ترتبط جميعها بعلاقات سيئة مع الحكومة السعودية .

صحيفة العرب اللندنية كتبت عن الموضوع ثلاث مرات في أعدادها الصادرة في ٢٥ يونيو و ٢ ، ٧ يوليو الجاري .. في المرة الأولى أشارت الى أن الأمن السعودي يستعد لهدم « مولد النبي » وقالت أن موسم الحج الماضي شهد نشاطا مكثفا من قبل الحجازيين لتعريف قادة بعثات الحج بموضوع الهدم من أجل ان يمارسوا ضغطا على الملك السعودي ، وأضافت بان الملك فهد استمع لنقد رؤساء البعثات لكنه لم يعد أحدا بشيء .

وفي عددها الصادر في الثاني من يوليو نشرت في صفحة كاملة تقريبا صورا ووثائق عن الموضوع تحت عنوان : « الأماكن المقدسة في خطر .. من ينقذ الحرمين من التدمير المتعمد؟ » . وفي أواخر يوليو يبدأ تدمير التراث الإسلامي » . ثم وفي العدد الصادر في يوم ٧ من نفس الشهر نشرت في صدر صفحتها الأولى وبالمانشيت العريض ترجمة عما نشرته الديلي تلغراف ، تحت عنوان : « منشورات وزعت في مساجد لندن .. المسلمون في بريطانيا ينددون بخطة فهد لتدمير مكة المكرمة » .

مجلة سوراقيا الاسبوعية اللندنية ، خصصت غلافها للحديث عن قضية الهدم الذي اتخذ الملك فهد قرارا بشأنه فأفردت صورة ملونة لبعض النقوش وعليها عنوان : إنهم يهدمون الاسلام ، في حين كتب محررها نهاد الغادري مقالا تحت عنوان : « إنهم يزيلون بيت الرسول .. التتار قادمون » .

ونشرت صحيفة « جنك » وهي من أشهر الصحف الباكستانية ، في طبعتها الدولية في السابع من يوليو الحالي ، خبرا حول الموضوع في صفحتها الأولى آثار الجالية الإسلامية الكبيرة المنحدرة من أصل باكستاني أو هندي .

وفي يوم الجمعة العاشر من يوليو الحالي ، وزعت نشرة إنجليزية ملونة حوت مقالة عن الموضوع ، وقد وزعت النشرة على المصلين في عدد من المساجد في بريطانيا ، وتحوي المنشور مجموعة من الصور الاثرية المقرر هدمها .

وكانت صحيفة المحرر الاسبوعية الصادرة في فرنسا ، قد أشارت في مانشيت في صفحتها الأولى في عددها الصادر في ٢٩ يونيو الى الموضوع تحت عنوان « سر الحرائق المفتعلة في موسم الحج » .

ويبدو أن الحملة الإعلامية مستمرة ، وقيل أن بعض الصحف الاميركية وكذلك صحف عربية في الاردن وغيرها قد نشرت أخبارا عن القضية المثارة .

إنّهم يهدمون الإسلام !*

نهاد الغادري

في هذا الشهر ــ تموز « يوليو » ١٩٩٢ ــ سيزيل خادم الحرمين الشريفين ما تبقّى من البيت الذي ولد فيه الرسول العظيم محمد بن عبد الله في مكة المكرمة ، بعد ان كانت موجة التتار قد هدمته من قبل ! .

وفي هذا الشهر ايضا سيزيل هذا الخادم الامين ما تبقى من آثار الامويين والعباسيين في الحرم المكي باسم التوسعة ، وتشتمل تلك الآثار التي ستهدم وتزال .. على الاسطوانة الرخامية التي اقامها عبد الله محمد المهدي في العام ١٦٧ للهجرة لتكون علماً لطريق رسول الله الذي سلكه الى الصفا بعد انتهائه من الطواف ، ويقتدي به كل حاج ومعمر . كما تشتمل على عمود من الرخام يقع في الناحية الجنوبية من الحرم المكي الشريف داخل الرواق ، ويمثل توسعة للباب الاوسط من الحرم امر به المهدي ايضا ، بعد ان ضاقت الطريق الى الصفا ، وعليه نقش بديع من صنع اهل الكوفة .

وفي هذا الشهر ايضا وأيضا ، سيتم هدم المحيط الدائري الاول في الحرم ، ويضم اقدم آثار التوسيع في المسجد الحرام بمكة ، وتشمل تلك الآثار التوسعة العثمانية التي تشمل بدورها توسعات قبلها اموية وعباسية بنقوشها التاريخية وما ترمز اليه .

في السنة المنصرمة ، وبصمت مريب ، أزيل آخر أثر لبيت السيدة خديجة ام المؤمنين ، وفيه غرفة عبادة الرسول الكريم ، وغرفة اجتماعاته الاولى بالصحابة الاوائل والغرفة التي ولدت فيها الطاهرة فاطمة الزهراء ، زوجة علي بن ابي طالب ، الخليفة الرابع ، وابن عم الرسول ووالد احفاده ، وأول صبي آمن في الاسلام . ولم يكتفوا بهدم هذا الموقع التاريخي برمزه الاسلامي الكبير ، بل هم حوّلوه الى مستراح ، فأقاموا فوقه موقعا للمراحيض العامة . وكان قد أقيم في هذا الموقع ، بعد ان دمره الوهابيون من قبل ، بناء مدرسة لتعليم القرآن على عهد الملك عبد العزيز ، فأزالوا البناء وأزالوا معه أثراً من آثار الاسلام وموقعا من مواقع الدعوة ! .

وتنتشر اليوم دعوة وهابية أبعد خطرا وأثرا ، يدعو فيها غلاة لا عقل لهم ، الى إزالة القبّة الخضراء فوق قبر الرسول الكريم في المدينة المنورة . وقد سبق لهؤلاء الغلاة ان دعوا على عهد الملك عبدالعزيز الى ازالتها فمنعهم من ذلك خوفا من ردود الفعل الاسلامية . وهم يعودون الآن محتمين بتوسعة فهد بن عبد العزيز متخفين خلفها . وكان غلاة الوهابية ودعاتها الذين احتلوا مكة المكرمة والمدينة المنورة ، قد اعملوا فيها فوق السلب والنهب ، الهدم لكل آثار الاسلام ومواقعه ورمزه . ونشير هنا بسرعة الى بعضها :

١ ــ مقبرة المعلا في مكة المكرمة ، وتضم رفاة الطاهرين من اهل البيت والصحابة ، كقبر أم المؤمنين خديجة ، وآمنة بنت وهب أم الرسول العظيم ، ومثوى أبي طالب والد الامام علي ، وعبد مناف ، وعبد المطلب .

٢ ــ قبر والد النبي عليه السلام في المدينة المنورة ، ومسجد سلمان فيها ، وبيوت بني هاشم . وبيت الاحزان الخاص بفاطمة الزهراء .

٣ ــ مسجدي الشمس وذي النفس الزكية بالمدينة .

٤ ــ الخندق الذي احتفره المسلمون من حول المدينة في غزوة الخندق المشهورة في التاريخ الاسلامي ، وهي أحد أبرز رموز هذا التاريخ ومواقعه الكبرى .

٥ ــ مسجد جوانا في منطقة الاحساء ، وهو المسجد الثاني الذي صليت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله .

٦ ــ قبور شهداء بدر ومكان العريش الذي نصب للرسول في ارض الموقعة .

٧ ــ مسجد ثنية الوداع .

٨ ــ سقيفة بني ساعدة ، تلك التي شهدت مولد الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول ، وفيها التقى المسلمون وتم اختيار ابي بكر الصديق خليفة .

٩ ــ مقبرة البقيع في المدينة ، وتضم رفاة الامام الحسن بن علي بن ابي طالب ، وعلي بن الحسين زين العابدين ، وجعفر الصادق ، ومحمد بن علي الباقر ، وفاطمة بنت اسد ، والدة الامام علي بن ابي طالب ، وابراهيم ابن الرسول العظيم ، والعباس ابن عبد المطلب عم النبي ، وعمتي النبي عاتكة وصفية ، وبناته : زينب وام كلثوم ، ورقية ، ومرضعة الرسول ، حليمة السعدية ، وزوجاته أمهات المؤمنين .. ورفات مئات الصحابة والصالحين . وقد كانت مقبرة البقيع بما ضمّت وحوت ، وبآثار قبابها وجمال صنعتها وزخرفها مركز اشعاع تاريخي ، تجمعت فيه من ذكريات الاسلام وتاريخه وتراثه ورموزه ، ما لم يجتمع في موقع آخر .

ذلك بعض ما يقع للاسلام في أرضه ، وما يصيبه في تاريخه واثاره . مرّة باسم الاسلام وهو براء ، ومرة باسم التوسعة التي يهدمون فيها كل ما سبق لئلا يبقى من الاسلام الا آثارهم وما أعظمها ، وأخصها قصص تاريخهم المجيد في كان وباريس ولندن وماربيا ! ! .

***

لسنا نجهل ، ولا أي مسلم ، ان للوهابية موقفها من القبور والرموز الاسلامية ، فهي ترى فيها بدعة وخروجا عن الاسلام ، وهي تقول بدوارس القبور والآثار ، وقد انتعشت الدعوة وانتشرت في مرحلة بدا فيها وكأن الناس قد خرجوا من صافي ايمانهم بالله الى ايمان بالخوارق والنذور ، واستبدال الحقائق بالظواهر . كانت مرحلة من الجهل ــ ربما ــ الذي عمّ الجزيرة العربية ، فجاء رد الفعل الوهابي بحجم ذلك الجهل ورفضاً له . واذا كانت الوهابية مفهومة في ذلك الحين وفي ظروفها ــ على غلوها وتشنجها ــ فلقد تخلفت فيما بعد كثيرا عن مواكبة التطور في حياة المسلمين ، وانغلقت على نفسها حتى لغدت عبئاً على التاريخ وخروجا عن الاسلام . بل هي تحولت من دعوة للاصلاح في ظرف تاريخي محدد ، الى سلاح ديني بيد أسرة تشهر الدين في وجه معارضيها السياسيين ، وتستخدمه لتبرير استمرارها وحكمها وكأنها جزء لا يتجزأ من الاسلام ! .

والذين تابعوا مسيرة الوهابية ، وبخاصة في مرحلة الدولة الثالثة التي بدأت بعبد العزيز ، يستطيعون ان يلمسوا دور الدين في تثبيت حكم الاسرة ، اكثر من دور الدين في تثبيت حدود الايمان ، فلقد حققت قوات الاخوان لعبد العزيز السلطة ووفرت له اسباب التوسع ، وما أن ايقن

انها صارت قوة مستقلة خطرة ، وأثارت له المتاعب مع جواره ، حتى ضربها وقضى عليها ، وأعانه الانجليز على ذلك أي عون .

غير أن عقيدة الاخوان التي صارت تمثل غلواء الجهل ، اكثر مما تمثل التطور وصدق الايمان . ظلت تقود السلطة ، او تفرض عليها مواقفها التي تجاوزها التطور كثيرا . ورأت فيها السلطة السعودية ، دوما ، عونا لها لتثبيت حكمها واشهار قوتها وعصبية رجالها في وجه خصومها .. ولكنها ظلت تمسك بعناية ، تروضها كلما خرجت او استشرت ، وتقصر مهمتها على دعم النظام ! .

خلال مسيرة الشراكة غير المتكافئة ما بين النظام وتلك القوة العمياء ، ذهبت القوة بعيدا في إزالة آثار الاسلام في أرضه الاولى ، منهية بجهلها ، وبقصد من هو خلفها ، حقبا كثيرة من تطور الاسلام ورموزه الغنية . وكان أكثر ما أصاب الاسلام منها هو ما سبق ذكره من إزالة مواقع وآثار .

يطول الحديث اذا نحن أردنا ان نستعرض بالتفصيل ما فعله الاخوان ، وبصمت آل سعود ، في مكة المكرمة والمدينة المنورة وفي مناطق اخرى من جزيرة العرب . ولقد ذكرنا غيضا من فيض ، لا بهدف استذكار الاحداث واستعادة التاريخ ، بل لنصل الى النتيجة التي توخينا من اثارة الموضوع وهي :

أ ــ وقف عملية الهدم التالية لما تبقى من آثار اسلامية : ما تبقى من بيت الرسول العظيم وموقعه الجغرافي . وتجنب هدم الآثار الاموية والعباسية والعثمانية في محيط الحرم . ولا صحة لما يقال هنا من ان الازدحام ، وحاجة التوسعة الجديدة تفرضان الهدم ، فلقد أثبت تقرير مركز ابحاث الحج في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ان لا حاجة لذلك ، وان من الممكن استخدام وسائل مختلفة في التوسعة دون الغاء هذه المواقع وآثارها . ولقد استخدم المركز ــ فيما أكد لنا الثقاة ــ افضل اجهزة المراقبة المتقدمة وعلى مدى اليوم ومدار ساعاته كلها ، فثبت له ان مواقيت الازدحام لا تزيد على اربعة ايام في العام .

ب ــ ضرب تلك الدعوة المشبوهة الى هدم القبة الخضراء فوق قبر الرسول العظيم ومنع اثارة هذا الموضوع مستقبلا ، لئلا تكون فتنة .

ج ــ ازالة المراحيض العامة من فوق الموقع الذي كان بيتا للسيدة خديجة ، ومنزل الرسول الكريم ومكان عبادته .. خجلا من التاريخ ومن الاسلام الذي يدعون .

°°°

ولنا على كل ذلك بعض الحديث والملاحظات .

اذا وضعنا جانبا قناعة الوهابيين ، وهم اقلية الاقلية في الاسلام ، بل هم الاقلية في السعودية نفسها ، فمن المعروف ان الشعوب الحيّة تحمي تراثها ورموزها ومواقعها الجغرافية وتصونها بالغالي والنفيس ، انها ترى فيها مرآة ماضيها وأحداثه . وتفخر بكل ذلك . ويذهب البعض الى حد استصدار القوانين التي تحمي مواقع او آثار او رموزا تاريخية . ففي انجلترا مثلا افترش الشعب المكان الذي كان فيه مسرح The Rose حيث مثلت على خشبته اولى اعمال وليام شكسبير ، لمنع اقامة بناء على ما تبقى من انقاضه ، فاضطرت الحكومة البريطانية الى ان تحمي هذا الموقع ، وقام البناء على اعمدة كبرى احتفظت بالمكان الاثري يزوه الناس تخليدا لذكرى كاتب عظيم ــ دون ان يمس هذا معتقدا دينيا ــ ومن فوقه قامت ناطحة سحاب ، وظلت الحادثة دليلا على حياة شعب وبرهانا على عراقته .

واذا تركنا قصصا كهذه كثيرة يمكن ان نروي منها آلافها ، ووقفنا في المملكة العربية السعودية عند مثيل لها ، لراعنا التناقض وفاجأنا النفاق .

فلقد حافظ النظام السعودي على قصر « المصمك » في الرياض وهو القصر الذي كان يسكنه « إبن عجلان » حاكمها في مطلع القرن لابن الرشيد ، وقد هاجمه عبد العزيز في غفلة وقتله ، واستعاد حكم الرياض لآل سعود . تلك حادثة معروفة تاريخيا ويعتز بها آل سعود على بساطتها فمنها بدأ تاريخهم الجديد وحكمهم المستمر ، ولم نر ولا رأى أحد في المملكة من المهوسين في الاحتفاظ بهذا الموقع مخالفة لدين ولا خروجا عليه ، ولا بدعة من بدع الاسلام التي طالما حاربها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويدعون الحرص على دعوته .

كذلك حافظ ويحافظ النظام على قصر « المربع » في الرياض وهو القصر الذي حكم منه عبد العزيز دولته ، ومازالوا يتعهدون ذلك الموقع بالرعاية والعناية ، ويجمعون في داخل ذلك الذي يسمونه قصرا مجازا ــ فهو من لبن وطين ! ــ حاجات عبد العزيز وذكرياته . ويضم متحفه الكريم نظاراته ولباسه ، وحذائه ، وما خلف ، ولم يقل احد ان ذلك مخالف للدين ، ولا تمّ هدمه بحجة صحيحة او مزعومة بالتوسعة ، بالرغم من انه يعترض اعمال البناء في الرياض ويقف دونها كالشوكة في الحلق . وبالمقارنة تقفز المفارقة .

فبيت رسول الله يزال أثره بعد أن هدم من قبل ! .

وبيت السيدة خديجة وموقع عبادة الرسول يزال اولا ، ثم تبنى في موقعه مدرسة لتحفيظ القرآن ثم تزال ليتحول الموقع الطاهر الى مبولة ؟ ــ اعوذ بك يارب واستغفرك ــ ! .

وآثار الامويين والعباسيين والعثمانيين في محيط الحرم يعتزمون ازالتها ، فلا يبقى من أثر اسلامي الا اثارهم .

وفي المقابل :

يحتفظون بموقع « كعب الاحبار » في المدينة ، ويمنعون تحت طائلة العقوبة ان يمسّ ، بوصفه أثرا يهوديا ! .

يحتفظون بقصر « المصمك » يزوره السائح ويروي الدليل قصته وتاريخه .. ومع القصة بقية الحربة التي رمى بها عبد العزيز عجلان حاكم الرياض يوم ذاك .

ويحتفظون بقصر حكم عبد العزيز وذكرياته وحوائجه ومكانه الجغرافي ، ولباسه ، ويقيمون لكل ذلك متحفا يسمونه « دارة الملك عبد العزيز » ؟ ! .

ولم نذكر بعد تلك القصور التي بنوها ويبنونها على ما يخالف عقيدتهم الوهابية وينقضها . فمن قصور الملك فهد : وبخاصة قصره في جدة الذي زادت نفقاته على عشرين مليون دولار ، وقصره في الرياض الذي بلغت نفقاته قريبا من ذاك ، الى القصور الاخرى التي تقام هنا وهناك ، او تشترى في كل مكان من الارض وكل عاصمة من عواصم العالم ، يهدر فيها المال العام على غير ما يرضى به الاسلام ، وكلها تعبير عن السفه وعقد النقص فوق انها استخدمت وسائل ابتكرها المقربون من نهب عن طريق العمولات ومضاعفة الفواتير او تثليثها وربما تربيعها ! .

بيت الرسول العظيم يزال ، وبيوت فهد بن عبد العزيز ترتفع شامخة قبابها واسوارها وقصصها ! .

بيت السيدة خديجة ومنزل عبادة الرسول يهدم ، ثم يقام في موقعه مستراح للناس ، وقصور آل سعود وبخاصة ذلك الخادم الامين المؤتمن ، تشاد واحدا بعد الآخر وتغص بكل لذائذ الحياة وأطايبها : حلالها وحرامها ، مباحها ومحظورها .. ويدعون الاسلام بعد ذلك والحرص عليه بل ويحتكرونه وكأنه بعض ما ورثوا وما ملكوا .

نقول هذا بغيرة الاسلام ، وبالحرص على ما ننتسب اليه جميعا ، ونملكه جميعا ، وندعو المسلمين من كل مذهب وفي كل ارض ، الى ان يرفعوا الصوت عاليا ، وان يصيحوا به او بهم : اوقفوا هدم الاسلام ومعالم تاريخه وتراثه .

اوقفوا ، او تأخذكم الصرخة ايها العابثون .

*** عن مجلة « سوراقيا » الأسبوعية اللندنية ، العدد ٤٦٤ ، في ٦ يوليو ١٩٩٢**

من رشوة الصحفيين الى شراء الصحف

الأشقاء الثلاثة يقودون امبراطورية إعلامية تسعى لغسل الدماغ العربي

شغلت الاوساط الصحفية العربية والعالمية بتحليل واستكشاف ما سمي بـ « الامبراطورية الاعلامية » السعودية ، وفي حين ركّزت تلك الاوساط على الامكانيات الضخمة التي تحظى بها هذه « الامبراطورية » ، فإن القليل منها حاول استكشاف الابعاد التي تقف خلفها ، وتأثيرها المحتمل في توجيه الرأي العام العربي .. المقال التالي يقف على خلفيات هذه الامبراطورية ، وعناصر توجيهها ، ومدى تأثيرها الحالي والمستقبلي

■ ■ « لم يبق في العالم العربي الآن أي شيء يسمّى الحوار » .. كان هذا تعليق الصحفي المصري محمد حسنين هيكل على الاخطبوط الاعلامي الذي تمدّه الحكومة السعودية في جميع أنحاء العالم بالمال بهدف الترويج الدعائي للحكم السعودي ، ومحاصرة الافكار التحررية ، والدفاع عن حلفاء الولايات المتحدة من الشيوخ العرب ، كما يهدف في المقام الثاني تعزيز حسابات داخلية تمسّ العلاقة بين أجنحة الحكم في المملكة .

لقد انتهى الوقت الذي يتقرّب فيه أمراء العائلة المالكة للصحفيين العرب بغية نشر صورهم وأخبارهم ، كما انه مضى الوقت الذي يرصد كل أمير ميزانية خاصة لشراء مواقف الصحف المعارضة ، وكيل الاموال للصحفيين من اجل الامتناع عن شتمه او لدفع تلك الصحف لاصدار ملاحق دعائية لصالح شيوخ النفط .. أصبح بامكان كل امير اليوم ان يشتري صحيفة وصحفيين .. فمادام قادرا على الدفع ، فإن امتلاك صحيفة خير له من اغداق الاموال على الصحفيين .

هذه النظرية فهمها الامراء السعوديون مؤخراً وبالتحديد قبل سنتين من حرب الخليج ، ولذلك فقد اندفعوا في كل اقطار العالم يشترون الصحف المفلسة ويضمون الصحفيين الذين لفظتهم صحافة المافيا ، لكن الامر اصبح اكثر

الحاحا واهمية بعد حرب الخليج ، وبروز فشل الاعلام السعودي في توجيه الراي العام العربي ، بل ان ذلك الاعلام لم ينجح حتى في التأثير على الشعوب الخليجية نفسها ، ووجد الملك فهد واخوته أن الراي العام الذي تأثر كثيرا بمحطة « سي ان ان » يحتاج الى نظام توجيه مركز .. فكان عليهم ان يستعدوا لعصر جديد من غسل الدماغ بواسطة كم هائل من وسائل الاعلام التي يمتلكونها .

لقد تم تحديد الاطار أثناء أزمة الخليج ، وفي الوقت الذي كان الملك فهد يبدي انزعاجا من المظاهرات الشعبية التي تهتف ضده في الجزائر وتونس والاردن والاراضي العربية المحتلة واليمن والسودان بالاضافة الى باكستان واندونيسيا وغيرها .. طلب من خبراء اعلاميين اعداد دراسات مكثفة من اجل السيطرة على الرأي العربي ، وعهد الى خبراء امريكيين تقديم النصح في هذا المجال .

ومن حسن حظ العائلة المالكة ان جميع تلك الدراسات لم تجهز الاّ بعد انتهاء حرب الخليج ، وهزيمة العراق ، وانتصار الولايات المتحدة وانبعاث نشوة النصر « الكاذب » لدى الحلفاء الخليجيين وبالذات المملكة ، وكانت الفكرة الاولى انشاء محطة تلفزيون عالمية تقدم سيلا عارما من المعلومات والبرامج الترفيهية لتعوّض المشاهد العربي عن الاخبار التي يتكتم

عليها وعن التحليل الرزين .. كما انها تقدم جميع تلك الاخبار والبرامج من وجهة النظر السعودية .. وتضمنت بعض الدراسات تفعيل الصحف والمجلات المملوكة فعلا بالاضافة الى شراء صحف واصدار نشرات اخرى .

وكان من حسن حظ الملك ايضا ان رجل الاعمال السعودي الشيخ صالح كامل يعد لمحطة تلفزيونية في لندن ، فطلب منه الملك ان يدخل شقيق زوجته الشاب وليد الابراهيم شريكا معه في المشروع على ان يكون له نصف الحصة .. بعد ذلك تفاجأ صالح كامل بالشيخ الشاب يعلن نفسه رئيسا لمجلس الادارة ويتولى فعليا عملية الاشراف على محطة تلفزيون الشرق الاوسط .

ومنذ انطلاقتها الاولى حرصت ام بي سي على تقديم برامج دعائية مبالغ فيها لصالح الملك فهد شخصيا ، ولم تشرك في الدعاية احدا من الامراء السعوديين ، وخلال شهر رمضان المبارك وايام الحج الماضي كانت المحطة تعرض باستمرار برامج دعائية عن نشاطات الملك فهد وخدماته في توسعة الحرمين وسهره على راحة الحجاج ، بل ان بعضا من تلك البرامج أعيد مرات ومرات من اجل تأكيد الدعاية الممجوجة للملك فهد .

اما بالنسبة للقضايا الاخرى ، فقد حرصت المحطة التلفزيونية شأنها شأن جميع وسائل الاعلام التي تمولها الحكومة السعودية على

التعرض للقضايا العربية بقشرية ، والمبالغة في التركيز على الجوانب الهامشية وتضخيمها على حساب القضايا الهامة والحساسة ، كما ان تلك الوسائل حرصت على الترويج للزعماء العرب المؤيدين للغرب ، ومواقفهم ، وهاجمت بلا هوادة الحكومات العربية التي تختلف مع الموقف الامريكي سيما بشأن حرب الخليج .

من جهة اخرى ، تبنّت تلك الوسائل دور التطبيع النفسي بين العرب واسرائيل ، وقامت محطة تلفزيون الشرق الاوسط للمرة الاولى على المستوى العربي باجراء مقابلات مع شخصيات سياسية اسرائيلية كان بينها شيمون بيريز رئيس الوزراء السابق ، لتأكيد جدية الطرف الاسرائيلي في المضي قدما في طريق السلام ، سيما بعد فوز حزب العمل الاسرائيلي في الإنتخابات .

ويقول صحفيون عرب رفضوا الانخراط في ماكنة الدعاية السعودية التي يصفونها بماكنة غسل الدماغ العربي ، ان الاعلام السعودي اصبح بديلا سيئا للاعلام اللبناني والمصري ، ويحرص على عرض وجهة نظر واحدة ، والدعاية لنمط الحكم الفردي .

ويملك الأمراء السعوديون اليوم اكثر من ١٣ صحيفة ومجلة خارج المملكة ، بالاضافة الى محطتي تلفزيون ومحطتي اذاعة ووكالة انباء عالمية ، ويجري التفاوض حاليا لشراء صحف ومجلات بريطانية وعربية ، بينها مجلة المستقبل اللبنانية التي توقفت في باريس بسبب نقص التمويل السعودي ، حيث وردت انباء عن محاولات يقوم بها رجل الاعمال السعودي رفيق الحريري لشرائها .

■ ■ سلاح سياسي

الصحافة هي السلطة الرابعة .. وربما جرى تصنيفها على انها السلطة الاولى ، لكن تعامل الاسرة المالكة في السابق مع هذه السلطة كان بالاسلحة الدفاعية .. فالاخرون يهاجمون ووسائل الاعلام السعودية تنفي وتدافع ، او تتجاهل ، ولم يتحول الاعلام السعودي الى المواجهة الا في مرات قليلة كان بينها الازمة مع ايران ، لكن هذا الاعلام وبعد ازمة الخليج وطغيان الشعور الكاذب بالنصر ، اصبح سلاحا صارما لمهاجمة انظمة عربية والترويج لافكار وكتابات تصنف على انها تحريض لاسقاط أنظمة في المنطقة كما في اليمن والسودان والاردن وليبيا فضلا عن العراق .

واذا كانت الاسرة الحاكمة في السابق تتريث قبل الرد على اي مطبوعة تهاجمها ، وتتخذ باستمرار اسلوب النفي « جملة وتفصيلا » حتى أن الصحافيين السعوديين وصموا وزارة الإعلام بوزارة النفي .. فإن الاعلام السعودي اليوم تحول الى سلاح فتاك وهجومي يوجهه الملك وأشقاؤه السديريون ضد من يعارض سياساتهم الخارجية .

لقد تغيرت لهجة الاعلام السعودي كثيرا ، فلم نعد نسمع عن التسامح والصبر وحل المشاكل بالطرق الودية ، لتحل محلها تهديدات وتلويح بالمواجهة وكشف الحقائق والرد على الاراجيف وغيرها من الالفاظ الحادة التي يحفل بها اليوم الاعلام السعودي ضد دول « الطوق المعادية » كما تقول مجلة اليمامة السعودية عن الاردن واليمن والسودان والعراق .

وليست المملكة وحدها التي تتبنّى اليوم هذه السياسة الهجومية التي ورثتها من حرب الخليج ، فحتى الكويت الدولة الخليجية الصغيرة هي الاخرى تشهر اكثر من سيف وتحمل اكثر من راية لمعاقبة الدول العربية التي صنفت على انها مؤيدة للعراق .. ففي الملتقى الاعلامي الخليجي الذي عقد في الكويت في السادس والعشرين من يونيو الماضي ، تحدث وزير خارجية الكويت للصحفيين الخليجيين بعنف ضد كل الذين أيدوا العراق او سكتوا على العدوان او لم ينضموا الى « جناح الحق ! » ، في حين كان الأجدر به أن يطلب من صحافيي الخليج ، ان يبيّنوا الوجه المشرق لعرب الخليج الذي لطّخه النفط ، ويوضحوا العمق الحضاري لهذه المنطقة التي لا يعرفها العالم الا انها بلاد النفط المحترق والملح والظمأ ، كما وصفها الملك حسين ! .

اعلاميون عرب في لندن يقولون ان الاعلام السعودي يوجه سهامه ضد الدول العربية التي لا تملك امكانيات اعلامية كالتي يملكها الأمراء السعوديون ، ويستشهدون بالسودان الذي تسلّط الصحافة السعودية اسلحتها واقلام المتمردين ضد نظامه لتصوير هذا البلد وكأنه غابة يعشعش فيها الجوع والمرض والموت .

وكذلك الحال بالنسبة لليمن التي لا تخلو الصحف السعودية من اخبار عنها بشكل يومي ، وتصور تلك الصحف هذا البلد بأنه مرتع للجريمة السياسية وموطن الخطر والقتل والاغتيال ، وتبالغ في تصوير المعارضة ، كما انها تتجاهل بشكل كبير المجال الواسع للديمقراطية والحرية السياسية . وكان احد المسؤولين اليمنيين قد اخبر صحيفة سعودية بأن هجومها المتكرر على اليمن لا يساوي شيئا امام الانتقاد الحرّ الذي تحفل به الصحف هناك .. وتحدّى ان تنتقد اي صحيفة سعودية الوضع في بلادها كما تفعل الصحف اليمنية .

وكانت مجلة المجلة السعودية قد اعترفت بأن اليمن هي الدولة العربية الوحيدة ــ باستثناء لبنان ــ التي يصدر فيها اكثر من ٣٠ صحيفة وبها أكثر من عشرين حزبا سياسيا مصرحا بها ، ومع هذا تقول المجلة ان هذه الصحف وتلك الاحزاب ليست دليل عافية وانما هي « مجرد صراخ سياسي » .. متناسية ان بلادنا التي توصف عادة بأنها مملكة الصمت تحرم حتى الصراخ والانين السياسي وتعاقب عليه .

أدوات الامبراطورية الاعلامية السعودية

ما يتبع الملك فهد

١ ــ محطة تلفزيون الشرق الاوسط « ام . بي . سي » .
٢ ــ وكالة اليونايتدبريس « يو . بي . آي » ، التي تمّ شراؤها في الشهر الماضي لحساب ام . بي . سي .
٣ ــ محطة اذاعة الشرق من باريس ، والتي يمولها رفيق الحريري ، شريك الملك في أعماله .
٤ ــ امتياز مجموعة صحف في لبنان « لصالح الحريري » .
٥ ــ يجري الاعداد لانشاء محطتي تلفزيون تملكهما مؤسسة الحريري « سعودي أوجيه » .

ما يتبع الامير سلطان وأبنائه

١ ــ جريدة الحياة الصادرة في لندن .
٢ ــ مجلة الوسط الصادرة في لندن .
٣ ــ أسهم في جريدة الايام البحرينية .
٤ ــ محطة اذاعة وتلفزيون الشبكة العربية الامريكية في الولايات المتحدة .
٥ ــ ويجري التفاوض حاليا لشراء صحيفة الاوبزرفر البريطانية ومجلة عربيّة أسبوعيّة كانت المخابرات العراقية تموّلها وتصدر في لندن .

ما يتبع الأمير سلمان ، أمير الرياض

له الكلمة الأولى في مجموعة الشركة السعودية للابحاث والتسويق والتي يصدر عنها :
١ ــ صحيفة الشرق الاوسط .
٢ ــ مجلة المجلة .
٣ ــ مجلة سيدتي .
٤ ــ جريدة المسلمون .
٥ ــ مجلة الرجل .

■ ■ حسابات داخلية

طبعا لا يمكن فصل هذا الاخطبوط الاعلامي عن مسلسل التنافس على عرش المملكة بين اقطاب الحكم المختلفة ، ولو ان جميع تلك الاعلاميات تديرها ثلاث شخصيات تمثل الجناح السديري ، يجمعها تحالف وثيق يستهدف الاستئثار بكامل السلطة والقوة داخل البلاد ، واقصاء الاخوة الباقين من غير الاشقاء .

وقد برزت تلك النيات وبرز الدور الذي يرجى من جيش الصحافة الذي يمتلكه الاشقاء الثلاثة القيام به ، من خلال خبر نشرته جريدة الحياة في الثاني من مارس الماضي ادى الى منعها من دخول السعودية . حيث شككت الصحيفة في ولاية عهد عبد الله ، وصورت قرار الملك حول رئاسة ولي العهد للحرس الوطني وكأنه قرار بتثبيت ولاية العهد .

وهذا ما أكّد المزاعم التي تحدثت عن نيّة الملك عزل اخيه بعد ان وضع بندا في الدستور يخوله عزل ولي العهد وتجريده من مهامه . ويقول خبراء في الشؤون السعودية ان الاشقاء الثلاثة يتولون بالاضافة الى عدد قليل من اخوانهم وابنائهم ادارة البلاد فعليا ، ويسعون من خلال الامبراطورية الاعلامية التي صنعوها ، الى توثيق تحالفاتهم وارتباطاتهم الدولية حتى يستفيدوا منها في تدعيم مراكزهم في الداخل ، ويعلق اولئك المحللون بالقول انه في الوقت الذي لا يسمع احد في العالم عن امراء كبار في العائلة المالكة ، فإنهم يتابعون باستمرار اخبار الامير بندر وخالد ، ونشاطات ابيهما الامير سلطان ، واخبار الامير سلمان ، وهذا مما لا شك فيه يدعم موقف العصبة السديرية في الداخل .

■ ■ نيويورك تايمز : سيطرة سعودية تثير القلق

حاولت وسائل اعلام عالمية اخيرا كشف النقاب عن الامبراطورية السعودية للإعلام ، كان بينها صحيفة نيويورك تايمز ومجلة تايم الامريكيتين .

قالت صحيفة نيويورك تايمز في تقرير مراسلها في لندن السيد يوسف ابراهيم ان المملكة العربية السعودية قد انفقت خلال السنوات العشر الماضية عشرات الملايين من الدولارات للسيطرة على اجهزة اعلامية لنشر دعايتها في الشرق الاوسط واوروبا الغربية .

واشارت الصحيفة الى ان السعوديين قد خطوا خطوة جديدة يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو عندما اشترت محطة تلفزيون الشرق الاوسط السعودية ، التي يملكها أكثر أسهمها وليد الابراهيم شقيق زوجة الملك فهد ، وكالة الانباء الامريكية « يونايتد بريس انترناشونال — يو . بي . آي » بمبلغ ٣٠٩٥ مليون دولار — معلومات اخرى ذكرت ان المبلغ حوالي ١٢ مليون دولار — .

وقد اعلنت ام بي سي انها اشترت يو بي آي التي كانت تحت وصاية محكمة التفليس منذ شهر يونيو الماضي لتعزز نطاق عمليات جمع الاخبار لمحطتها التلفزيونية التي تبث باللغة العربية الى انحاء اوروبا والشرق الاوسط .

بالرغم من ان الامبراطورية السعودية تخضع لتوجيه الاشقاء الثلاثة ، الا أنها لا تنفصل عن مجريات الصراع الداخلي ، ومحاولة إبراز مرشحي الحكم المستقبلي عالمياً

ومضت الصحيفة تقول « لقد ادت الحملة التي شنتها المملكة العربية السعودية منذ عشر سنوات في محاولة للسيطرة على اجهزة اعلامية ، وهي الحملة التي تولى قيادتها الملك فهد نفسه واشقاؤه المقربون اليه .. الى السيطرة على الوجبات الاخبارية والدعائية التي تقدمها تلك الاجهزة الاعلامية الى الملايين من الجماهير العربية وتسخيرها لصالح المملكة » .

واشارت الصحيفة الى ان قيام الأمراء السعوديين بشراء هذه الاجهزة الاعلامية في لندن واوروبا قد سبب قلقا لدى بعض الصحفيين والمفكرين العرب ، ممن يشعرون بأن المواقف والنظرة « الرجعية » السعودية ستتغلب على النظرة التقدمية ووجهات النظر الاخرى .

واستشهدت الصحيفة بالكاتب المصري المشهور محمد حسنين هيكل اذ قال « لم يبق في العالم العربي الآن اي شيء يسمى حواراً » ..

وذكرت الصحيفة ان هيكل الذي وصفته بأنه من نقاد دول الخليج ، قد شكا من ان ارتفاع دخل المملكة السعودية من عوائد النفط قد افسد الصحافة العربية وقوّض دعائمها واسسها .

واضافت نيويورك تايمز قائلة « ان الصحف السعودية تلعب دورا خطيرا . فصحيفة الحياة التي يملكها الامير خالد بن سلطان تحارب كل الذين يوجد خلاف بينهم وبين السياسة الخارجية السعودية كالسودان واليمن والجماهيرية الليبية . وفي الوقت نفسه تتجاهل او تغطي على اي خبر يسيء الى السعودية او دول الخليج ، اما صحيفة الشرق الاوسط فيملكها الامير سلمان بن عبد العزيز الذي يعتبر بلا منازع من جانب آل سعود لورد الصحافة » .

■ ■ مجلة تايم : امبراطورية اعلامية

اما مجلة تايم الامريكية ، فقد نشرت بتاريخ ٢٢ يونيو الماضي تحقيقاً أعدته مراسلة المجلة في الشرق الاوسط ، لارا مورلو حول الامبراطورية الاعلامية السعودية ، تناولت فيه السياسة الاعلامية التي تعتمدها المملكة وحجم الانفاقات المخصصة للنشاط الاعلامي السعودي في الخارج ، كما أوردت المجلة تصورات لعدد من الاعلاميين العرب حول الشبكة الاعلامية الخارجية المرتبطة بالمملكة والتي يديرها الامراء الكبار في العائلة المالكة ، وكذلك دورها في عملية تضليل الرأي العام العربي .

تبدأ لارا مورلو تحقيقها قائلة : « كان أي أمير سعودي يبحث عن الدعاية الصحفية ، يسرّب ساعة ذهبية أو مظروفاً فيه مبالغ نقدية الى احد الصحفيين ، لكن الوقت قد تبدل فقد أخذ السعوديون مؤخراً لا يشترون الصحفيين فحسب بل والصحف أيضاً ، لتتجه للاندماج الكامل و تشكل امبراطورية اعلامية سعودية على المستوى العالمي ، الامر الذي يثير ذعر الكثيرين في المنطقة » .

وتمضي الصحفية قائلة : « يسيطر السعوديون الآن اضافة الى ١٤ مطبوعة خارج المملكة يتم توزيعها في الشرق الاوسط وأوروبا وأمريكا ، على محطتين اذاعتين في أمريكا وفرنسا ، وعلى شبكتي تلفزيون بالاقمار الصناعية ، تحتوي برامجهما على نشرات أخبار ، وبرامج ترفيهية ، ورياضة ، تعرض من ولاية كاليفورنيا الى منطقة الخليج . ويمتلك اثنان من كبار أمراء العائلة المالكة وهما سلمان وخالد بن سلطان السيطرة على أربع صحف عربية ذات شعبية عالمية ، بينما يتولى صهر الملك فهد الشيخ وليد الابراهيم منصب الرئيس والمساهم الرئيسي في مركز تلفزيون الشرق الاوسط الذي يبث برامجه التلفزيونية من لندن عبر الاقمار الصناعية الى اوروبا وشمال افريقيا

والشرق الاوسط ، وتخطط هذه المحطة في سبيل توسيع نطاق بثها ليشمل الولايات المتحدة والجمهوريات الاسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفيتي واسيا . وقامت المحطة بتقديم تغطية حيّة لأحداث هامّة كمؤتمر مدريد للسلام في الشرق الاوسط ، والقمّة الاسلامية في دكار ، وكذلك المراسم الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال شهر رمضان » .

وتضيف التايم قائلة : « ومهما يكن فإن القراء والمشاهدين يشكون من طريقة تقديم وتناول محطة أم بي سي والصحافة المملوكة من قبل السعوديين للقضايا الحساسة والجادة ، ويقولون أن الشرق تفتقر الى الديموقراطية ، ومحنة المرأة ، والغضب الاصولي على الولايات المتحدة واسرائيل . يقول غسان تويني رئيس تحرير صحيفة النهار البيروتية : إن الصحافة الخاضعة للسعودية تشبعك بكم هائل من الاخبار ، ولكن اذا أصبحت هي المصدر الوحيد لاستقاء المعلومات ، فان الرأي العام سيحرم من توازن الافكار » .

وتتابع المجلة قولها : « لقد بنى السعوديون شبكة اعلامية خلال عقد من الزمن ، ولكن قيام شبكة تلفزيون (سي . إن . إن) الاميركية بتغطية حرب الخليج على مدار أربع وعشرين ساعة .. فتحت شهية السعوديين على (سي . إن . إن) أخرى تحت ملكيتهم . إن انسحاب العراق كممول للصحافة العربية خلال حرب الخليج قد أحدث فراغاً تسعى المملكة العربية السعودية بكل سعادة الى ملئه ، ونتيجة لذلك أصبح السعوديون الآن يملكون صحفاً ومجلات ومحطات اذاعة وتلفزة ويجتذبون اقدر الصحفيين العرب الى هذه الاجهزة برواتب تعادل عشرة أضعاف الرواتب التي تعرضها الصحافة العربية المنافسة » .

وتمضي الصحفية مورلو قائلة : « وقد أصيب الصحفيون العرب الذين رفضوا الالتحاق بركب الدفع السعودي بالخوف من أن تنجح أجهزة الاعلام السعودية في القضاء على المؤسسات الصحفية واستبعادهم منها » .

« يقول طلال سلمان مؤسس ورئيس تحرير صحيفة السفير اللبنانية : إن لدى السعوديين خطة لاستبدال الصحافة العربية بصحافة سعودية . وقد اصبح من الصعب على المرء أن يجد مثقفاً أو كاتباً قديراً في أي مكان من المحيط الى الخليج ، من غير العاملين لحساب الأمراء السعوديين » .

« ويعتبر رفيق الحريري ، وهو ملياردير سعودي من أصل لبناني ، صديقاً للملك فهد ، ومرشحاً لرئاسة الحكومة اللبنانية . وهو ينفق ١٠ ملايين دولار سنوياً على محطة راديو الشرق لوريانت التي تذيع برامجها من باريس الى أوروبا وسوريا ولبنان والاراضي العربية المحتلة ، كما تذاع في أمريكا أيضاً بواسطة اتصال تلفيوني . وقد اشترى رفيق الحريري مؤخراً عدة أسماء صحف لبنانية كانت نائمة ، كما تخطط شركته القابضة المسماة « الموجة » لتأسيس محطتين تلفزيونيتين . ويقول أحد الموظفين العاملين لدى شركة الحريري : إذا استمر الحريري على هذا المنوال ، فانه سيصبح راندولف هيرست العالم العربي » .

وتضيف التايم : « وتعكس السيطرة السعودية على الصحافة أيضاً مدى سيطرة الامير سلمان شقيق الملك فهد وأمير الرياض منذ ٣٠ عاماً ، وكذلك سيطرة الامير خالد بن سلطان إبن أخ الملك فهد الذي تولى قيادة قوات الدول الاسلامية في حرب الخليج . ومع أن الامير سلمان بن عبد العزيز لا يملك أسهماً في شركة الابحاث والتسويق السعودية التي يوجد مقرها في لندن ،

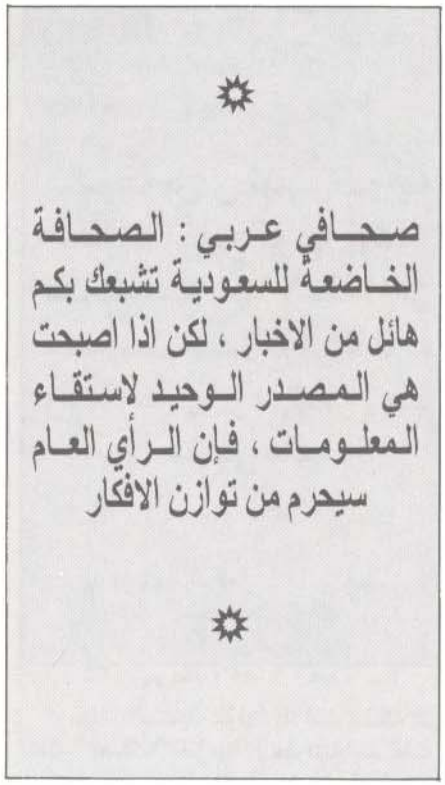

فانه بالرغم من ذلك يعتبر القوة التي تقف وراء المجموعة التي تمتلك الصحيفة الاكثر قراءاً وهي صحيفة الشرق الاوسط شبه الرسمية ، والتي تتخذ من لندن مقراً لها ، وكذلك مجلة المجلة الاسبوعية ، ويقال أن الامير سلمان هو الذي يقرر ، بالرغم من علاقاته غير الرسمية بالمطبوعات .. المضمون والخط الصحفي للشرق الاوسط ، أما الامير خالد بن سلطان فانه يملك عقد ايجار لمدة ٢٠ سنة لجريدة الحياة اللبنانية التي بدأت في مطلع العام الحالي باصدار مجلة صقيلة باسم (الوسط) ، وتخسر الحياة التي تطبع في لندن والقاهرة وبيروت والبحرين وفرانكفورت ومرسيليا ونيويورك في ان واحد مليون دولار سنوياً ، ويقول رئيس تحريرها جهاد الخازن أن مصادرة الصحيفة عدة مرات في السعودية دليل على استقلالها ، لكنه يعترف بأن الصحفيين الذين يعملون لديه جرى تدريبهم داخل المؤسسة على تفادي المواضيع الحساسة على الأخص أي انتقاد للعائلة المالكة أو الانظمة العربية الحليفة للمملكة » .

« ودليل اخر على طموح الاحتكار السعودي للاعلام .. التطور الملحوظ في تلفزيون الشرق الاوسط ، فقد تأسست هذه المحطة التلفزيونية في لندن في شهر سبتمبر الماضي برأسمال تشغيلي قدره ٣٠٠ مليون دولار وميزانية سنوية قدرها ٦٠ مليون دولار ، ويقول مدراء تلفزيون الشرق الاوسط أن معظم هذه الاموال تأتي من الشيخ وليد الابراهيم رئيس مجلس الادارة ، لكن محرراً صحفياً سعودياً في لندن قال : إن قناة تلفزيون الشرق الاوسط هي مشروع الملك فهد المحبب . وقال ذلك المحرر أيضاً : إن الملك فهد معجب بشبكة سي . إن . إن الاميركية . وهو يعتقد بأن الاعلام هو أهم وسيلة لنشر معتقداته وسياساته » .

« ويقول النقاد بأن الملك فهد يبعث توجيهاته وآراءه عن البث التلفزيوني اليومي عبر صهره وليد الابراهيم ، كما قال أولئك النقاد إن تلفزيون الشرق الاوسط يركز تغطيته التلفزيونية على أخبار الملك فهد والمقربين منه . ويصر نائب المدير العام للمحطة عرفان نظام الدين — فيما يتعلق بأسلوب المحطة في تناول الاحداث اليومية واذاعتها في نشرات الأخبار — : باننا لا نتخذ حتى الآن خطاً سياسياً معيناً ، بل نغطي الاحداث كما تقع » ! .

لكن أحد موظفي تلفزيون الشرق الاوسط اعترف — بعد أن طلب عدم ذكر اسمه — إن أي انتقاد لأعضاء الاسرة المالكة السعودية يعتبر من الكبائر المحرمة كلياً ، وتسبب هذه النظرة الى الشؤون السعودية ، حدوث فراغ هائل في تغطية المحطة لقضايا الشرق الاوسط . ويرفض المسؤولون الليبيون اجراء أية مقابلات مع هذه المحطة التلفزيونية . ويقول عرفان نظام الدين أنه لا يرسل أي صحفيين الى العراق لأن ذلك يعرضهم للخطر » .

« وتخطط محطة تلفزيون الشرق الاوسط توسيع شبكتها ليصل بثها الى داخل الولايات المتحدة خلال العام الحالي ، حيث ستتنافس مع محطة اخرى تمول من قبل السعوديين وهي الشبكة العربية الاميركية » .

« وقد بدأت الشبكة هذه في شهر ديسمبر الماضي بعرض برامج أخبارية وترفيهية ودينية من المحيط الى المحيط — أي من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي — أي في كل أنحاء الولايات المتحدة ، وتدعي هذه الشبكة أن جمهورها يبلغ ٧٥٠ ألف مستمع الى الاذاعة المسموعة و ٥٠٠ ألف مشترك يستقبل برامجها التلفزيونية ، وهذا بالطبع يشكل جزءاً كبيراً من

الاميركيين والمغتربين الناطقين باللغة العربية المقيمين في امريكا البالغ عددهم نحو مليون نسمة . ومحمد البدراوي هو مدير عام الشبكة ، وهو ضابط بحري سعودي سابق ومن المقربين للسفير السعودي في واشنطن بندر بن سلطان » .

« إن تنامي سيطرة السعودية المكثفة على الصحافة العربية ، هو انعكاس واضح لايمان الملك فهد بقيمة وأهمية الاعلام كوسيلة للتبليغ ، وهذا بالدقة ما يثير فزع الآخرين . يقول كاتب لبناني رفض الانضمام لجريدة الامير خالد بن سلطان « الحياة » : إنها تعطي انطباعاً مزوراً عن أفكار النخبة الثقافية العربية . فهناك عدد كبير من الصحفيين العرب ضد الحظر المفروض على العراق ، كما ويعارضون مؤتمر السلام في الشرق الاوسط ، ولكنهم يخشون من كتابة ما يفكرون فيه ويعتقدون أنه الصواب . فهل يستطيع مراسل صحفي أن يكتب الحقيقة عن نتائج حرب الخليج في صحف نورمان شوارزكوف ؟ . إن هذه الكلمات القليلة المثيرة للملاحظة بمثابة مجلدات تتحدث عن النظام العربي الجديد الذي أعقب حرب الخليج الثانية . وفي الصحافة كما في السياسة تعيد الثروة الهائلة للمملكة وتحالفها مع الولايات المتحدة تشكيل صورة الشرق الاوسط ، وبذلك فان رؤية العالم العربي تنقل الآن من خلال الصحافة الخاضعة للسعودية الآخذة في الزيادة » .

■ ■ امبراطورية من ورق

« زرع صدام فحصد فهد » ، بهذا العنوان وصفت مجلة سوراقيا حال قطاع كبير من الاعلام العربي الذي بنته ماكنة الدعاية العراقية وورثه رجال الحكم في المملكة .

في الثمانينات ، شعر العراق بحاجة الى اعلام مصقول ، يتحرر « جزئيا » من الايديولوجيا التي يسير عليها النظام ، ويبتعد ايضا عن صفة الاعلام الحزبي الذي يوصف به عادة الاعلام العراقي ، وكانت دوافع العراق تتلخص في حشد اعلام عربي لمواجهة نفوذ الثورة الايرانية التي دخل في حرب معها .. ونشط العراقيون سواء على صعيد وزارة الاعلام والمخابرات والسفارات في الخارج ، او عبر كوادر حزب البعث التي تحاول النفوذ الى البلاد العربية .. هؤلاء جميعا حاولوا اقامة امبراطورية اعلامية عربية في اوروبا .. لكن بعد ازمة الخليج الثانية وانقطاع التمويل العراقي انهارت تلك الامبراطورية بين ليلة وضحاها .. البعض انقلب لصالح حكومات الخليج ، والآخر قاوم حتى الرمق الاخير ، والبعض الثالث فضل الانسحاب واغلاق دكانه ناجيا بما تبقى له من رصيد .. لكن تبين ان الاعلام العراقي لم يستطع ان يكون رأياً عربياً عاماً ، بالرغم من ان معظم الدول العربية كانت منحازة اليه وتدعمه بالاموال ، ففشل مثلا في مواكبة الاعلام اللبناني والاعلام المصري .. لأن المدرسة التي اتبعها الاعلام العراقي في الثمانينات كانت تعتمد على التعبئة والاثارة ، بينما احتفظت الصحافة البيروتية والقاهرية — في المجمل — بقدر غير قليل من المعقولية .

الوسطاء السعوديون يتنقلون اليوم بين مكاتب تلك الصحف المقفلة .. سعيا الى امتلاكها لكن محللين اعلاميين لا يتوقعون ان تنجح المملكة في تكوين شبكة اعلامية تصنع رأياً عاماً حتى وإن امتلكت أدواته ، وذلك للأسباب التالية :

اولا : تراجع مكانة الاعلام الحزبي .. او الايديولوجي .. لا فرق هنا ان يكون انتماء الصحيفة الى حزب سياسي او عشيرة حاكمة ، فمادامت المطبوعة تخص الحزب الحاكم او العائلة المالكة وتبشر بالدعاية لهما فإنها تحصر نفسها في اطار ضيق للغاية ، لأن غالبية الناس ليسوا حزبيين ، ولا ينتمون لعائلة الحاكم .. بل على العكس فأغلبية الناس تنفر من اعلام الطبقة الحاكمة باعتباره دعاية رسمية وفي أحسن الظروف رأياً رسمياً يتعارض في الغالب مع مواقف الناس وآرائهم .

ثانيا : حرية الاعلام التي هي دعامة السلطة الرابعة لا يمكن ضمانها في صحيفة يمتلكها احد افراد الاسرة السعودية المالكة ، حتى ولو كانت تلك المطبوعات تتوزع في عواصم الدول الحرة ، وتنشر من بلاد الديمقراطية وحرية الرأي .. فللأسف ان حكومة المملكة لا تحتمل وجهة نظر تخالفها ، او تتعارض معها ، ومن هنا كان حرصها على الاطباق بقوة على وسائل الاعلام والتحكم فيها .. وفي حين نرى مكانة الصحافة الغربية تتعزز فلأن الناس يثقون بحريتها وتجردها ، وتتأثر مكانة اي صحيفة اذا أسيء الى ذلك التجرد والتحرر ، ويقول محررون في صحف تملكها المملكة ان رئيس التحرير لا يملك صلاحيات توجيه الصحيفة ، وانه يتلقى يوميا اوامره من الرياض لتحديد المانشيت الرئيسي ، وغالبا ما يتردد في نشر الاخبار المثيرة للجدل حتى يستأذن الجهات المختصة في المملكة .

لقد كان وصف منظمة « المادة ١٩ » التي تهتم بحرية التعبير ، للمملكة بأنها « مملكة الصمت » دقيقا الى حد كبير ، فسجل المملكة في التضييق على الحريات الفكرية ، ومصادرة حرية التعبير ، والاساءة الى الصحفيين والكتاب ، لا يبشر بازدهار الاعلام السعودي في هذه الامبراطورية . ويبدو ان السلطات تعلم هذه الحقيقة ولذلك فهي تخفي انتماء تلك المطبوعات اليها خشية احتراقها شعبيا .

ثالثا : فقدان الاعلام السعودي لفن العمل الصحفي ، ففي مرات عديدة ابدى الملك فهد امتعاضه من مستوى الصحافة السعودية ، بينما يصفها المسؤولون البارزون بأنها « صحافة مكاتب » والصحفيون المحليون يدافعون عن انفسهم بأنهم يمثلون سلطة منزوعة السلاح ومجردة من وسائل القوة .. ويقولون ان الامراء يريدون ان يمتلكوا الصحفي كما يمتلكون الساعة والاثاث .. واما مزاجهم فإنه يتغير بين الفينة والاخرى ، ويبدو انه لهذا السبب سعى اقطاب الحكومة السعودية الى تجميع الصحفيين اللبنانيين وغيرهم ليكونوا دعامة امبراطوريتهم الورقية .. لكن ذات المنطق لا يزال قائما فكل أمير يسعى من وراء صحيفته لأن يطل على العالم ، واما تلفزيون الشرق الاوسط فقد بدأ مستقلا بعض الشيء لكنه سرعان مارمى استقلاله واصبح يبث دعايات ممجوجة للملك فهد ومشاريعه وخدماته .

الدعاية المبالغ فيها ، والحرص على الشكليات كصورة الأمير وخبره على الصفحة الاولى ، والتدخل المباشر من قبل الممولين ، واستنقاص عقول الناس ، سلوكيات لا بد ان تواكب اي اعلام يتبع الممولين السعوديين ، وهذا لا يمكن ان يبشر بنجاح امبراطورية الدعاية هذه ، ودليلنا على ذلك موقف معظم المواطنين العرب ضد النظام الملكي .

رابعا : تخلّف الاعلام السعودي ، ففي حين يواكب الاعلام الحر مسيرة الشعوب العربية سواء في تحقيق مطالبها السياسية كالمشاركة في الحكم وتطبيق حقوق الانسان ، او نموها الاقتصادي والاجتماعي ، وفي الوقت الذي يتحول الاعلام العالمي الى « محرك » لشعوب كثيرة لدفعها نحو التغيير ، او توجيه مسيرتها ، فإن الاعلام السعودي يجد من الصعوبة التطرق الى اي من هذه المجالات .. لأنه في الاساس مشروع دعائي وليس رسالة هادفة . وسيجد هذا الإعلام ان الباب موصد امامه للحديث عن اي من القضايا الحساسة ، وسيجد ان قائمة الممنوعات سواء في القضايا او الدول او الشخصيات او حتى العبارات والالفاظ تحد من نموه واتساع شعبيته .

اليوم وحيث اصبحت القضايا التي يكرهها المسؤولون السعوديون همّاً عاما لغالبية الشعوب العربية ، واصبحت المجالات التي يحظر التطرق لها في الاعلام حديث الشارع السعودي والعربي ، فإنه من المستهجن ان تتغافلها هذه الصحف المملوكة ، وتستعيض عنها بمقالات سفسطائية مطولة او مقالات خطابية قشرية ، او تستعيض عنها بالحديث عن جزر واق الواق وغيرها التي لا تهم اي من الموطنين العرب .

لهذه الاسباب ، ولأسباب اخرى ، فإن قلة من الناس تعتقد ان هذه الامبراطورية ستنجح في مهمتها ، البعض يصفها بأنها امبراطورية هلامية .. تمتلك المكاتب والورق المصقول ، والاسماء اللامعة ، لكن تحريك الشارع وصنع القرار ، والتأثير في الرأي العام ، والتستر على عورات الحكم .. كل هذه الأمور ستكون بعيدة المنال .

العصبيّات المحلية تتنامى والهوية الوطنية لم تولد بعد

المملكة مهدّدة : المشاركة السياسيّة أو التقسيم !

محمد الحسين

المراقب لأوضاع المملكة عن قرب ، يرى أن هناك نزوعاً تزايداً عند كثير من سكانها باتجاه تنشيط الولاءات والإنتماءات محليّة والتقليدية ، ويلقى هذا النزوع تشجيعاً مكثفاً من قبل جموعة غير قليلة من المثقفين ورجال الدين والأعمال في عدد ن مناطق البلاد .

ورغم أن وجود الإنتماءات المتعددة للقبيلة أو المنطقة أو مذهب ، ليس بالضرورة متناقضاً مع الولاء للوطن والمجتمع .. لاّ أن النزوع الحالي والجماعي ، يعد من أخطر الظواهر التي هددتها البلاد منذ تأسيسها ، لأن القوى الدافعة والمشجّعة على أكيد الخصوصيات والإنتماءات المجتمعيّة الخاصة ، تحمل في ثناياتها دعوات الى الإنفصال الصريح عن جسد الدولة الأم ، وإن لتصاق بهذه الخصوصيات وتأييدها وتبجيلها والدعوة إليها ، لا ستهدف مجرد الإحتماء من جور النظام السياسي ، وإنما وظيفها في الصراع السياسي ليصار في مرحلة لاحقة الى تأطير وضع المحلي كقوة سياسيّة تتجه نحو الإستقلال .

وممّا يجعل الإتجاه نحو تأكيد الذات خطراً في هذه المرحلة ، هو أن الظروف الدولية والداخليّة تشجّع دعاة الإستقلال أو الإنفصال في دعوتهم ودعاواهم .. ومن المدهش حقاً أن الكثير من المواطنين الواعين لم يعودوا ينظرون الى « تفكيك » المملكة وتقسيمها وكأنّه شرّ مقيت يخجل الإنسان من أن يتهم به .. ومن المدهش أكثر هو أن الوحدة السياسية القائمة لا تستثير الرغبة في ديمومتها ،.لأنّها من وجهة نظر عديدين أصبحت من مخلفات عصر الهزيمة .. هزيمة المناطق والدول والأمارات التي تمّ تشكل كيان المملكة على أساس هدمها .

لقد تأسّس على أنقاض الهزائم الكبرى التي مُنيت بها مناطق المملكة المختلفة وحدة سياسيّة قسريّة لم تتطوّر الى الإندماج الكامل بين المواطنين ، بل لم تتولّد العاطفة الواحدة والإنسجام النفسي والمصلحي ، وإن تغيّر الأوضاع في غير صالح تيار الوحدة والإندماج هو الذي يشجّع دعاة الإنفصال على المضي في خططهم وبرامجهم .. ومن هنا ، فإن بعض هؤلاء يريد تقويض هذه الوحدة ، أو إعادة تشكيلها بصورة مختلفة .. استكمالاً للصراع الذي دار في الجزيرة العربية في العقدين الثاني والثالث من القرن الحالي ، والذي توّج بانتصار عصبيّة غالبة .

ضمّ وعلاقة سيطرة

تأسّست المملكة الحديثة من خلال انتصار منطقة على مناطق أخرى وضمّها الى سلطانها .. ولم تكن هذه المنطقة ــ نجد ــ في تاريخها الحديث ، ولم يرد الأمراء السعوديون لها أن تكون ، نواة الوحدة الوطنيّة وقاعدة التوحيد السياسي والإجتماعي والعنصر الفاعل في إرساء قاعدة التفاهم والمشاركة بين الوحدات السياسية والمجتمعية التي يتمثلها البناء الحديث للمملكة .. وكان بإمكانها أن تكون كذلك ، فقد كانت الأكثر تأهيلاً بين الوحدات للعب هذا الدور الخطير .

غير أن الذي حدث هو أكبر من النجديين نفسهم ، فقد أرادت لهم العائلة المالكة أن يكونوا أداة إلحاق وضمّ بل واحتلال ــ بمفهوم البعض ــ فأصبح البعض ينظر الى العلاقة معهم وكأنها علاقة بين السيّد المنتصر صاحب السلطة ، وبين المسود المنهزم في ساحة المعركة .

في كثير من دول العالم الحديثة ، قامت وحدات سياسيّة فُرضت بالقوة .. في المانيا على يد بسمارك مثلاً ، أو الولايات المتحدة نفسها التي خاضت حروباً أهليّة شرسة توّجت باعلان الولايات المتحدة .. لكن هدف هذه الحروب المعلن والأساس هو الإتحاد والوحدة التي تنصهر في داخلها الإنتماءات المتضاربة ، وتتداخل المصالح فيما بين أبنائها ، وتقوم على قاعدة تداول السلطة بشكل سلميّ ، مع الحفاظ على الخصائص الذاتية بقدر لا يتعارض مع الدولة ومفاهيمها .

ومثل هذه الحال لم تكن موجودة في المملكة . فأصل الوحدة كقيمة حضارية لم يكن مستهدفاً من قبل الملك المؤسس ، كان المستهدف بحق هو : توسيع رقعة السيطرة وزيادة موارد العائلة المالكة . فحتى الشعارات الأولية التي رُفعت كانت تطفح بذلك قبل أن تتحول الى الشعار الديني .. فالملك المؤسس كان يتحدث عن « عودة ملك الآباء والأجداد » .. فهل كانت الحجاز او عسير ونجران ، او الاحساء والقطيف من ملك آل سعود واجدادهم ؟ .

لقد كان المراد هو الملك وتوسيع رقعة سلطانه وبالأسلوب العسكري القهري ، ولم تأت الوحدة إلاّ بشكل عرضي ، إذ لم تكن هي المقصودة بذاتها .

ومن هنا حملت الدولة السعودية الحديثة معها بذرة فنائها .. فقد كان تحقيق حُلم العائلة المالكة في التوسّع ، مرتبطاً بأمرين :

الأول : نشوء عصبيّة نجديّة لها مطامح سيطرة وتوسّع يمكن أن تُستخدم كأداة في السيطرة ، ولما كانت العصبيّة النجديّة من الضعف بحيث لا يمكن لها مقارنة العصبيات

المحليّة في الحجاز والجنوب وربما في حائل نفسها .. أضيف لتلك العصبيّة عصبيّة مذهبيّة أخرى ، فأعيد تأكيد دور المذهب « الدعوة الوهابية » ونشأت حركة الإخوان كحركة عقائدية عسكرية تدعم العصبيّة النجدية ، وكأداة إلحاق وإخضاع وسيطرة لحائل وعسير وجيزان والحجاز .

الثاني : ان العلاقة التي نشأت بين العائلة المالكة وبقيّة المناطق التي ألحقت بنجد ، أصبحت علاقة إستتباع وضمّ وإلحاق .. علاقة العصبيّة الإقليمية والمذهبيّة المنتصرة ببقيّة العصبيات المنهزمة .. فإذا كانت هذه العلاقة هي أساس الوحدة ، وهي كذلك حتى الآن ، فإن ذلك يفسّر لنا سبب إستمرار الصراع بين المناطق والمذاهب والإنتماءات ، ويفسر لنا أيضاً لماذا لم يتم الإدماج الحقيقي بين المجتمعات السعودية ذات الخصائص المتنافرة ، بحيث أصبحت هناك شبه دول قائمة الى جانب الدولة « النجدية » .. ذلك أن علاقة السيّد بالمسود ، والمنهزم بالمنتصر لا تزال سائدة بصورة أو بأخرى .. ومن البديهي أن الحساسيّات بقيت وستبقى ، والنظرة الى نجد والخضوع الى سلطانها كان ولايزال مرهوناً بأمر واحد : القوّة العسكرية ، لا الإختيار ولا القناعة .

الذي حدث بعد سيطرة السعوديين على أقاليم البلاد المختلفة ، أن ما ترتّب على الوحدة القسريّة هو قيام علاقات سيطرة وتبعيّة وإلغاء الخصوصيّة السكانيّة لكل إقليم .

بديهي ، أن توحيد البلاد إذا كان مقصوداً ومستهدفاً بذاته ، كان يعني إتباع سياسات جامعة ، موحّدة ، وكان يستدعي إستخدام آليّات معيّنة في تركيز مفاهيم جديدة وإنتماءات ومصالح تعزّز الوحدة السياسية ، وتدمج إجتماعياً السكان بعضهم ببعض .. ولكن لأن الهدف كان منذ البداية هو تغليب عصبيّة إقليمية ومذهبية .. لأن الهدف كان إلحاق وإستتباع وسيطرة .. فإن السياسات التي إستخدمت عقب توحيد البلاد القسري ، ارتبطت أشدّ الإرتباط بتوابع السيطرة والإستئثار والتمييز .

من هنا يمكن القول ، أن المملكة حملت منذ اليوم الأوّل لتشكّلها بذور تفككها .. فالتوحيد السياسي للأقاليم المختلفة الإنتماء ، جاء بشكل عرضي ، وبقوّة السلاح . وبالتالي فإن الوحدة أصبحت رهينة الوسائل التي حققتها ، ورهينة الممارسات التي مارستها العصبة المنتصرة — التي كافأت نفسها على تحقيق الغلبة والإنتصار — ، ورهينة الظروف الإقليمية والدولية التي ساعدت على الضمّ والإلحاق .

وبكلمة .. الوحدة في المملكة رهينة « القوة » ، ولكن ميزان القوى بين الأقاليم في الوقت الحالي قد لا يخدم بالضرورة العصبة التي حققت الإنتصار قبل ستة عقود .. وقد لا يتيح الظرف الإقليمي والدولي التوسّع في إستخدام القوّة في مقاومة الدعوات الحادّة للإنفصال .

سياسة التنجيد وردّة الفعل

إذا كانت ظروف تأسيس المملكة قد استدعت — من وجهة نظر العائلة المالكة — سيطرة إقليم بتراثه الثقافي والمذهبي على بقيّة الأقاليم وطبعها بطابعه .. فإن المعاني السياسية والإجتماعية لهذا التغليب وتلك السيطرة طعنت في أهم الأسس الدافعة لبقاء الدولة واستمرارها .

فقد حقق مشروع « تنجيد » المملكة ، سياسة ومذهباً وتقاليداً .. نتائج عكسيّة ، ليست في صالح العائلة المالكة ، ولا في صالح قاعدتها السكانية التي تعتمد عليها .. بل ليست في صالح الوطن وأهله بشكل عام .

لقد عنى هذا بشكل أوّلي : بناء دولة « الخاصّة » ، ونقصد بها الدولة التي تحقق مصالح مجموعة من السكان ، وتتبنّى سياسات تراعي فيها مصلحة فئة إجتماعية متمذهبة وتعيش في نطاق جغرافي محدد .. مما جعل بقيّة السكان غير معنيين أساساً بهذه الدولة ، ولا ينظرون اليها كمؤسسة عامّة تخدم مصلحة المجموع ، ويتساوى فيها المواطنون .. بل أن قيم الدولة صارت ذات صفة محليّة مناطقية مذهبية طاغية ، وبالطبع فإن دولة كهذه قامت على أساس وحدة قسرية لن تنال الرضا في النهاية .

وعنت سياسة التنجيد أيضاً : الطعن في شرعية النظام السياسي القائم الذي تمثّله العائلة المالكة ، باعتباره ممثلاً لجزء من الشعب ، وبالكثير مقاطعة من مقاطعات الوطن وإقليم من أقاليمه ، هو على أيّة حال ليس أكثرها سكاناً ولا أهمها موقعاً ولا أغناها وأخصبها أرضاً .

وقاد هذان الأمران في مراحل لاحقة وبصورة لافتة للنظر ، وكرد فعل طبيعي من قبل السكان المضطهدين ، الى الحنين والإنشداد نحو الماضي ودولة الإقليم الخاصة التي كانت قائمة قبل استكمال بناء المملكة .. واعتبارها النموذج الذي يجب أن يُعاد وأن تُنفخ فيه الروح من جديد .. فجرى التأكيد أكثر فأكثر على الإنتماءات المحليّة ، وتسييس العلاقات الاجتماعية من أجل توظيفها في مشاريع سياسيّة : تبدأ بحماية الذات من جور السلطات ، وتطالب بالمشاركة في مصادر القوة والسلطة ، ولا تنتهي إلاّ بالدعوة الصريحة للإنفصال ، بعد أن أخفق النظام السياسي في تلبية الحاجات العامّة للسكان وطموحاتهم ، وبعد أن فشل أيضاً في تحويل الدولة من مؤسسة طائفية إقليمية الى مؤسسة وطنية عامّة جامعة يشترك الجميع فيها .

والنقطة الأكثر إثارة في هذا : هو أن عدم الإعتراف بسلطة العائلة المالكة كرأس للهرم السياسي القائم ، واعتبارها ممثلاً لجزء من السكان ، استدعى بشكل اوتوماتكي السعي بجد لإبراز زعامات سياسية ودينية مناطقية تنافس الزعامة الكبرى في مناطقها ، كما تنافس الزعامة الدينية الرسميّة .. ومثل هذه الأمور ستقود بشكل طبيعي مع مرور الزمن الى نموّ تجمعات سكانية لكل منها صفة التجانس بين افرادها ، تعيش على حاشية الدولة .. وبصورة أوضح قيام مجتمعات منفصلة كما لو كانت دولاً بحدّ ذاتها ، خاصّة وأن الإنشقاق يتسع شيئاً فشيئاً ليعبّر عن نفسه في لحظة تاريخية معيّنة ، بتهيئة مقومات الإنفصال التي هي في الوقت الحالي متوفرة بنسبة غير قليلة .

لقد قادت مجموعة السياسات التي انتهجتها العائلة المالكة منذ العشرينات الميلادية الى الدفع قسراً باتجاه الإنفصال ، وكانت عناصر سياسة الضمّ والإستتباع يجرّ بعضها بعضاً في عمليّة متسارعة .. ففي البداية لم يكن الهدف الخاص سوى الضمّ والسيطرة ، وتبعه بعد ذلك مباشرة ، سياسة التنجيد لحفظ المكتسبات ، وفي الوقت نفسه لم يكن التنجيد ممكناً إلاّ بتذويب الخصائص المجتمعية للأقاليم المهزومة ، وتذويب خصائص الأقاليم كان يعني فيما يعنيه « إفقاد العدو ! » من قواه الحيّة التي يمكن أن يستثمرها في الصراع ، وكان يعني أيضاً « الإحتفاظ » بالخصوصيات النجدية والتركيز عليها والتعامل على أساسها باعتبارها قوّة تضاف لعناصر السيطرة ، ولان التمسّك بها وتمتين اللحمة النجدية ، هو عنصر التفوق في الصراع الإقليمي ، وهو الذي قاد الى الإنتصار .

كان من الصعب على نجد ، بل مستحيلاً ، هضم التمايزات المختلفة ، ونقصد بالهضم : التذويب .. كان الحجاز على سبيل المثال أقسى من أن تتحمله المعدة النجديّة نظراً لحجمه السكاني وتراثه السياسي المستقل .. وكان من المستحيل أيضاً هضم سكان الشرق لأن المذهب والخصائص المحليّة السياسية وغيرها ، لم تكن قابلة للتطويع حتى وإن حقّق المذهب المنتصر نجاحاً عسكرياً وسياسياً باهراً .

هناك ملاحظة أخرى ينبغي الإلتفات إليها هي أن المملكة لم تتكون من مناطق ، وإنما من دول وإمارات شبه مستقلة سبقت قيام الحكم السعودي .. ففي الغرب كانت هناك دولة معترف بها دولياً ، وكانت هناك بعثات

دبلوماسية وسفارات ووزارات وأحزاب وبلديات وخدمات الدولة الحديثة .. وفي الشرق كانت هناك أمارة تتمتع بقسط وافر من الإستقلال الذاتي ، وفي نجد كانت هناك أمارة وعائلة قبليّة حاكمة من شمّر .. وفي الجنوب كانت هناك امارة أو امارتان للادارسة وال عائض شبه مستقلتين وتحوزان على اعتراف إقليمي ودولي في بعض الأحيان .. ومن هنا فإن وجود تراث سياسي إستقلالي في مناطق المملكة المختلفة ، يتغذّى على التمايز القبلي أو المناطقي او المذهبي أو حتى الإقتصادي والإجتماعي ، يجعل مهمّة حكم هذه المناطق صعباً للغاية ، خاصة وان ذلك التراث السياسي والديني والمذهبي والقبلي يبقى موضع مقارنة مع الوضع القائم ، ويبقى مغذياً لطموح السكان في أن تكون لهم الصدارة في حكم مناطقهم ، أو في المشاركة في حكم البلاد التي تأسست على أنقاض دولهم وأماراتهم .

لقد فشلت العائلة المالكة في تحويل الوحدة القسرية التي ابتنيت على أساس عصبيّة مذهبيّة إقليمية ، ووفق قاعدة الخضوع للمنتصر ، الى وحدة حقيقيّة قوامها الإندماج الوطني والإنتماء الحقيقي ، أو أن تحول وحدة « الضرورة » ، وهي وحدة القوة ، الى وحدة المصلحة والقناعة .. إذ أنها لو فعلت ذلك ، لكان بالإمكان اليوم تجنّب الكثير من هواجس القلق على مصير الوطن بأكمله .. ويبدو ان العائلة المالكة ، لم تكن مقتنعة أو متنبّهة الى هذا الموضوع حتى هذا الوقت المتأخر .. إنها في الأساس غير مقتنعة بأنّها وحّدت البلاد ، ودليل هذا هو التركيز اليومي في الصحف وأجهزة الإعلام على موضوع « الوحدة الوطنية » في بلد يفترض أن وحدته أضحت من المسلّمات التاريخية ، خاصة وأنه لا وجود لمعارضة علنيّة منظّمة تدعو الى الإنفصال والإنشقاق .. ومثل هذا الحديث قد يكون مقبولاً لو أنه كان في بلد مثل مصر حيث توجد فتنة طائفية ، أو كان في السودان حيث توجد حرب الشمال والجنوب .

ومما يؤكد الهوس التاريخي لدى السعوديين وخوفهم من الإنفصال : هو ترويج تلك الإشاعة التي راج سوقها عقب احتلال الكويت من أن جهات عربية تريد تمزيق المملكة وتقاسمها ، في محاولة لتوحيد الصفّ الداخلي ، وإن كانت النتيجة هي أن ذلك الترويج قد عمّق مشاعر الإنفصال بأكثر مما خدم قضية الإندماج .

المدهش هو أن الذي يخشى انفراط عقد المملكة السياسي والإجتماعي ، يمارس هو نفسه سياسة النقيض الضارّة بكلّ ما يؤمن به ، والتي قد تأتي على البنيان من القواعد .

كيف يمكن لدولة أن تحارب العصبيات المناقضة لمفاهيمها ، في حين أن أسسها وقيمها عصبيّة محليّة ؟ .. وكيف يمكن لدولة تسعى لتذويب الخصائص المجتمعيّة ولتأكيد الإنتماء الوطني العام الجامع ، أن تسمح لعصبية محليّة بتسويد هويّتها وتعميمها على المجتمع والدولة ؟ . وكيف يمكن محاربة الإنتماءات المتعددة بمنطق الإنتماء المحلي ، وليس وفق مباديء الدولة الجامعة ؟ .

إن خوف الأمراء السعوديين من انفراط عقد الوحدة حقيقي .. ليس إيماناً بالوحدة كقيمة حضارية ، وإنما خوفاً من ان تتبدّد مصالح الأقليّة المنتفعة من الوحدة .. ويكفي أن وحدة لا تدعمها مصالح جامعة للسكان ، ليست جديرة بالبقاء ولا تستثير أحداً للتمسّك بها والحفاظ عليها . بل والأكثر من هذا كلّه : إن دعاة الوحدة

فشلت العائلة المالكة في تحويل الوحدة القسرية التي ابتنيت على أساس عصبيّة مذهبيّة إقليميّة غالبة ، الى وحدة حقيقية قوامها المصالح والاندماج الوطني عبر المساواة

في المملكة اليوم وشديدي الحرص عليها هم : العائلة المالكة والفئة الإجتماعية المذهبية المناطقية التي تمثلها أو تمثل جزءاً منها .

وليس هناك من سرّ لهذا ، غير ان الوحدة إنما تعود بمنفعة خاصة على فئة اجتماعية قليلة .. بينما الأكثرية بدأت بعد انسداد الأفق ترى مصالحها ضمن جماعتها ومحيطها المحلّي الخاص ، وقد عوّضت عن ضعفها وحرمانها بزيادة الإلتصاق الشديد بين أفرادها وتبادل المصالح عبر الإطار المحلّي وليس عبر الإطار الوطني الجامع .. كما حاولت وتحاول أن تعوض عن روابطها بالنظام واجهزته بالإرتباط الإقليمي والمذهبي والعائلي وغيره .

وهنا .. لا يكفي أبداً ، أن تؤسس وحدة سياسية .. بل المهم جداً ، هو توظيف هذه الوحدة السياسية لخلق الإندماج الحقيقي والإنتماء الوطني وتوحيد المشاعر ، وتثميرها مصلحياً لعموم السكان ، وإيجاد مفاهيم جامعة وروابط تتجاوز الروابط التقليدية الطبيعية التي تنشأ في كل المجتمعات .

من المهم حقاً ، وهذا ما عجز عن فهمه الأمراء السعوديون ، العمل الدؤوب لترسيخ قيم الوحدة ، وإشعار كل مواطن بأن له مصلحة في بقائها واستمرارها ، دون أن تحرمه الدولة من روابطه الخاصة التقليدية والطبيعية والتلقائية .. وبقدر ما تنمو الولاءات والإنتماءات العامّة ، تتقلّص الإنتماءات الخاصة ، أو يضعف تأثيرها ، وتصبح مجرد غذاء روحي للذات ، وليس مصدر انشقاق وانفصال .

الوحدة يجب أن تبنى على المساواة وعلى أرضية قيم عامة تحوز رضا الأكثريّة ، وهذا يحتاج الى جهد خاص لسنين طويلة ، في حين أن الإنتماءات الخاصة لا تحتاج الى جهد لتثميرها .. بل هي موجودة من تلقائيتها .. وهي ليست ضارّة إلا بقدر ما يفشل النظام السياسي في وضع البديل الأفضل لها ، فلا أحد يتخلّى عن هويّته الخاصة ، الى هويّة جامعة ، إلاّ إذا رأى ان مصلحته وكبرياءه يتحقق عبر الأخيرة ، وإلاّ فإن المواطن ينكفيء على روابطه الخاصة وانتماءاته الذاتيّة ، ويوظّفها سياسياً لحماية نفسه ولإسترداد حقّه المضاع ، أو ــ إذا عجز عن ذلك ــ الدعوة لبناء دولته الخاصة به .

الهضم

أشرنا الى أن سياسة الهضم والتذويب التي اتبعها النظام السياسي في تأكيد سلطانه بعد الضم والإلحاق العسكري فشلت وأتت بنتائج عكسيّة ، ويرجع جزء من الفشل الى عمق الإنتماءات المحليّة ووجود تراث تاريخي وسياسي في مناطق البلاد المختلفة ، والى أن السياسات التي اتبعت كان ولا بدّ من أن تدفع بالمواطنين الى الإنكفاء على ذواتهم وخصوصياتهم بدل أن تخرجهم من أسر الإنتماءات الضيّقة الى الإنتماءات الواسعة . كما يرجع جزء من الفشل الى حرص النظام السياسي والدولة القائمة على صبغ نفسيهما بتلوينات طائفيةوعصبيّات جاهليّة .

ورغم الفشل الذريع الذي مُنيت به هذه السياسة ــ سياسة الهضم ــ وأخطارها المدمرة البادية للعيان .. فإن النظام السياسي الحاكم كان يجد صعوبة كبيرة في مجرد التفكير في اتباع منهج آخر يمكن من خلاله استيعاب صراع

الإنتماءات السياسي والإجتماعي أو المنافسات المناطقية والمذهبية ليقود المجتمع نحو حلول جزئية على الأقل ، أو يخفّف من حدّة المشاعر المتناقضة .

لم تكن العائلة المالكة متأكّدة من ولاء المناطق التي ضمّتها لسلطانها بالقوّة ، وكانت حسابات الملك المؤسس منطقيّة للغاية .. فلا يمكن لهذه المناطق أن تكون موالية للنظام الجديد ، أو تتقبّل نفسياً غلبة العُصبة النجدية بهذه السهولة والدماء لمّا تجفّ بعد ، فتمّ تعامل آل سعود مع هذه المناطق بصورة من صور الشكّ والريبة ، ولم يكن من المنطقي أن يتخلّى الملك عن قواه الذاتيّة التي توفرها له القاعدة النجدية والتي على أساسها وصل الى ما وصل اليه .. أو يساويها مع القواعد المجتمعية الأخرى غير مضمونة الولاء له .

كان الحلّ الوحيد هو « استيعاب » مختلف الإنتماءات ، غير أن الإستيعاب كان يتطلّب فهماً ومنطقاً مختلفاً عمّا هو سائد ، وكان يتطلب تقديم بعض التنازلات في سبيل الإندماج ، وكان يتطلب فيما يتطلب التخفيف من عصبيّة نجد المنتصرة وتقليص حجم الإمتيازات التي تحققت لها من ذلك الإنتصار العسكري ، وضرب المفاهيم السائدة لدى العائلة المالكة وغيرها — والتي لم تكن موجودةً في التجمعات الحضرية القديمة — التي تعطي للمنتصر كامل الحق ليس في الإستفراد بالسلطة فحسب ، بل وأيضاً اعتبار الأرض وما تحتها ومن عليها ملكاً له .

ومثل هذه المفاهيم أبعد ما كان يفكر فيها عليّة القوم النجدي ، يدلّنا على هذا أن الملك عبد العزيز نفسه ، كان أكثر الملوك السعوديين فهماً ووعياً لحقائق المجتمعات التي شكّل منها مملكته ، فقد حاول بقدر لا يتعارض مع سلطته أن يعطي للحجازيين نوعاً من الحكم الإداري الخاص بهم ، ووضع أنظمة تتماشى بقدر ما مع سيرورة تطور الوضع الإداري المتقدم في الحجاز .. بل أنه أوحى لبعض من أفراد حاشيته أن يكتبوا في جريدة القبلة — وهي الجريدة الوحيدة في مملكة آل سعود والتي سيطر عليها الملك وعلى مطابعها بعد احتلال الحجاز وسماها جريدة أم القرى — أوحى اليهم بأن يكتبوا ضد التعصّب المذهبي ، وأن الملك يحترم كل أتباع المذاهب الإسلامية ، وقد قيل يومها أن ما نُشر يستهدف طمأنة العالم الإسلامي القلق من سيطرة « الوهابيين » على الأماكن المقدسة .

لم يقبل رجال الدين النجديون ولا رجال القبائل وقادة الجيش الإخواني بسلوك هذه السياسة ، التي كانت إحدى مسببات ثورة الإخوان ، فلم يكن أمام الملك إلاّ ان يجاري التيار العام السائد في نجد .. فتمّ تدمير الأماكن الأثرية الإسلامية جميعها ، واصطدم الإخوان في إثارة متطرفة بالمحمل المصري وقتل الكثيرون ، ودمّرت بعض المساجد في الحجاز وبيوت بني هاشم والصحابة باعتبارها اماكن شرك وبدع ، وألغيت الدراسات في الحرمين الشريفين والتي يقيمها أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة ، وعطلت مدارس ونهبت المكتبات وغير ذلك .. وصدرت فتاوى شهيرة في تلك الفترة من علماء نجد ضد الحجازيين والشيعة في مناطق الشرق ، وطُلب منهم إعادة أسلمتهم على الطريقة السعودية الجديدة .

كان أعيان المجتمع النجدي يرفضون وبقوّة أن يتنازلوا عن المكاسب التي حققها لهم الإنتصار .

لم تكن العائلة المالكة متأكدة من ولاء المناطق التي ضمتها لسلطانها بالقوة فتعاملت معها بالشكّ والريبة ، ممّا ادى الى تهميش دور جميع المناطق عدا المنطقة الغالبة

لم يقبلوا إلا أن يسود مذهبهم وفكرهم ورجالهم ومنطقهم في الحياة على الغير .

لم يكن أمام الاخرين من مخارج حسنة لهذا الوضع .

المقاومة العسكرية الشعبيّة كانت يومئذ مستحيلة .. فالعصبة الحاكمة في أوج سلطانها وقوتها ، ولم تكن هناك قوّة عسكرية غير القوة النجدية التي كان الإخوان يمثلونها .. وكانت سطوة الملك المؤسس لا يقف أمامها رادع ، وتمتلك المسوغات للبطش بكل من يتحرّش بها .. وفضلاً عن ذلك ، فقد تمّت تصفية معظم القيادات المحليّة السياسية والعسكرية في المناطق التي تمّت السيطرة عليها ، وتوارى رجال الدين في تلك المناطق عن الأنظار ، بل أن كثيراً من علماء الدين في الحجاز اختاروا المنفى الإجباري لسنوات طويلة وفي أقصى مناطق العالم كأندونيسيا وماليزيا فراراً من الإضطهاد .

لم يبقَ سوى القبول بمنطق المنتصر : وهذا يعني التخلّي عن مقومات الشخصيّة ، دون تحصيل سوى القليل من المنفعة والقليل من المساواة .

أو : فرض العُزلة المجتمعية على الذات ، لصدّ الموجة القادمة بما تحمل من أفكار واستضعاف ، وتقوية الروابط التقليدية والإحتماء بكل ما يمثّل النقيض للعصبة الحاكمة .. وهذا ما أخذ به المجتمع الشيعي في الشرق في ردّة فعله التلقائيّة ضدّ ممارسات العائلة المالكة وقاعدتها المذهبية والفكرية .

أمّا الحجازيّون فقد أمسكوا بالعصا من الوسط .. وحاولوا قدر الإمكان التداخل والحصول على نصيب من الشراكة في الحكم ، وفي نفس الوقت التمسّك قدر ما يمكن الأمر بالخصوصيات المحليّة ، ريثما تتغيّر الأحوال .. ويبدو أنهم كانوا مطمئنين بقدر ما الى أنّ تذويبهم بالكامل من المستحيلات ، نظراً لتراثهم الخاص وعددهم ومكانتهم في المجتمع والدولة الجديدة .

هويّة لم تولد بعد

لم يؤكد المواطنون بشتّى أصنافهم ، سواء كانوا من الدرجة الأولى او الثانية أو الثالثة ! ! ، على هوياتهم المحليّة والفئويّة قبال مشروع وطني موجود على الأرض ، أو قبال هويّة وطنيّة أو قاعدة تضامن وطني متفق عليها ويجري التعامل على أساسها .. ذلك أن هذا المشروع وهذه الهوية أو القاعدة لم توجد في الأساس ، ومن الصحيح القول أن المشاريع الفئوية إنّما ولدت « في وبسبب » غياب المشروع الوطني الجامع ، مما جعل العوامل الدافعة نحو الوحدة أضعف بكثير من عوامل الشدّ المناطقية والمذهبية .

إن « الطائفية ، والمناطقية » في المملكة لم تطرحا في يوم من الأيام باعتبار هما النقيض لكل القيم الوطنيّة ، بل طُرحتا كرد فعل على طائفيّة النظام وتمثيله المناطقي .

إن المملكة تعتبر نصف إمبراطورية ، ليس قياساً بحجمها وثرواتها فحسب ، وإنما أيضاً لكونها تتشكل من مجتمعات شديدة الخصوصية ، قامت على أساسها دول .. والمملكة شأنها شأن أي بلاد في العالم ، تحفل بالإنتماءات المجتمعية الخاصّة ، ولكن ما يميّزها أن الإنتماء العام المشترك بين أبنائها ضعيف للغاية ، وبنيانها يعاني من نقص حاد في

الإنصهار والإندماج ، أحد أسباب ذلك أن مشروعاً وطنيّاً لم يولد بعد ، وهويّة جامعة لم تتبلور ، وإحساساً بالجماعة والمصالح المترتبة عليها لم يُخلق بما فيه الكفاية .. وهذا يعود في جانب منه الى أن نشأة المملكة هي نشأة حديثة ولا تحسب من الدول القديمة ذات الأصول الراسخة ، وهناك سبباً مهماً آخر للمعضلة هو : تكلّس النظام السياسي وتصلّب شرايينه ، فلم تعد لديه المرونة الكافية لإيجاد حلّ بعد ثمانين عاماً من الولادة .

ومن البديهي في مثل هذه الأحوال والأوضاع أن نرى في المملكة مجتمعات تتعايش الى جانب بعضها البعض ، محاطة بنظام سياسي جامد يصنع سياسات تمنع من تواصلها وتعيق اندماجها .. ولم يكن مستغرباً بعد هذا كلّه : أن يعتبر الحجازي نفسه حجازياً قبل أن يكون سعودياً ، وينطبق ذات الأمر على النجدي والأحسائي والقطيفي .

إن النظام في المملكة لم يتحول من نظام وطني الى نظام طائفة أو فئة .. ذلك أن النظام نفسه ولد طائفياً عصبوياً ، فالطائفية الجهويّة هي التي صنعت بقواها الدولة واستحوذت عليها .. والنظام الحاكم هنا لم يدعم نمو العصبيات المناقضة للدولة جميعها ، بل وظّف أحدها في مشاريعه السياسية ، وكانت الأزمة كلّ الأزمة تكمن في عدم قدرته على التحوّل الى نظام عام فينطلق من الرحم الذي احتضنه ، وإذا كانت هناك مخاوف لدى العائلة المالكة من أن يكون الوليد غير قادر على النمو في المناخ الجديد ، فإن هناك خطر جدّي إذا ما تأخرت الولادة ، فينفجر الرحم بمن فيه .

ومما عقّد المشكلة أكثر ، هو أن بقاء النظام الطائفي بصورته القديمة ــ الجديدة لم يعد ممكناً ، ذلك أن استمراره على قاعدة التوازنات السكانيّة والمناطقية والمذهبية التي اعتمدها منذ قيامه وفي مرحلة زمنيّة معيّنة قد تغيّرت ، بل أن الظروف الإقليمية والدولية التي سمحت للعائلة المالكة السعودية بأن تبني ملكها ومملكتها تغيرت هي الأخرى .. ولا بدّ من مواكبة التغييرات النفسية والفكرية والمادية التي تغيّرت طيلة السنوات الطويلة الماضية ، إذا ما أريد للوحدة أن تبقى .

إن المجتمعات المتنافرة في المملكة .. أو لنقل ذات الخصوصيات المختلفة لا تسير في اتجاه تصاعدي نحو الإندماج والإلتحام ، بل تسير في اتجاه معاكس لذلك تماماً ، وهذا ما يثير القلق حقاً .

ولربما جادل البعض ، بأن الفترة الزمنيّة التي أعقبت توحيد المملكة من الناحية الفعليّة ، شهدت بعض الميل والحماسة من قبل السكان الحجازيين والشيعة للإنصهار في بوتقة جامعة ، يحدوها الأمل بالبدء في مرحلة جديدة قوامها العدل والمساواة وتقلّص النفس الطائفي المتشدّد ، خاصّة عقب انهيار قوّة الإخوان ، وتصفيتهم في مطلع عام ١٩٣٠ .. لكن هذا الأمل سرعان ما تبدّد ، وانبعثت آمال أخرى انهارت هي الأخرى ، وكان آخرها : الوحدة والإنسجام الذي بدا أثناء أزمة الغزو العراقي للكويت وتعرّض المملكة للخطر ، الأمر الذي ولّد انسجاماً وشعوراً بالإنتماء الى وطن واحد وإجماعاً على الدفاع عنه مهما كان الخلاف حول النظام السياسي نفسه أو حول المسائل الإقليمية والمذهبية .. كان الأمل كبيراً بأن يتمّ تغيير حقيقي في أوضاع البلاد بعد أن تنتهي الأزمة ، ولكن خابت الآمال جميعها ، فارتدّ المواطنون

لم يتحول النظام في المملكة من نظام وطني الى نظام طائفة او فئة .. ذلك ان النظام نفسه ولد طائفيا فئويا ، وترفض العائلة المالكة الخروج من شرنقة الإقليم والمذهب لتمثل البلاد بكل أقاليمها وشعوبها

محبطين الى ولاءاتهم القديمة وعصبياتهم المفرّقة ، ولم يعد النظام القائم معبراً عنهم ، وهذا يفسّر بنحو جزئي سرّ الدعوات الإنفصالية التي راجت خلال العامين الماضيين ، أو بالأصح خلال الفترة التي أعقبت أزمة الخليج .

هناك أمر آخر يجب الإلتفات إليه ، هو أن الدعوات الى الإنفصال ، أو الشعور بالحاجة إليه ، كان يترافق دائماً مع فترات التشنّج التي تعيشها البلاد ، وفي الغالب أيضاً : فإنه كلّما تصاعدت حمّى السلفيّة النجديّة ، رافقها التمييز المتشدّد بين المواطنين ، ورافقها دعم النظام السياسي لها أو مجاراتها خوفاً منها ، فيتبعها كرد فعل تمحور حول الذات من قبل الآخرين طلباً للأمان النفسي بين أفراد جماعتهم وأبناء طائفتهم ، وخوفاً من الإستلاب والضياع .. فضلاً عن أن التشبّث بالإنتماءات الجزئية هذه هي الوسيلة الدفاعية الوحيدة التي يمكن للمواطن بواسطتها الوقوف أمام طغيان القهر ، وهي الوسيلة الوحيدة المتاحة للمواطنين كي يعبّروا عن مطامحهم السياسية والتي قد تأتي لهم في المستقبل بحقوقهم في المشاركة السياسية .

هناك من يقول بأن حلم الحجازيين بإقامة دولة مستقلة كما كان لهم ذلك من قبل ، ليس أمراً جديداً .

وهناك من يقول بأن إمكانيّة تحقيق ذلك الحُلم في الظروف الحاضرة أمرٌ صعبٌ للغاية ، خاصّة وأن اختراقات مذهبية وتغييرات سكانيّة قد حدثت خلال الـ ٦٥ عاماً الماضية في غير صالح الحجازيين .

وهناك من يقول بأن معاناة الحجازيين أقلّ من غيرهم « الشيعة في الشرق على وجه الخصوص » ، خاصة وأن النظام استطاع إشراك جزء من النخبة الحجازية في الحكم ، وأن مصالح دعاة الإنفصال أو الإستقلال ــ حسب موقفك ــ أنفسهم مرتبطة بالوحدة ، ليخلص من ذلك الى نتيجة أن الإنفصال أمرٌ مستبعد .

مهما تكن التوقعات .. فإن لحن الإنفصال يُدمي بعزفه علناً ، وهذا اللحن سواء كان في الحجاز أو غيره يجد آذاناً صاغية ، باعتباره لحناً شجيّاً يحرّك أوتار القلوب ، وإن بدا أنه يخالف ما يأمر به العقل .

أصبح حديث الساعة حول الإنفصال ، ليس باعتباره مبرراً أم لا ، ولا ينصبّ الحديث حول جدوائيته أو أخطاره المحدقة وهي كثيرة ، ولا عن سُبل تلافيه ومنعه .. بل أصبح الحديث حتى من الأمراء الحاكمين يدور حول : هل يمكن حدوث ذلك في الوقت الحاضر أم هو موضوع مؤجّل ؟ ! .. وهل القوّة العسكرية الظاهرية قادرة على إخماد أيّ حركة إنفصال أم لا ؟ .

ويبدو أن العصبة الحاكمة مطمئنة في الوقت الحالي الى وضعها .. وكأنّ صيحات الإنفصال لا تعني شيئاً ذا بال ، طالما أن موازين القوى العسكرية في صالحها ! .

شركاء أم فرقاء

من الواضح تماماً لكلّ من تسنّى له الإطلاع على تاريخ تأسيس المملكة ، أن الصراع بين أقاليم المملكة المختلفة الإنتماء والثقافة وربما التاريخ والخلفيّات الإجتماعية والإقتصادية ، إنما كان يدور حول أمر واحد : السلطة وما يتبعها .

كان كلّ إقليم من الأقاليم يمتلك خاصيّة من نوع ما .. نقطة قوّة في الساحة السياسيّة .. أو تميّزاً من نوع ما يعوّض نواقص في جوانب أخرى ، بحيث جاء تشكيل المملكة من نوع شبه فريد .

ان المملكة لا تحكمها أكثريّة سكانيّة تمثّلها نجد أو الحجاز .. لأن أيّ إقليم من أقاليم المملكة لا يشكل سكانه أغلبيّة مطلقة .. ليس هناك إقليم يصل سكانه الى نصف سكان المملكة .. مما جعل البلاد أشبه ما تكون بأقليّات تتعايش مع بعضها البعض .

الجنوب تتواجد على أرضه كثافة سكانيّة عالية ، وهذه نقطة القوّة الحقيقيّة في الإقليم .. ولكنه في مقابل غناه البشري ، يعاني نقصاً في الموارد الإقتصاديّة ، رغم أن إمكانيّاته الزراعية ليست قليلة .

والحجاز الذي تسكنه كتلة بشريّة غير قليلة ، يستقي قوّته وتميّزه من وجود الأماكن المقدسة في أرضه ، ومن التأهيل المدني العالي الذي حازه أبناؤه منذ وقت مبكّر ، ومن وجود تراث سياسي واجتماعي استقلالي شديد القوة والفاعلية ، عوّض عن ضعف تحصينهم المذهبي المتمايز عن الدعوة النجدية .

أما نقاط القوّة لدى سكان الأحساء والقطيف ، والذين لا يزيد عددهم عن ربع السكان وفق أعلى التقادير ، فهي أن مناطقهم كانت من أغنى مناطق الجزيرة العربية ولاتزال .. فقد كانت مواردها تشكّل أغلب إيرادات الدولة منذ استيلاء الملك عبد العزيز عليها عام ١٩١٣ .. فبعد أن كان مدخولها الزراعي يغطي حاجات البلاد جميعاً ، ظهر النفط في تلك الأراضي مما أعطاها قيمة مضاعفة ، خاصّة وأن ميناءي « القطيف والعقير » كانا على الدوام رئة البلاد التي تتنفس بها .

الجانب الآخر الذي يمثّل عنصر قوّة لدى سكان الشرق الشيعة ، وجود انتماء جامع تشكّله القاعدة الفكريّة للمذهب الشيعي الجعفري ، الذي كان عامل تحصين ضد الإختراقات السياسيّة .

أما عوامل القوّة في نجد ، فيمكن حصرها في قدرة المذهب « الدعوة السلفية » على توحيد القاعدة النجدية من قبائل وعوائل ، واعطائها فكراً جامعاً ، وانتماءاً عاماً .. ثم ان هناك ما يحفظ نجد موحدة وهو وجود مصلحة شبه جامعة تحققت بسبب انصهار الدولة في البوتقة النجدية .

عنصر الضعف المهم ، هو أن نجداً فقيرة الموارد ، ورغم وجود امكانات زراعية في بعض مناطقها إلا أن استثمار هذه الإمكانات بحاجة الى توظيف رأسمال قوي . والأكثر من هذا فإن نجداً لا تمتلك أيّة إطلالة على البحر ، وهو عنصر نقص خطير ، مما يجعلها تحت رحمة أمارات أو دول الساحل .

إن خصائص الأقاليم مجتمعة تسدّ النقص في كل واحد منها ، وتكسب الوحدة القائمة قوّة حقيقيّة في الساحتين الإقليمية والدوليّة .

لا يمكن للوحدة القائمة بين الأقاليم أن تبقى في غياب النفط ، فقد كانت عائدات النفط « لحمة الكيان السعودي » على حدّ تعبير نذّاف سفران .

ولا يمكن للمملكة ان تنال مكانة حقيقيّة في العالم الإسلامي بأجمعه في غياب الثقل الديني الذي تمثّله المقدسات الإسلامية في الحجاز .

وبالقطع فإن نجداً تمثل الأداة السياسية الجامعة ، وتضمّ عنصر القوّة العسكري ، والسياسي في الكيان القائم .. في حين رفد الجنوب مختلف قطاعات الدولة بالعديد من أبنائه .

لا تحكم المملكة اكثرية سكانية تمثلها نجد او الحجاز .. لأن اي اقليم من اقاليمها لا يشكل سكانه أغلبية مطلقة ، الأمر الذي جعل البلاد أشبه ما تكون بأقليات تتعايش الى جانب بعضها البعض

الخلل لم يكن في تشكيلة البلاد هذه .. وإنّما في نمط العلاقة بين الأطراف المشكّلة للوحدة .

لم تكن العلاقة ــ بسبب ظروف نشأة المملكة والتي استعرضنا جانباً منها ــ علاقة شراكة في الحكم ، تتقاسمه أقليّات .. بل حكمت السيطرة والإستتباع والإستئثار العلاقة بينها وبين مركز الثقل السياسي والعسكري ــ نجد ، مما جعل الصراع بينها في عهد الوحدة استكمالاً للصراع الذي كان قائماً قبلها .

لقد أصبحت الأقليّة الإجتماعيّة التي تمثّلها نجد ، هي الأكثريّة السياسية في الدولة الجديدة ، بل كانت هي الدولة في واقع الأمر ، الأمر الذي ولّد شعوراً بالغبن والحرمان لدى المناطق الأخرى ، خاصة بين سكان الشرق الشيعة الذين فرضت عليهم الظروف التي صنعها النظام العيش في عزلة شبه مطلقة عن الدولة وتوابعها ، وقد جاءت تلك العُزلة اضطراراً وفي نفس الوقت تعبيراً عن مدى شدّة القمع .. كانت الدولة تستهدف تجريد المواطنين الشيعة من عناصر القوة والتمكين ، وجعلهم جزءاً ملحقاً لنجد .. ومن المثير حقاً ان مناطق الشرق كانت تُعرّف بأنها من « ملحقات « نجد و « توابعها » ، وذلك بعد عامين فقط من الإستيلاء عليها ، وبعد توقيع اتفاقية دارين / القطيف بين المقيم السياسي في بوشهر السير بيرسي زكريا كوكس ، وبين الملك المؤسس عبد العزيز في عام ١٩١٥ ، وبقيت مقاطعتا الأحساء والقطيف ملحقتين رسمياً بنجد حتى إعلان توحيد المملكة في عام ١٩٣٢ ، وكان الملك السعودي قد تسمّى في عام ١٩٢٢ بـ « سلطان نجد وملحقاتها » وحين اعلنت نجد مملكة في عام ١٩٢٧ ، أصبح لقبه « ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » .

نعم كانت الأحساء والقطيف ، ومن وجهة نظر الأمراء السعوديين مجرد تابع ملحق ، لها وظيفة محددة تؤديها ، وهي مدّ نجد بعناصر القوة المادية « الزراعية أولاً ، ثم النفطية » .

لقد ظهرت الدولة الوليدة بمظهر المحطّم لكل خصوصيات السكان الذاتيّة ، حيث أعلنت الحرب الشعواء على الجميع .. لكن هذه الدولة نفسها قوّت الخصوصيّة النجدية وسمحت لها بالنمو والتوسّع لتكون الهويّة الجامعة للدولة .

وكأن الملك عبد العزيز وأبناؤه وحفدته يريدون تكرار تجربة التوحيد الفكري والسياسي للقاعدة النجدية ، وهي تجربة فريدة ومتميّزة ونموذجيّة ، وتطبيقها على بقيّة المناطق .. دون الإلتفات الى أن التطبيق شبه مستحيل لأن التجربة النجديّة تجربة محليّة لها ظروفها الموضوعية الخاصّة بها .

كانت أمام الملك عبد العزيز فرصة تاريخيّة بعد امتداد حكمه الى الحجاز ، ليبدأ بعد ان اخذ الضم والإستيلاء على المناطق مداه عبر حروب مذهبيّة كانت تستهدف بشكلها المعلن سيادة دعوة دينية « الوهابية » ، وبشكلها المستتر الباطني أهدافاً ماديّة دنيويّة بحتة .. كان بإمكانه البدء ــ وبعيداً عن الشعارات التي رفعها بشأن توفير الأمن والإستقرار ــ بسلوك منهج جامع يحتوي كل الإنشقاقات .. لكن غرور الإنتصار ، وتركيبة الحكم القبليّة ، وتغليب المصالح الذاتيّة الأنانيّة ، حال دون تحقيق ذلك الأمر ، واستمرت الحرب الفئويّة عنيفة جامحة ، شارك فيها حتى أولئك الذين لا يهمّهم أمر الدين من قريب أو بعيد .. لقد استخدمت الطائفيّة والمناطقيّة وسيلة من وسائل احتكار السلطة والصراع عليها .

إن النجديين لا يتحركون سياسياً بمنطق فردي ، بل كحزب سياسي ، ينتمي إليه كل أولئك المؤمنين بتسويد نجد مذهباً وفكراً وسياسة وعسكراً ، وكل أولئك المنتمين بالولادة الى هذه المنطقة ، وكل أولئك الذين تتوفر لديهم مشاعر التضامن وضرورة الحفاظ على المكتسبات التي هي في اليد ، ومواجهة العصبيّات المنافسة في الأقاليم الأخرى .

ولا يشذّ الشيعة في الشرق ولا الحجازيون في الغرب في تحرّكهم كحزب عن النجديين .. فهم في واقع الأمر يتحركون كحزب أو أحزاب معارضة ، قبالة الحزب النجدي الحاكم ، وينضوي تحت لواء احزاب المعارضة ، بمعناها المناطقي والمذهبي ، كل أهل ذلك المذهب وتلك المنطقة ، يعزّز نشاطهم الشعور الجمعي بالحرمان ، والدفاع عن الذات ، لأن التقسيم القائم في البلاد بقدر ما جعل هناك جماعة حاكمة ، دفع الى الزاوية الحرجة الجماعات الأخرى ، والتي لا يشفع لها وعيها ولا مكانتها ولا كفاءتها في إيقاف الضرر النازل بها ، لمجرد كونها تنتمي الى جهة غير حاكمة .

إن التنافس أو الصراع القائم بين المناطق هو تنافس في حقيقة الأمر على السلطة .. وإن بروز الإنتماءات وتعمّقها الشديد ، يستهدف في حقيقة الأمر توزيعاً أو تقاسماً عادلاً للسلطة ، وللثروة في آن واحد .

لقد أقصي عن السلطة بشكل مطلق ومنذ البدء أهل الشرق والجنوب ، ويشعر الحجازيّون أنهم شركاء دونيّون فيها ، ويرون أنّهم يستحقون أكثر ممّا في أيديهم من سلطات شكليّة .

في حين أن من بيده السلطة لا يريد أن يتخلّى عن قليل ممّا في يديه .. إمّا بحجج مذهبيّة ، أو بحجّة وضع اليد ، أو لأن ما في اليد قد أخذ بجدارة أو هو من حقّ المنتصر .

وللأسف فإن الطبقة العليا من مثقفي نجد تشعر بأن الحكم في يدها بصورة شبه كاملة ، رغم أن العائلة المالكة هي في الواقع التي تستحوذ على كل ذلك ، ومن المؤكّد أنها لا تعبّر عن كل النجديين ، ولكنها في الوقت نفسه أعطت وتعطي شعوراً لديهم ولدى بقيّة المواطنين ، بأن أمراءها زعماء نجد وممثليها دون غيرهم .. وهذا ما أعطى الحكم والعائلة المالكة صفة محلية خالصة ، مما جعل شرعيتها مختلّة الى حدّ كبير ، فالشرعية إنما تعتمد على ولاء المجموعات السكانية التي تتشكّل منها المملكة ، لكن الأمراء يصرّون على تمثيلهم منطقة دون سواها ، ولم يقبلوا حتى أن يكونوا محايدين في عمليّة التنافس بين المناطق ، إذ لو فعلوا ذلك ، لكانوا أقدر على الإدّعاء بتمثيل مناطق المملكة جميعها ، وبأنها موالية لهم .

ولقاد هذا الأمر بصورة طبيعية الى توفّر حريّة واستقلال نسبي للجماعات والطوائف المذهبيّة والمناطقية ، ولأتيح لها التعبير عن خصوصياتها المحليّة في إطار من التعايش الهادىء والسلمي ، ولنمت بذرة الولاء السياسي للوطن وللجماعة السياسية ، ولقاد في مرحلة لاحقة الى توزيع أكثر عدلاً للسلطة والثروة ، لأن نجداً ستكون حينها لاعباً أساسياً ، وليس اللاعب الأساسي ، ولكان النظام أقلّ قدرة في توظيف العصبيات المذهبيّة والمناطقية لصالح العائلة المالكة دون غيرها ، إذ أن تلك العصبيات ستكون حينها ضعيفة في مقاومة دعوات الإصلاح والتغيير ، وستساهم نجد بصورة أكبر مما هي عليه الآن في هذه العمليّة لانها ستتحرك بمعزل عن العائلة المالكة نفسها ، وستفرز قيادات أخرى بديلة لها .

إن العائلة المالكة تظهر بوجهين ، فهي تتحدث للنجديين باعتبارها ممثلة لهم وحدهم ، وأنها القيّم على مصالحهم والمدافع عن تلك المصالح قبال المنافسات المناطقية الاخرى .. انها تريد أن تقول لهم بأن مصالحهم مرهونة ببقائها هي في سدة الحكم .

وفي نفس الوقت تظهر العائلة المالكة الوجه الآخر في حديثها للمواطنين الآخرين ، فهي تؤكّد هنا مسألة الوحدة الوطنيّة ، وأنها من نتاجها ، وأنها الأب الأكبر .. وعادة ما تقاوم المختلفين معها من أهل المناطق الأخرى بسلاح « الوحدة » وتتهمهم بتعكير الأمن وتهديده ، ومحاولة النيل من الإستقرار .

لقد أصبح الشعار الجامع « الوحدة الوطنيّة » مجرّداً من أيّ مضمون حقيقي ، إنه مجرد سلاح بيد العائلة المالكة ضد أولئك الذين ينادون فعلاً بالعدالة والمساواة بين المواطنين كخطوة لا بدّ منها للحفاظ على الوحدة السياسية القائمة ، وترسيخها وتطويرها باتجاه إيجاد هويّة جامعة تتجاوز الولاءات الصغيرة .

إن العصبيّات التي نتحدّث عنها لا يعفّ ولا يكفّ أحدٌ عن استخدامها .. العائلة المالكة تستخدمها لتأكيد سلطانها واستبدادها ، ولتكتيل الجمهور النجدي خلفها وإن كان حظّه منها ليس كثيراً في الواقع . في حين ان المعارضة تستخدمها كسلاح سياسي لمقاومة ذلك الإستبداد والتفرّد .

إن الخطوة الأساسيّة في الحل هي : إعادة توزيع السلطة ــ الشراكة السياسية ــ وتحويل الدولة الى دولة الجميع ، تفرض التساوي بين المواطنين ، وتفسح المجال للتعبير عن الهويّة الذاتيّة أنّى كان شكلها شرط أن لا تتجاوز المحرمات الوطنيّة .. لكن هذا الحلّ يبدو صعب المنال في الوقت الحاضر .. إذ أن مجرّد الإعتراف بحقوق المواطنين في المناطق الأخرى للمملكة لم يتحقق .. فهم غير مسلمين أساساً من وجهة نظر المذهب الحاكم وأتباعه ، وهناك من يدعو بشكل دائب الى قتلهم أو قتل بعضهم ونفي الآخرين .. ومن المحرّم على أيّ منهم التعبير عن خصائصه المجتمعيّة .. وإذا كان الوضع في هذا الوقت بمثل هذا السوء ولم تتحقق حتى الخطوة الأولى بعد مرور سبعة عقود على توحيد البلاد ، فإن الدعوة الى الشراكة السياسية تعتبر ضرباً من الخيال .

ولأنها كذلك برأي الكثير من القيادات المحليّة والمذهبية الأخرى .. لأن العائلة المالكة يصعب عليها القبول بحلّ يجرّدها قليلاً أو كثيراً من صلاحياتها ــ حتى وإن كانت إسميّة وشكليّة ــ ، وحتى لو كان ثمن هذا التنازل الإبقاء على الوحدة والإستمرار على رأس السلطة .. ولأنّ إصلاح النظام من وجهة نظر سكان المملكة يعني بشكل محدّد : إعادة توزيع مراكز القوى والقرار ، وإشراك أكبر عدد من أبناء المناطق الأخرى فيه .. ولما فشل النظام في تحقيق هذا الأمر ، من خلال ما سنّه من أنظمة حكم أعلنها الملك فهد في الأول من مارس الماضي .. زادت وتيرة الدعوات الى الإنفصال ، وقد عبّر عن خيبة الأمل بالإصلاح زعيم حجازي بقوله : لا يوجد أملٌ في إصلاح النظام ، والحلّ الوحيد هو في الإستقلال ! .

لو أقرّ مبدأ الشراكة حتى وبصورة غير علنيّة ، كأن يكون من المتعارف عليه أن يكون الى جانب الملك النجدي ، رئيس وزراء حجازي ، وأن يكون للشيعة تمثيل في الوزارة بنسبة عددهم ومكانة منطقتهم ، وكذلك في مجلس الشورى ، وهكذا بقيّة المناطق .. إذن لشعر المواطنون العاديّون بأنّهم معنيون بهذا النظام ، وهذه الدولة ، ولكان شعورهم بالغبن والإحباط قليلاً أو منعدماً .

ليس هناك من خيار : فإمّا أن تكون هناك شراكة في الحكم بين الجماعات التي تكوّن الدولة ، وإلاّ فإن البديل هو الإنفصال والعودة الى عهد التجزئة القديمة .

أمران ، أو خياران أحلاهما مرّ بالنسبة للعائلة المالكة .. ولكن لأن طبيعة السياسة المنتهجة بطيئة التحرّك وتراهن على عنصر الزمن ، فإن الخيار يبدو باتجاه الإنفصال .

قد يكون تأجيل حلّ المشكلة مفيداً لو أن هناك خطّة تتبع ومنهجاً جديداً يجري الإعداد له للتغلّب على المصاعب .. أمّا الزمن في حدّ ذاته فإنّه لا يفكّك المشكلة بل سيفاقمها الى الأسوأ ، وشواهد التاريخ الحديث للمملكة أكبر دليل على ذلك .

السُبُل الممكنة لمواجهة العجز السنوي في الميزانيّة العامّة للدولة

■ في معظم الدول ، تمثل الضرائب المختلفة المفروضة على القطاع الخاص جزءاً كبيراً من ايراداتها . وعلى العكس ، فالضرائب في المملكة السعودية تمثل مقداراً بسيطاً جداً من مجمل الايرادات الحكومية ، فخلال الفترة ١٩٧٠ ــ ١٩٨٣ شكلت ايرادات الزيت حوالي ٨٥ الى ٩٨ بالمائة من الدخل الحكومي الكلي (١) . أما في عام ١٩٨٨ م فقد تناقصت نسبة ايرادات النفط الى الايرادات الكلية الى ٦٨,٩ بالمائة . لقد ازدادت ايرادات الدولة من النفط بشكل كبير جداً في عام ١٩٧٤ واستمرت هذه الايرادات في التزايد بوتيرة متسارعة نتيجة لارتفاع أسعار النفط ، حتى وصلت الى ٢٦١,٥ مليار ريال في عام ١٩٨٠ ، أي بزيادة قدرها ٩٠ بالمائة عما كانت عليه في عام ١٩٧٩م ، ثم بدأت هذه الايرادات بالتناقص تدريجياً منذ عام ١٩٨٣ .

لقد أجبر تذبذب أسعار النفط في السوق العالمية وتناقص ايراداته بعد عام ١٩٨٢م ، أجبر المخططين السعوديين على اعادة النظر في استراتيجيات التنمية الاقتصادية طويلة المدى ، ففي عام ١٩٨٨م ، وبدلاً من التركيز على معدلات نمو اقتصادية عالية ، وتنويع القاعدة الاقتصادية ، وتحسين المستوى المعيشي .. كان تركيز الحكومة وهمها الاكبر مركزاً على كيفية الاستفادة القصوى من ايرادات النفط المتناقصة ومواجهة احتياجات أغلبية السكان الاساسية . من ناحية ثانية ، ازدادت محاولات السيطرة على الانفاق خاصة فيما يتعلق بالقطاع الحكومي من الاقتصاد ، حيث خفضت الحكومة معدل ازدياد نفقاتها السنوية (٢) .

لقد كان القطاع العام هو العنصر الاساس في الاقتصاد السعودي ، خاصة في عقد الطفرة النفطية ما بين ١٩٧٣ ــ ١٩٨٣ ، فخلال هذه الفترة ، سيطرت النفقات الحكومية على كل نواحي الاقتصاد عندما ازدادت بنسبة ١٥٠٠ في المائة ، من ٢٢,٨ مليار ريال « ٦,٠٨ مليار دولار » في عام ١٩٧٣ ، الى ٣٤٠ مليار ريال « ٦٤ مليار دولار » في عام ١٩٨٢ ، قبل أن تبدأ بالتناقص في السنة التالية (٣) .

لقد أدى النقص في الانفاق الحكومي الى انكماش اقتصادي حاد ، خاصة في عام ١٩٨٦م عندما تناقصت ايرادات النفط بحوالي ٣٨ بالمائة ، أي الى ٨٨ مليار ريال ، وكان نتيجة ذلك انخفاض الناتج المحلي الاجمالي بزيادة ١٢ بالمائة ، بعد انخفاضه بنسبة ١٣ بالمائة في السنة السابقة . لقد أدى عدم القدرة على توقع مقدار ايرادات الدولة ، الى وضع الحكومة في موقف حرج بالغ ، أدى الى تأخير اصدار الميزانية السنوية لتلك السنة (٤) .

إن الازدياد الحاد في عجز الميزانية يوضح مدى التناقض الحقيقي في الايرادات العامة المتوقعة والذي لم يجاره نقص مماثل في انفاق الميزانية . ومن ناحية اخرى هناك بعض النفقات تعتقد الحكومة أن تخفيضها صعب جداً مثل الدفاع والامن . فمثلاً كانت ميزانية عام

جـــدول رقم ١

الايرادات والانفاقات الحقيقية (١٩٨٣ – ١٩٨٨) ببلايين الريالات

–	٨٤/١٩٨٣	٨٥/١٩٨٤	٨٦/١٩٨٥	١٩٨٦(أ)	١٩٨٧ (ب)	٨٨ (ب)
مجموع الايرادات	٢٠٦,٤٠	١٧١,٥٠	١٣١,٥٠	٧٤,٢٨	١١٧,٣٠	١٣٣,٢٠
ايرادات الزيت	١٤٥,١٠	١١٩,٠٠	٨٧,٧٠	٤١,٩٠	٧٩,٣٦	٦٨,٩٤
الدخل الاستثماري	٤٦,٣٠	٣٧,٥٠	٢٨,٨٠	٢١,١٣	٢٣,٠٤	١٨,٤٧
اخرى	١٥,٠٠	١٥,٠٠	١٥,٠٠	١١,٢٥	١٥,٠٠	١٧,٨٩
قروض	–	–	–	–	–	٢٧,٩٠
مجموع النفقات	٢٣٠,٢٠	٢١٦,٤٠	١٨١,٥٠	١٣٦,٧٠	١٧٠,٠٠	١٤١,٢٠
الاجور (ب)	–	–	٥٠,٠٠	٥٠,٠٠	٥٥,٠٠	٦٠,٠٠
الصيانة والتشغيل (ب)	–	–	–	١٧,٥٠	٢٠,٠٠	٢٠,٠٠
نفقات اخرى	١٢٤,٢٠	١٢٠,٤٠	٧٠,٥٠	٣٩,٢٩ (ج)	٤٢,٨٥ (ج)	٢١,٢٠ (ج)
مشاريع	١٠٦,٠٠	٩٦,٠٠	٦١,٠٠	٢٩,٩١	٥٢,١٥	٤٠,٠٠ (ج)
فائض / عجز	٢٣,٨٠-	٤٤,٩٠-	٥٠,٠٠-	٦٢,٤٢-	٥٢,٧٠-	٨,٠٠-
العجز التراكمي	٢٣,٨٠-	٦٨,٧٠-	١١٨,٧٠-	١٨١,١٢-	٢٣٣,٨٢-	٢٤١,٨٢-

Source : Economist Intelligeence Unit, Country Report : Saudi Arabia , No . 1,1988, P.11

Notes : تقديرات (ج) ارقام الميزانية (ب) عشرة اشهر فقط (أ)

جدول رقم (٢)
تصنيف ايرادات الدولة (ببلايين الريالات)

	حقيقي		ميزانية	
	٨٤/١٩٨٣	٨٥/١٩٨٤	١٩٨٧	١٩٨٨
ايرادات الزيت	١٦٤,٥٠	١٦٤,٤٠	٧٩,٢٦	٦٨,٩٣
ايرادات اخرى غير الزيت وتشمل	٦٠,٥٠	٤٩,٧٠	٣٨,٠٢	٣٦,٤٨
ضرائب الدخل	—	—	—	١,٧٥
الزكاة	٠,٤٠	٠,٦٠	٠,٨٧	٠,٩٠
رسوم جمركية	٥,٣٠	٤,٥٠	٣,٨	٦,٥٠
البرق والبريد والهاتف والتلكس	٦,٥٠	٥,٠٠	٣,٧٢	٤,٣٤
رسوم الخدمات العامة	٠,٥٠	٠,٦٠	١,١٥	٢,٥٢
اوراق ذات قيمة	٠,٢٠	٠,٣٠	٠,٩٨	١,٣٠
مبيعات حكومية	٠,١٠	٠,٦٠	—	٠,٧٠
ايجارات واقساط	٠,٦٠	٠,٧٠	—	—
ايرادات متنوعة	٤٦,٩٠	٣٧,٤٠	٢١,٥٠	١٨,٤٧
مجموع الايرادات	٢٢٥,٠٠	٢١٤,١٠	١١٧,٢٨	١٠٥,٤١
نسبة الايرادات الاخرى (غير الزيت) الى ايرادات الزيت	٣٦,٧٨	٣٠,٢٣	٤٧,٩٧	٥٢,٩٢

Sources : 1- Economist Intelligence Unit , Country Report : Saudi Arabia , No. 1,1988, P. 14

٢ – وزارة المالية والاقتصاد الوطني – الكتاب الاحصائي السنوي . للعام ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م

١٩٨٨م ١٤١,٢ مليار ريال في مقابل ميزانية ١٩٨٧م « ١٧٠ مليار ريال » ، تمثل نقصاً إسمياً في النفقات بمقدار ١٧ بالمائة ، كما أن رقم ميزانية ١٩٨٨م يمثل زيادة ٣,٣ بالمائة فقط على الرقم الفعلي لميزانية عام ١٩٨٦م « ١٣٦,٧ مليار ريال » ، والتي مدتها عشرة أشهر فقط . مع العلم بأن هذه الزيادة تمثل نقصاً اذا ما قورنت الميزانيتان على أساس سنوي . إن المؤشر الرئيسي على زيادة التقشف في ميزانية ١٩٨٨ م ، هو نقص العجز العام في الميزانية « بما في ذلك اصدار السندات الحكومية » من ٥٢,٧ مليار ريال في عام ١٩٨٧م ، الى ٣٥,٩ مليار ريال في عام ١٩٨٨م ، وهذا الرقم يشكل أكبر عجز واجهته الميزانية السعودية منذ عام ١٩٨٤ / ١٩٨٥ وحتى عام ١٩٨٨ (٥) .

بات من الواضح أن الحاجة لسد العجز في الميزانية لا يعتمد على مبدأ نقص التحويل ، ولكن أيضاً يعتمد على ما اذا كان تمويل الميزانية من الاحتياطي العام للدولة يعتبر عملاً شرعياً تقوم به الحكومة لتغطية عجوزات ميزانياتها السنوية المتكررة .

إن تحليل توزيع الانفاق للقطاعات في عام ١٩٨٨م يوضح نسبة التخفيض في الانفاق العام ، فمثلاً هناك تخفيض في ميزانية الدفاع والأمن ، كما أن هناك تخفيضاً في الانفاق على تنمية الموارد الاقتصادية ، في الادارة العامة ، وفي القروض الجديدة المقدمة للمؤسسات الائتمانية . لقد خفضت ميزانية تنمية الموارد البشرية بأقل من ١٠ بالمائة ، وخفضت الاعانات بنسبة ١١ بالمائة ، كما أن تخفيض الانفاق على تجهيزات البنية الاساسية بأقل من ٥ بالمائة يعكس التكاليف المستمرة لعقود الصيانة والتشغيل .

قيل أن هدف المسؤولين السعوديين هو زيادة الايرادات من الدخل الاستثماري ومن مصادر أخرى غير النفط ، فلقد شملت ميزانية ١٩٨٧ م ما يلي : فرض ضريبة دخل على الاجانب ، رفع الرسوم الجمركية من ٧ بالمائة الى ١٢ بالمائة على معظم المواد ، فرض ضريبة مقدارها ٢٠ بالمائة على المواد الصناعية ، ورفع تكاليف الخدمة الطبية ، والماء ، والكهرباء ، وتم فرض رسوم بريدية جديدة ، وفرض رسم بيع العقار بالاضافة الى فرض ضرائب المطار . إن هذه القائمة تشمل ٥ بالمائة رسوم بريدية ، ضريبة رأس مقدارها ٢,٦٠ دولار على كل تذكرة سفر محلية ، رسوم على زيارات المستشفى وعلى فواتير الماء والكهرباء ، و١٣ دولاراً كضريبة رأس على كل تذكرة سفر دولية ، و ٥٢ دولارا على تسجيل كل سيارة (٦) .

لم يكن واضحاً مقدار مساعدة هذه الضرائب لميزانية الدولة ، وقد قرر الملك فهد في الرابع والعشرين من مارس ١٩٩٢ تخفيض رسوم عدد من الخدمات ، مما عزّز الإنطباع بأن ايرادات النفط والدخل الاستثماري والاقتراض ستبقى المصادر الاساسية للايرادات العامة للدولة .

إن تقييم الأثر الحقيقي لهذه الضرائب على الايرادات العامة يعتبر صعباً من الناحية العملية ، حيث أن الحكومة لم تنشر تفاصيل ايراداتها لعدة سنوات .. ففي منتصف العام ١٩٨٧م ، أعادت الحكومة تقييم توقعات ايراداتها بشكل تنازلي من ٥٢,٠٨ مليار ريال الى ٣٨,٠٢ مليار ريال بدون ذكر أية أسباب . كما أن توقع ١٨ مليار ريال كايراد من هذه الضرائب سوف يزيد من ميزانية ١٩٨٨م بنسبة ٢٥ بالمائة أكثر مما كان متوقعاً في السنوات السابقة « أنظر الجدول رقم ٢ » .

أما بالنسبة لمصادر الدخل الرئيسية ، فانه من الواضح أن الحكومة السعودية قد واجهت تناقصاً في دخلها الاستثماري لسببين ، أولاً : تناقص الاحتياطات العامة للدولة ، نتيجة لتغطية عجوزات الميزانية المستمرة ، ثانياً : انخفاض سعر الفائدة بشكل عام على المستوى العالمي . ومن الواضح أن السعودية قد فشلت في الحصول على أرباح كبيرة على استثماراتها في عامي ١٩٨٦م و١٩٨٧م ، وحتى اذا كانت هناك أية ارباح ملموسة فانها سوف تذهب مباشرة

للانفاق العام . لقد وضعت الميزانية سقفاً محدداً لاصدار السندات الحكومية بمبلغ ٣٠ مليار ريال في عام ١٩٨٨م ، مع أن أرقام الميزانية التفصيلية توضح أن المبلغ المطلوب لسد العجز هو ٢٧,٩ مليار ريال (٧) .

في الأجل القصير ، اذا لم تجد الحكومة طريقاً مقبولاً للحصول على الاموال اللازمة ، عن طريق فرض الضرائب والرسوم ، فانها سوف تكون أكثر اعتماداً على الاقتراض عن طريق اصدار السندات الحكومية . فمنذ بداية ديسمبر ١٩٩٠م ، بدأت الحكومة بتخصيص مبالغ ضخمة لتمويل حرب الخليج ، تفوق مقدار ما تحصل عليه من ايرادات مقابلة من بيع النفط ، ولذلك ازداد وضع الميزانية سوءاً .

لقد دفعت الحكومة السعودية ٢٠ مليار دولار زيادة عن الانفاق العام بسبب حرب الخليج في عام ١٩٩٠م ، كما أنها قد دفعت حوالي ٣٥ مليار دولار في عام ١٩٩١م ، ونتيجة لذلك قررت الحكومة تأجيل اصدار الميزانية السنوية لعام ١٩٩١م ، واستمرت بالعمل والانفاق ضمن المستويات المحددة في ميزانية ١٩٩٠م (٨) .

على كل حال ، فان تأخير اصدار الميزانية أعطى الحكومة فرصة كانت في حاجة ماسة اليها لتعديل أنظمة الضرائب والاعانات وبرنامج اصدار السندات الحكومية . فلقد استمر بيع السندات الحكومية عبر مزاد نصف شهري بـ ١,٥ مليار ريال « ٤٠٠ مليون دولار » ، ولكن تفاصيل الميزانية الصادرة عن وزارة المالية توضح أن الفائدة المدفوعة على السندات وتكاليف تسديدها كانت حوالي ١٥ مليار ريال سنوياً ، مقللة من أهمية اعتماد الحكومة على هذا البرنامج (٩) .

في بداية يناير ١٩٩٢م أصدرت الحكومة ميزانيتها السنوية للمرة الاولى منذ يناير ١٩٩٠م « لم تصدر ميزانية ١٩٩١ بسبب حرب الخليج » . لقد قررت ميزانية ١٩٩٢ النفقات بـ ٤٨,٤ مليار دولار والايرادات بـ ٤٠,٣ مليار دولار ، تاركة بذلك عجزاً متوقعاً بأكثر من ٨ مليار دولار ، وهذه هي السنة العاشرة على التوالي والتي تشتمل على عجز . لقد خصص ١٤,٥ مليار دولار للامن ، و ١٣,٩ مليار دولار لـ « مشاريع حيوية » ، ولكن للاسف لم تقدم الميزانية عملياً أي تفاصيل انفاقية لهذه المشاريع . إن العجز الكبير في الميزانية والتوقعات المحافظة للايرادات كان منبهاً بغيضاً بأن الازمة المالية السعودية سوف تبقى (١٠) .

من ناحية أخرى انخفضت ودائع الحكومة في مؤسسة النقد العربي السعودي الى ٢٧ مليار ريال « ٧ مليار دولار » فقط في ديسمبر ١٩٩٠م ، بينما وصلت المؤسسات المستقلة الى

جدول رقم (٣)

نتائج البنوك المحلية من يناير – يونيو ١٩٩٠ و ١٩٩١ بملايين الريالات

	مجموع الارصدة		القروض		صافي الدخل	
	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٠	١٩٩١
السعودي الامريكي	٢٨,٠٣٦	٣١,٣٣٨	٦,٦٣٧	٨,٩٠٨	٢٥٤	٣٠٥
الراجحي	١٩,٢١٧	٢٣,٠٦٠	١٦,٢٠٥	١٨,٢٠٠	٢٧٩	٤٨١
السعودي الفرنسي	١٧,٣٦٣	١٩,٢٥٩	٥,٥٢٢	٧,٢٧٩	٨٣	٨٨
السعودي البريطاني	١٤,٢٤٩	١٤,٦٤٨	٢,٧١٩	٤,٠١١	٩٢	١١٧
القاهرة السعودي	١١,٣٤٩	١٣,٧٧٤	٤,٠٣٩	٤,١٥٧	–	–
البنك السعودي التجاري المتحد	٦,٠٦٧	٧,٢١٨	١,٢٠٦	١,٧٣٠	٥٦	٨٣

Source : Econmist Intelligence Unit,Country Report : Saudi Arabia , No.3, 1991,P.27

مرحلة لا تستطيع معها شراء أي سندات جديدة . أدى تفاقم الازمة المالية التي تعاني منها الحكومة الى إجبارها على البحث عن قروض أجنبية كبيرة ، فلقد أدى الضغط على الحساب الجاري وعجز الميزانية الحكومية ، الى اجبارها في مايو ١٩٩١م ليس فقط على توقيع قرض بقيمة ٤,٥ مليار دولار من بنوك دولية ، ولكن ايضاً لاستدانة ٢,٥ مليار دولار من العملات الصعبة من بنوك محلية .

من المدهش أن الحكومة أجبرت البنوك المحلية على الاشتراك في هذا القرض ، ولم تستثن الا مؤسسة الراجحي المصرفية للاستثمار بدعوى أنها تعمل على الطريقة الاسلامية ، ولكن تم حثها من قبل الحكومة لايجاد بديل مناسب لمشاركتها في القرض المذكور . لقد أقنعت البنوك الكبيرة بطريقة أو بأخرى بالمشاركة في القرض بدفع ما يصل الى ٤٠٠ مليون دولار لكل منها ، في حين كانت مساهمة البنوك الصغيرة تتراوح بين ٥٠ ــ ١٠٠ مليون دولار لكل منها ، ويمكننا التأكد من ذلك بالنظر الى مقدار القروض المقدمة من البنوك المحلية في الربع الاول والثاني من عام ١٩٩١م . إن هدف الحكومة السعودية بقرارها الحصول على العملات الصعبة على هيئة قروض من البنوك المحلية ، هو السيطرة على صافي أصول هذه البنوك الخارجية ، وجعلها في متناولها كلما احتاجت الى قروض جديدة (١١) .

إن مفتاح الوصول الى نمو اقتصادي مقبول ، وحل المشكلة المالية تكمن في قطاع النفط الذي تتفاعل الحكومة بزيادة ايراداتها منه في هذا العقد . إن توقعات زيادة الطلب على الزيت الخام السعودي في منتصف وفي نهاية التسعينات قد شجع الحكومة على وضع استراتيجية طموحة لمحاولة حل مشاكلها الموجودة ، وتعتمد هذه الإستراتيجية على انتاج ١٠ ملايين برميل من الزيت الخام يومياً ، حيث لا تستطيع أي دولة بترولية مجاراة هذا الانتاج من الناحية العملية ، ولا تقبل استنزاف احتياطيها بهذا الشكل . لقد جعلت خطط التنمية أكثر مرونة لتجنب إضاعة أي استثمارات ، فاذا ما تغير اتجاه السوق وانخفض الطلب على النفط ، فان الحكومة سوف تقلل انتاجها منه ، أما اذا زاد الطلب بشكل سريع أكثر من المتوقع ، فان الانتاج سيزداد الا اذا ارتفع الطلب العالمي بدرجة سريعة جداً تجعل الحكومة غير قادرة على التاثير على اسعاره (١٢) .

أخيراً تأمل الحكومة السعودية ، الى جانب زيادة انتاج الزيت بشكل كبير ، بزيادة تنمية القطاعات الاقتصادية الاخرى ، ومن ضمن محاولاتها لكبح جماح الانفاق الحكومي أنها شجعت القطاع الخاص للمبادرة بأخذ دور رائد في عملية التنمية الاقتصادية خاصة قطاع التصنيع الذي يستطيع تسريع عملية النمو الاقتصادي في عقد التسعينات في المجالات الاقتصادية الاخرى غير قطاع النفط .

وزيادة الدخل من تصدير البترول الخام هو الخيار المفضل من جانب المسئولين الحكوميين ، لاسيما السياسيين منهم الذين يريدون المحافظة على قدرة تمويل عالية في جميع الاوقات ، بخلاف المخططين الذين في العادة لا يملكون قدرة التحكم في القرار السياسي ، وهؤلاء يفضلون خفض الانفاق الحكومي ، لاسيما في قطاع الدفاع ، وفي المشاريع التي توصف بانها من مشروعات البنية الاساسية ، لكنها تتضمن قدراً كبيراً من الاضافات المكلفة غير الضرورية والتي تستثمر غالبا للاغراض الدعائية .

أما المستشارون الاجانب الذين يقدمون

مخصصات الميزانية حسب القطاعات (تقديرات الميزانية الحكومية) بملايين الريالات

	٨٣/١٩٨٢	٨٤/١٩٨٣	٨٥/١٩٨٤	٨٦/١٩٨٥(أ)	١٩٨٧(ب)	١٩٨٨(ب)	١٩٨٩(ب)	١٩٩٠(ب)	١٩٩٢
مجموع الايرادات	٣١٣,٤٠٠	٢٢٥,٠٠٠	٢١٥,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	١٠٦,٩٢٦	١٠٥,٣٠٠	١١٦,٠٠٠	١١٨,٠٠٠	١٥١,٠٠٠
ايرادات الزيت	٢٧٠,٥٧٩	١٦٤,٤٩٦	١٦٤,٥٠٠	١٥٤,٢٥٠	٧٤,١٨٣	٧٣,٥٢٥	–	–	–
ايرادات اخرى	٤٢,٨٢١	٦٠,٥٠٤	٤٩,٦٠٠	٤٥,٧٥٠	٣٢,٧٤٣	٣١,٧٧٥	–	–	–
مجموع النفقات	٣١٣,٤٠٠	٢٦٠,٠٠٠	٢٦٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	١٥٩,٦٤٦	١٤١,٢٠٠	١٤١,٠٣٥	١٤٣,٠٠٠	١٨١,٠٠٠
تنمية الموارد البشرية	٣١,٨٦٤	٢٧,٧٩١	٣٠,٤٦٠	٢٤,٥٣٣	٢٣,٦٨٩	٢٣,٣٨٨	٢٤,٠٠٠	٢٦,١٩١	–
المواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية	٣٢,٥٣٣	٢٤,٩٥٠	٢٣,٦٣٠	١٤,٤٩٧	١٠,٩٠٤	٩,٤٩٣	٨,٢٨٠	٩,٢٨٨	٨,٢٥٠
تنمية الموارد الاقتصادية	٢٢,٠٤٥	١٣,٢٠٩	١٧,٥٦٠	٩,٠٨١	٦,٦١٥	٥,٨٨٨	٥,٠٠٠	–	٧,٩٩٠
الصحة والتنمية الاجتماعية	١٧,٠١٠	١٣,٥٩١	١٨,٠٨٠	١٢,٨٩٢	١١,٠٩٤	١٠,٨٠٦	١٠,٥٥٠	١١,٧٩١	١٢,٢٤٧
تنمية تجهيزات البنية الاساسية	١١,٠٧٥	٩,٥٨٣	٩,٨٣٠	٦,٩٢٤	٤,٢٩٩	٣,٥٥٥	٢,٥٧٠	–	٢,٠٩٠
الخدمات البلدية	٢٦,٢٢٤	١٩,٠٧٠	١٧,٤٦٠	١١,٨٩٠	٨,١١٠	٧,٠١٧	٥,٤٢٠	٦,٨٩٠	٦,٢٩٦
الدفاع والأمن	٩٢,٨٨٩	٧٥,٧٣٣	٧٩,٩٠٠	٦٣,٩٥٦	٥٤,٢٢٦	٥,٠٨٠	٧٣,٨٩٠ *	٥١,٨٩٨	٥٤,٢٧٠
الادارة العامة والنفقات الحكومية الاخرى(ج)	٤٤,٥٨٦	٤٧,٠٥٣	٣٥,٠٥٥	٣٨,٥٨٤	٣٠,٩٧٤	٢٥,٠٥٨		١٨,١٣٤	–
صناديق الاقراض الحكومي	٢٣,٣٨٢	٢٠,٠٠٠	١٧,٥٠٠	٩,٣٠٠	٣,٥٩٠	٥٩٠	٦,٠٠٠	٦,٠٠٠(د)	٤,٦٣٦
الاعانات المحلية	١١,١٦٢	٩,٠٢٠	١٠,٥٢٥	٨,٣٤٣	٦,١٤٥	٥,٣٢٥	٥,٣٢٥	٧,١٨٣	٧,١٠٠
فائض / عجز	–	– ٣٥,٠٠٠	– ٤٥,٠٠٠	–	– ٥٢,٧٢٠	– ٣٥,٩٠٠	– ٢٥,٠٣٥	– ٢٥,٠٠٠	– ٣٠,٠٠٠
القروض (هـ)	–	–	–	–	–	٣٠,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	٣٠,٠٠٠

Source : 1 - Economist Intelligence unit,Country Profile ,Saudi Arabia ,1987-1988,P.28
2 - EIU,Country Profile :Saudi Arabia,1990-91,P.30.

٣ – جريدة الرياض ، ٢٨ جمادى الاخرة ١٤١٢هـ – ٣ يناير ١٩٩٢ ، العدد ٨٥٩٣ ، (ص ٣).

* ملاحظات :

(أ) تنتهي السنة في ٩ مارس ١٩٨٦م – لم تصدر ميزانية للفترة من ١٠ مارس الى ٣١ ديسمبر ١٩٨٦م (ب)سنة شمسية (ج) تشمل التحويلات الى صندوق التنمية السعودي (د) تمويل ذاتي (هـ) حتى عام ١٩٨٨ م كان العجز يغطي من الاحتياطي العام للدولة .

النصح لوزارة المالية ومؤسسة النقد العربي السعودي ، فانهم يميلون الى فرض ضرائب اضافية لاسيما على أصحاب الدخول الكبيرة والشركات ، وهو الامر الذي يعارضه الملك الذي يشعر بقلق من ردود فعل سلبية من جانب الجمهور .

وفي اعتقادنا أن ثمة موارد كثيرة للانفاق تحمّل البلاد أعباء لا طائل من ورائها ، من بينها – على سبيل المثال – النفقات الدفاعية التي تتجاوز كثيرا حاجةالبلاد ، وفي تقديرنا ان رجال الاعمال المحليين سيكونون اكثر استعدادا للمشاركة في تحمل اعباء التنمية الوطنية التي تضطر الحكومة لتحمل اعبائها المالية ، لكن هؤلاء يريدون المشاركة في اتخاذ القرارات المتعلقة باختيار النمط الملائم للانماء واشراكهم في وضع السياسات الاقتصادية للبلاد ، وهو الامر الذي لا توافق عليه الحكومة ، وتخشى من ان يؤدي الى تفتيت السلطة ، او ربما اخراجها من الدائرة الضيقة التي هي الان فيها □

المراجع

1- Ali. D.Johany, Michel Berne And J.Wilson Mixon Jr.The Saudi Arabian Economy,John Hopkins University Press,1986,P.63.

2- Robert E.Looney, Saudi Arabia's Fiscal Dilemma: Sustained Growth Versus increased vulnerability, Jounral of Arab Affairs, vol.7, No.2,P.155.

3- Wahib A.Soufi & Richard T.Mayer., Saudi Arabian Industrial Investment, Quorum Books, 1991, P.102.

4- Robert Looney, P.156

5- Economist Intelligence Unit, Country Report : Saudi Arabia, No.1, 1988,P.11

6- Ibid., P.14.

7- Ibid., P.14.

8- EIU, No.1, 1991, P.11.

9- Ibid., P.12.

10- Jeffrey B.Johnson., Saudi Arabia:Economy Buoyart Despite Government's Fiscal Woes., Business America, April 6, 1992, P.43.

11- EIU, No.3, 1991, P.15.

12- Middle East Economic Digest, Meed, 2 February, 1990, Vol.34, No.4, P.4.

كيف تبدّدت عائدات البترول ؟

المال العربي ضاع في التوافه والنزوات وعلى صفقات السلاح من أجل حرب لن تجيء

حسين حيدر درويش

بعد دراسات مستفيضة قام بها الاستاذ محمد حسنين هيكل ، جاء في كتابه القيّم « حرب الخليج .. أوهام القوّة والنصر » الكثير من الحقائق المدعومة بالارقام والمصادر .. وبما أنه قد لايتسنّى للقاريء العربي قراءة ذلك الكتاب ، والذي يضمّ بين دفتيه أكثر من ستمائة صفحة ، ويتطرق لعدة مواضيع في غاية الأهميّة ، لذا ارتأيت أن اقتبس منه الجانب الذي يتعلق بالبترول دون سواه . ولا بد من جلب انتباه القاريء ، الى أن الموضوع هذا ينحصر حول العائدات التي تتقاضاها الحكومات العربية المصدرة للبترول ، وذلك بعد أن تخصم الشركات الاميركية والبريطانية المنتجة حصتها منه ، والتي هي أكثر من نصف الإيرادات ، وبعد أن حددت أسعار النفط كيفما شاءت .

إن خلاصة ما توصل اليه الاستاذ هيكل بهذا الخصوص ، هو أن عائدات البترول العربي تبدد في أربع قنوات رئيسية وهي : الفجور ، والقمار ، ومشتريات الاسلحة لمعركة لم تجيء ، وتجميد أرصدة النفط كاحتياطي في أمريكا وبريطانيا أو عبر شراء سندات الخزانة الأميركية غير القابلة للتداول .

اختار هيكل المسرحية التي عرضت في لندن أواخر السبعينات والتي استمر عرضها بلا انقطاع قرابة عشر سنوات ، كمثال واضح عمّا أراد التعبير عنه حول موضوع « الفجور » . كان عنوا المسرحية : « اغلقي عينيك وفكري في انجلترا » .. يقول في صفحة ٩٥ من كتابه :

« كانت المسرحية من ثلاثة فصول تدور كلها في صالون بيت رئيس مجلس ادارة احدى شركات البترول الكبرى . ويبدأ الفصل الاول من المسرحية والبيت في انتظار شيخ من شيوخ البترول قام الى العشاء . ويظهر اللورد المضيف في المشهد الاول من المسرحية يتفقد الصالون مع زوجته ويتأكد من أن كل قطع الاثاث الجميل في مكانها وكذلك اللوحات ثم الزهور ، ثم يراجع قائمة الشراب والطعام ، ويعطي بنفسه آخر تعليماته لرئيس الخدم ، ويضيف الى ذلك معلومات من تقرير اطلع عليه عن مزاج الشيخ وعاداته ، ثم يتذكر رئيس مجلس الادارة شيئاً ويبدو تردده وهو يصارح زوجته به . ثم يغالب تردده ويقول لزوجته : ان الشيخ عاشق طوال الوقت ، وفي الحفل الذي يوشك أن يبدأ جمال كثير ، وربما يكون مناسبا أن تكون الليدي المضيفة يقظى لنظرات الشيخ ، ولا بأس اذا أعجبته واحدة من الضيوف أن تتولى تقديمها له ، وأن تترك له الفرصة » .

وينتهي الفصل الاول بدخول الشيخ الى الحفل . ثم بدأ الفصل الثاني ويدور كله حول تصرفات الشيخ في الصالون البريطاني العريق ، فهو يقفز من هنا الى هناك ويربت هنا على خد ، ويمسح هناك على شعر ، ويترك لنظراته وأصابعه حرية زائدة عن الحد ، والكؤوس تدور ، والضحكات ترن ، والعطر فواح » .

ويبدأ الفصل الثالث والحفل مازال مستمراً لا يهدأ صخبه ، وكذلك الشيخ ثم تظهر « الليدي » مضيفة الحفل ، وهي تحاول أن تلفت نظر زوجها الى أنها تريد أن تتحدث اليه ، وهو مشغول عنها بالتأكد من أن إيقاع الحفل لم يفقد حيويته رغم طول السهر . وأخيراً تفلح الزوجة في اللحاق بزوجها في ركن من الصالون لتقول له بحيرة : « جون .. هناك مشكلة » .

ويرد عليه بسرعة : « لا أريد مشاكل هذه الليلة » .

وتقاطعه : انتظر حتى تسمعني .

فيرد بنفاذ صبر : إنني أسمعك .

وتقول له وحيرتها تزداد : هل تعرف من أعجبته ؟ . من يريد ؟ .. يريدني أنا .

ويكون رده التلقائي : ماذا ؟ . أنت ؟ . هل فقد صوابه ؟ .

ثم يسكت وتنتقل الى ملامحه تعبيرات الحيرة . ثم يقول وكلماته تتعثر على شفتيه : « حسناً يا حبيبتي . أغلقي عينيك وفكري في انجلترا » .

وينزل الستار ! .

وعن القمار ، يقول الاستاذ هيكل في صفحة ٤٤ من كتابه آنف الذكر : « في مونت كارلو ليلة انفجار الازمة ٢ أغسطس ١٩٩٠ م ، كان الشيخ حسن عناني وهو أحد أثرياء السعودية ، والمقرب من دوائر الاسرة الحاكمة ، يخسر ١٢ مليون دولار على مائدة القمار في سهرة واحدة ، وكانت المفارقة أن الخبر نشر في الصحف جنباً الى جنب مع أنباء غزو الكويت » .

إن الذي خفي على الاستاذ هيكل أعظم بكثير . فاذا كان أحد المقربين للاسرة الحاكمة في بلد واحد يخسر ١٢ مليون دولار في ليلة واحدة ، فكم يا ترى تسخره الاسر الحاكمة في الدول العربية المصدرة للبترول ؟ . ويبدو من الضروري للاستاذ هيكل أن يعيد حساباته بهذا الخصوص ، واني اذكره بأن أسرة خليجية حاكمة وحاشيتها تبدد نحو مليار جنية استرليني سنوياً في هذا المجال .

أما صفقات الاسلحة ، فإن التقديرات المتواضعة التي توصل اليها الاستاذ هيكل في صفحة ٩٨ من كتابه تفيد « بأن مجمل ما حصلت عليه دول البترول سواء من بترولها أو من أرباح فوائضه يتراوح مابين ٥.٢ الى ٣ تريليون دولار ـ تعجز الالات الحاسبة عن عدها ـ وقد صرف منه قرابة النصف على مقتضيات الامن من أسلحة القتال البري والجوي والبحري ، ونظم الدفاع الجوي المتطورة ، والصواريخ والانشاءات اللازمة . ومعنى ذلك أن تريليون دولار وأكثر أنفقت كلها على الاعداد العسكري لمعركة لن تجيء » .

يالها من مأساة .. فلو أنفق هذا المال على الاقطار العربية مجتمعة لأصبحت اليوم تضاهي القارة الاوروبية ، ولكن أنى يكون ذلك والاسلحة هذه ان لم تساهم في تمكين نظريات الامن من تحقيق مطالبها ، فهي تساعد في تنشيط سوق السلاح ، وفي تشحيم عجلات مصانع انتاج الاسلحة الاميركية والبريطانية لكي تواصل دورانها في ليونة ويسر ، ولتوفر المزيد من الرخاء والرفاهية لشعوب الغرب ، والمزيد من الفقر والحرمان للشعوب العربية ، بما فيها تلك التي يتدفق البترول من أراضيها .

ناهيك عن العمولات والرشوات التي تدر أرباحاً خيالية لموقعي تلك الصفقات الضخمة المريبة والتي فاحت رائحتها حتى أزكمت الانوف ، وسوف تزكم الانوف أكثر عندما تنشر في مجلس العموم البريطاني فضيحة نصف المليار دولار ، وهي « العمولة » أو « الرشوة » التي استلمها مسبقاً الذي وقع صفقة « اليمامة » .

موالاة الكفار .. سياسة سعودية ثابتة

وعن تجميد الاحتياطي في البنوك الاميركية والبريطانية ومشتري المستندات .. فإن حرب الخليج كشفت عن المليارات من الدولارات المودعة والمجمدة في البنوك الاميركية والغربية ، والتي سهل على أمريكا وبريطانيا مصادرتها كلها دون الرجوع الى الى حكومات الدولة المصدرة للبترول بحجّة أن فواتير حرب الخليج قد جاوزت حجم الإحتياطي ، مع أن حرب الخليج قد استعرت أساساً في سبيل الدفاع عن أمن الغرب ومصالحه .

وبالاضافة الى تلك الاموال الطائلة المهدورة يحدثنا هيكل في صفحة ٩٤ عن « فذلكة » أميركية ، فيقول : « لم يكن الصرف وحده هو الذي يستنزف الاموال ، وانما زاد عليه الرهن أيضاً . وهذه أول مرة في التاريخ يحدث فيها أن يرهن صاحب المال ــ السائل ــ ماله . ولكن وزير الخزانة الاميركي ــ في عهد الرئيسين نيكسون وفورد ــ استطاع اقناع المملكة العربية السعودية بأن تشتري أذونات خزانة امريكية لا تتداول في الاسواق مثل غيرها من السندات ، ولكن تكون مربوطة بآجال تمتد الى عشرين وخمس وعشرين عاماً ، بحيث اذا احتاجت المملكة من أموالها شيئاً كان عليها أن تتفاوض مع الخزانة الاميركية لتفك القيود اذا رضيت .. وفي وقت من الاوقات سنة ١٩٨١م وصلت فيه الاموال العربية المرهونة بهذه الطريقة الى ما يزيد على مائة مليار دولار » .

هنيئاً لأمريكا اذ لم تعثر ــ من بين الهنود الحمر ــ على من هم أكثر ذكاءاً من هؤلاء الحكام ! .

واذا كان القاريء لم يكتف من قراءة كل هذه المهازل التي سردها متفضلاً الاستاذ هيكل في كتابه ، فهناك المزيد منها كما رواها في صفحة ١٠٠ والتي قد تبدو « نكتة » ، لولا أنها مدعومة بالوثائق المثبتة .. يقول : « تظهر بعض الوثائق أن عدداً من أميرات الفرع الحاكم في السعودية ، على سبيل المثال ، كن يحصلن على أذونات بحصص من البترول يقمن في ظرف ساعات معدودات بالتنازل عنها لحساب مصدرين عرب ، أو أجانب في مقابل نصيب معلوم . وقد تسربت بالفعل احدى هذه الوثائق ، وهي محضر وكالة من الاميرة موضي بنت عبدالعزيز آل سعود لصالح وكيل لبناني تفوضه فيها ببيع حصتين من البترول تقررتا لأمر الأميرة شخصياً ، بحجم مليون برميل من نوع أيه بي آي ــ ٣٦ لبيعها في السوق العالمية الحرّة حسب الاصول المتعارف عليها « تسجيل تفويض أمام قاضي العدل في الرياض برقم ١١٦٢٨ ــ ٩٤٧ / ٢٠ بتاريخ ٨ / ٤ / ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٥ / ٢ / ١٩٨٠ م » .

ويبدو أن العقيد القذافي كان محقاً حين هدد باشعال النار في البترول ، فلا شك أنه أدرك أخيراً بأنه لو أقدم على ذلك ، فان المتضرر سيكون أمريكا وبريطانيا والشيخة موضي بنت عبد العزيز آل سعود ، حفظها الله ورعاها من أعين الحساد ! .

كان هذا هو الفصل المهم في كتاب « المستشرقون والعملاء الجدد ــ دراسات عن الاستشراق في الدول الاسلامية اليوم » ، لمؤلفه الدكتور احمد عبد الحميد غراب .

والكتاب لا يركز على تاريخ الاستشراق ونظرياته التي يبدو ان الكاتب متخصص فيها ، وانما هو اشبه ما يكون بسيرة ذاتية سطرها الكاتب في مواجهاته لحركة الاستشراق في العالم الاسلامي ، وفي المملكة العربية السعودية بشكل خاص ، حيث عمل الكاتب استاذاً للدراسات الاسلامية في جامعة الملك سعود بالرياض .

يقول المؤلف : ان موالاة الحكم السعودي « للكفار لا تقتصر على الموالاة الحربية والسياسية ، بل تتعداها الى الموالاة الثقافية ولا سيما في تبني البرامج والمناهج الامريكية في التربية والتعليم الجامعي » وقد « امتدت هذه الموالاة الثقافية اخيرا الى مجال من اخطر مجالات الغزو الثقافي وهو مجال الدراسات الاسلامية ، فاصبحنا نرى التغلغل الاستشراقي يسري في تلك الدراسات كالسرطان ، بالرغم من محاولة المسؤولين السعوديين التعتيم على هذا التغلغل ، بل والتظاهر بالسماح احيانا بنقد المستشرقين » .

ويكشف المؤلف من خلال خبرته الطويلة كأستاذ في المملكة عن دعم الحكومة السعودية لمراكز الدراسات ومعاهد البحث والجامعات التي تشرف على تخريج وتدريب المستشرقين .. بل تدعم الحكومة السعودية تحت مسميات دعم العلم والثقافة ، معاهد متخصصة في التنظير لتدمير العالم الاسلامي .

ويؤكد الكاتب على ان اول المستشرقين المعاصرين الذين دعوا الى انشاء مراكز استشراقية مشتركة للدراسات الاسلامية كان المستشرق الامريكي جون سبوزيتو في الرياض خلال محاضرة له في جامعة الملك سعود بتاريخ ٢٨ / ٥ / ١٤٠٣هـ وتبين بعد المحاضرة « ان هناك خطة موضوعة فعلا لتنفيذ ذلك المشروع الاستشراقي ليس في امريكا واوروبا فحسب ، بل في السعودية كذلك » ، مما حدا بالمؤلف الى ارسال خطاب مفتوح الى الشيخ بن باز يحذر فيه من مخططات المستشرقين .

وقصة المؤلف مع الحكومة السعودية بدأت بتاريخ ١٥ / ١٢ / ١٩٨٦ حين القى محاضرة بالرياض تعرض فيها لمركز اكسفورد للدراسات الاسلامية الذي يصفه المؤلف بأن وجه لتشجيع المستشرقين ، وتموله الحكومة السعودية ، وقد هاجم الكاتب هذا المركز في محاضرته وانتقد دعم الحكومة السعودية له ، واصفا اياها بالتبعية لمؤسسات استشراقية صليبية .

وقد اصبح الكاتب محل سخط الاجهزة السعودية بعد ان ردّ على المستشرق كينث كراج في مؤتمر المنصرين باكسفورد « دون إذن الجامعة » مما حدا بمصطفى الاعظمي رئيس قسم الدراسات الاسلامية ــ في ذلك الوقت ــ الى ان يطلب من الكاتب تقديم تقرير لتوضيح الاسباب ، كما منع الكاتب من حضور محاضرة للمستشرق الامريكي جون سبوزيتو في السفارة الامريكية بالرياض بتاريخ ١٧ / ٤ / ١٤٠٨هـ ، لكنه ذهب الى هناك .. ومنذ ذلك الوقت بدأت مواجهاته مع المستشرقين تصطدم بسلطات الجامعة التي رأت ان التشهير بدعم المملكة لتلك المراكز يضر بسمعتها الاسلامية ، وقد كان المؤلف كان حريصا على تبيان موقفه من المستشرقين والاحتجاج على الدعم السعودي لهم .

وكانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير مداخلة قام بها المؤلف خلال ندوة مسائية عقدت في فندق انتركونتنتال بالرياض وحضرها لفيف من العلماء والدعاة الاسلاميين بينهم الشيخ راشد الغنوشي ومحمد قطب والدكتور احسان حتحوت ، وكانت الندوة برئاسة د. عبد الله التركي في شعبان ١٤١٠هـ تحدث المؤلف في مداخلته عن « ظاهرة اشتراك بعض الاساتذة المسلمين مع المستشرقين في تقديم الاسلام الى الناس من خلال مراكز الدراسات الاستشراقية . وبخاصة مركز اكسفورد » .. وبالرغم من ان مداخلته لاقت ترحيبا من الحضور الا ان الدكتور التركي اصر الى معاقبة المؤلف وفعلا تم انهاء عقده واجباره على مغادرة المملكة ، وحيث ان للمؤلف بنتان تدرسان في الجامعة وهما في السنة الاخيرة ، فقد عرض قبول اقامته « كمحرم » مع ابنتيه دون التزامه بأي عقد عمل او ممارسة اي نشاط عام ريثما تفرغ ابنتاه من تعليمهما .. بيد أن السلطات اصرت على فصل ابنتيه ايضا واجبارهما على مغادرة الاراضي السعودية .

وبالرغم من ان الكتاب بدأ بشرح موجز عن حركة الاستشراق وانتهى بتفصيل عن سرد موالاة الحكومة السعودية للكفار الامريكيين والاوروبيين سواء الموالاة السياسية الحربية حيث تبدو هذه الموالاة « واضحة كل الوضوح في انحياز السعودية دائما الى المعسكر الامريكي ، انحيازا هو في حقيقته تبعية ذليلة تخدم مصالح امريكا الاقتصادية كما تخدم اهدافها السياسية والحربية في المنطقة » .. الا ان الفصل المثير كان الفصل الاوسط الذي تحدث فيه المؤلف عن اضطهاده في المملكة بسبب مواجهاته مع دعامة الاستشراق .

السعودية تطالب الحسين بالاعتذار رسميا وتعرض وقفا متبادلا للحملات الاعلامية

ذكرت انباء صحفية ان موفدا سعوديا خاصا وصل الى عمان في الاسبوع الاول من الشهر الماضي والتقى بمسؤولين اردنيين رفيعي المستوى ومسؤولين فلسطينيين لتطمين الجانبين بشأن الاتهامات الموجهة للحكومة السعودية بأنها تعمل على زعزعة الامن في الاردن وتشجيع حركات معارضة لتحل محل منظمة التحرير الفلسطينية .

وقالت تلك المصادر ان الموفد السعودي ، ووصفته بأنه مقرب من الامير تركي الفيصل ، رئيس الاستخبارات العامة ، اكد للمسؤولين الاردنيين ان الرياض لم تمد منظمة « جيش محمد » بأي مساعدة مالية ، وهي المنظمة التي قامت بعمليات مسلحة وحاولت اختراق الحدود الى اسرائيل لشن هجمات عسكرية ضد الاحتلال ، واتهمت بأنها تستهدف تقويض الامن في الاردن ، ووجهت الى جهات عربية تهمة تمويل هذه المنظمة .

كما ناقش الموفد السعودي مع مسؤولين في منظمة التحرير العلاقات المتأزمة ، ونفى بشكل قاطع ان تكون الرياض تدعم حركة المقاومة الاسلامية « حماس » بأي مساعدات مالية ، مؤكدا ان المملكة لا تزال تدعم فكرة ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .

وقد طلب الموفد السعودي من المسؤولين الاردنيين أمرين محددين : الاول ، ان يتقدم الملك حسين باعتذار رسمي للحكومة السعودية بسبب موقفه من ازمة الخليج . وشدد على ان الاعتذار العلني والرسمي هو مطلب الملك فهد الذي لا يتنازل عنه . والثاني : وقف فوري للهجمات الاعلامية على العائلة السعودية الحاكمة ، مقابل ان توقف الرياض حملاتها ضد الاردن .

وفي حين رفض الاردنيون المطلب الاول بشكل قاطع ، فانهم وافقوا على الثاني ، لكن المراقبين لم يشهدوا اي هدوء في جبهة المواجهات الاعلامية الساخنة بين البلدين ، بل على العكس تصاعدت الوتيرة الى الحد الذي دفع بصحيفة اردنية هي صحيفة « الرأي » الى المطالبة بعرش الحجاز للمملكة الهاشمية . حيث قالت الصحيفة التي اصدرت ملحقا خاصا حول الثورة العربية الكبرى ما نصه : « وسوف تسترد الجزيرة العربية ابناءها » في اشارة الى الهاشميين . كما استمرت صحف المملكة في توجيه الانتقادات اللاذعة لحكومة الاردن ، سيما فيما يخص تداعيات قضية ترميم قبة الصخرة التي تحولت من مشروع خيري الى حرب ومواجهة مع الاردن .

عبد الرحمن منيف .. بين السياسة والرواية المعبّرة عنها

قراءة في رأي عبد الرحمن منيف في الرواية والمستقبل

د . أنيس الجزائري

■ الكتابة عن عبد الرحمن منيف ليست مهمّة سهلة ، فهو روائي قدّم أعظم عمل روائي في اللغة العربية ، والمتمثل في « مدن الملح » التي هي التسمية المنطبقة تماما على « مدن النفط » .. ثم هو سياسي معارض لسلطة يحركها القمع والبترول .

لذلك ، فاني سأترك السياسي الذي فيه يكشف عن الروائي الذي صاره ، عبر تتبع إنتاجه ما قبل « مدن الملح » ، وعبر أحاديثه الكثيرة في الصحافة والمجلات وسائر وسائل الاعلام ، على امتداد ما يقرب من عشرين عاما من العمل والابداع ، على صعيدي الفكر السياسي المبني على الديمقراطية أولا والديمقراطية دائما ، وعلى صعيد الابداع الروائي الذي يقف على قمة الفن الروائي الملحمي الذي لم تعرفه العربية عند غيره .

كل روائي لا بدّ أن يبدأ من التاريخ ، وكل سياسي لا بدّ أن يبدأ من الواقع ، وكل واقع لا بدّ أن يكون خلاصة تفاعل التاريخ بسابقه وحاضره ، ومن هنا يبدأ مفهوم عبد الرحمن منيف للتاريخ ، وللرواية التاريخية ، ولدورها في تثوير الواقع عبر الغوص عميقاً بحثاً عن الجذور ، وعن الحلول بعيداً عن الواقع الذي خلقته سياسة البترول .

ان مجال الرواية التاريخية من أبرز واهم المجالات في الكتابة الروائية ، وخاصة في هذه المرحلة . ان الرواية التاريخية العربية لاتزال غير موجودة ، على أهميتها ، وآفاقها الواسعة والضرورية . وان الكتابات التي تمت في هذا المجال ، عربياً ، هي كتابات أوليّة ، بمعنى معين ، وان كان لها بعد معين . البعد التاريخي المطلوب والذي كان موجودا في روايات غربية ، عبر عن فترة تاريخية كاملة ، من خلال أحداث وبشر معينين ، وثورة مرحلة تاريخية كاملة ، هذا البعد التاريخي بالنسبة للرواية العربية غير موجود حتى الآن . ربما كان في المحاولات الموجودة في الوقت الحاضر مس جزئي للمشاكل المطروحة .. لكن تغطية كاملة بحيث ان مؤرخ المستقبل يستطيع من خلالها ان يكتشف طبيعة العصر ومجالاته المتعددة ، يبدو ان هذه التغطية حتى الان غير متيسرة ، اضافة الى انها صعبة ، ولكن هذه الاضافة الصعبة تمت بنجاح باهر في « مدن الملح » بالذات ، وفي سباق المسافات الطويلة .

ومن خلال الجزئيات التي تمت حتى الآن ، يمكن رسم ابعاد تاريخية لمرحلة معينة .. هذا من ناحية .

من ناحية ثانية ، هناك قضايا تمّ بحثها في وقت سابق « على التحديد اعمال نجيب محفوظ بشكل خاص » ، فقد كانت تغطية لفترة قصيرة وجزئية . لكن من الممكن في المستقبل ، ومن خلال اعمال عبد الرحمن منيف ، وخاصة فيما بعد أواسط الثمانينات .. يمكن للرواية ان تغطي مراحل واوضاع اخرى ، وأن نصل الى نتائج أفضل حتماً مما وصلنا إليه لحدّ الآن .

عبد الرحمن منيف ــ وبغض النظر عن موقف النقاد ــ يعتبر أن كل ما حاوله ، عبارة عن شيء أوّلي ، ولا يمكن ان يؤخذ بشكل نهائي ولا كمقياس أخير .. بمعنى : ان الروايات التي كتبها هي بمثابة رغبة في التعبير عن مرحلة معينة ، في ظروف معينة .. وهذه الرغبة ، وفي هذه الظروف عبّرت عن نفسها بشكل لايزال هو يعتبره ناقصا .. وفيه كثير من الثغرات . ولكن ، مع ذلك ، اذا اخذنا العمل الروائي ككل في هذه الفترة ، وقارناه مع ما قدم في فترة سابقة ، سنلاحظ ان العملية الروائية تسير الى الامام ، وبخطوات أهم مما كانت عليه في الماضي .

الان ، أصبحت هناك أسس أكثر وضوحا للعمل الروائي .. ووجدت اعمال روائية ، نستطيع ان نضعها في مستوى متميز بالنسبة للفترات السابقة . لكن ، مع ذلك ، ان العمل الروائي بدأ الان يشقّ طريقه ، واصبح للرواية دور أهم وأغنى بكثير مما كان عليه في الماضي ، وربما كان ذلك إيذانا بانطلاقة العلاقة الجدلية

عربياً بين الرواية وهموم التغيير التي يحمل منيف مهمّة التعبير عنها .

يقرر عبد الرحمن ، في احدى مقابلاته الصحفية ، أن التاريخ الروائي العربي هو ، الى حدّ بعيد ، تاريخ ضعيف ، اذا صحّ التعبير .. ليس له تراث .. ليست له تقاليد .. والكثير من الاعمال الروائية العربية بدأت من مستوى بسيط ، من الصفر .. وبدأت تحاول ان تشق طريقها بمصاعب وظروف معينة ، الان صار الطريق ، ممهداً ، نسبياً .. واصبح للرواية دور واهمية اكبر من السابق .. وهذا الدور سيبرز بأهمية أكثر مما حصل حتى الان .

من هنا ، فان كل الروائيين مدعوون للمساهمة في شق طريق جديدة .

الرواية بمعناها وتنوعها وطريقتها في تناول الامور ، تتيح فرصاً وإمكانات غير متاحة في وسائل التعبير الاخرى ، التي كانت تقليدية وسائدة ، بمعنى اوضح : الرواية الان هي من أهم وسائل التعبير المعاصرة .. فالشعر بدأ ينحسر ويفقد تأثيره .. ودوره .. اضافة الى ان المسرح ليست له وسائله المتاحة ، الامر الذي يتيح للرواية ، بشكل خاص ، ان تلعب الدور الابرز .

صحيح ان للقصة القصيرة تقاليد وتاريخا في لغتنا ، اعرق واقوى من الرواية .. لكن تأثيرها ودورها يظل محدودا .. فالرواية الان مدعوة ، ومطلوب منها ان تساهم وان تلعب دورا في بناء « شيء جديد » بشق طرق جديدة ، وبمحاولة ابراز تاريخ ومعالم ، وبتوثيق المرحلة الحالية .

ان الرواية مرتبطة بتطور تاريخي معين .. اذا انتفت هذه التطورات او كانت ضعيفة ، فانها تستتبع بالضرورة ضعف وسائل التعبير عنها . اي انه ، مثلا ، في المجتمعات البدائية نسبيا تظل وسائل التعبير الاخرى ، وخاصة الشعر ، ابرز واكثر تأثيرا . الرواية مرتبطة بالمدينة .. مرتبطة بالصناعة .. مرتبطة بالتغيرات الكبرى التي تحصل في مجتمع من المجتمعات .

من هذا الجانب ، نلاحظ ، في المرحلة الحالية ، ان الرواية اكثر بروزاً وتأثيراً ، لان طبيعة الحركة في المجتمع العربي ، والتغيرات ، والحياة المدنية التي بدأ العرب يعيشونها ، تتطلب انتقالهم الى وسيلة تعبير جديدة مختلفة عما كان حاصلا في الماضي ، بهدف المساعدة بشكل اكثر واوضح في بناء فكر جديد ، وفي طريقة حياة جديدة .. في تغيير جديد في طبيعة المجتمع وعلاقاته .

بدون شك ، ان الرواية من ابرز واعمق وسائل التعبير ، ويمكن ان تعتبر — الى جانب العلم — من المحفزات الاساسية ، ومن الوسائل الاساسية التي تساهم في تغيير مجتمع من المجتمعات . ومع كل هذا فان العمل الروائي لوحده ، لا يمكن أن يلعب — من وجهة نظر عبد الرحمن منيف — هذا الدور الخطير .. ومن الناحية الموضوعية فاننا يجب ان لا نبالغ بأن نعتبر الرواية — بشكل مستقل — هي التي تلعب مثل هذا الدور ، او هي العامل الاساسي فيه .. لكن نلاحظ ، حتى لا شعوريا ، انه في مجتمعات معينة ، وفي اوقات معينة — خاصة في اوقات التغيير والانتقال — تكون الرواية من وسائل التعبير والمساعدة في خلق شيء جديد .

من حسن الحظ ان موضوع الرواية بالنسبة للسلطات العربية مايزال حتى الان موضوعا ثانويا جدا .. فهي مانزال تتصور الرواية وسيلة

أسلوب الإستفزاز .. طريق روايات منيف لتحدّي القارىء

تعبير غير مجدية .. فالرواية حتى الان لم تنزل في أوليات السلطة .. أما موضوع الشعر ، حتى لو كان قصيدة صغيرة ، فانه يلفت النظر .. وهذا طبيعي ، لان القصيدة تنتقل شفاها وبسرعة ، ويمكن ان تلعب دورا عاطفيا مؤثرا في حينه .. اما الرواية فما يزال التصور لها على أنها أداة عديمة الجدوى .. عبارة عن قصة ، لا تؤثر .. هذا من ناحية .

أما الناحية الثانية فهي ان الوضع العربي بتناقضاته ومشاكله يفسح المجال للروائي لان يتحرك قليلا ، مغيرا مواقعه تبعا للظروف السياسية الموجودة هنا أو هناك .. وبالتالي ، فانه يستطيع التعبير عن وجهة نظره باسلوب او آخر .. ولكن مع ذلك ، فان الازمة الاساسية في وطنا العربي في الوقت الحاضر هي « أزمة تعبير » . والروائي ، أو أي كاتب آخر ، يمتلك وسائل « التحايل » اكثر من أي إنسان آخر في محاولة التغلب على هذه الظروف الصعبة التي يعيشها . وطبيعي مانزال القدرة على التعبير موجودة ، حتى الان ، جزئيا ، ولكن بأساليب التحايل وان كانت مموّهة كثيرا وبدائية ، ومع ذلك فان هذه الطريقة في التعبير تلعب دوراً ، بأن تكون نوعا من الرأي العام ، نوعا من المؤثرات تكون ، في النهاية ، نوعا من الحماية للكاتب نفسه .

أي بما ان السلطة مانزال تعتبر الرواية أداة غير مهمة ، فاننا نجد في بعض الاحيان ان بعض الروائيين ، ومنهم على الأخص عبد الرحمن منيف ، « يتجاوزون » على ما تعتبره السلطة « الحريات العامة » .. ومع ذلك فان السلطة تتجاوزهم ، باعتبار انها لا تريد أن تخلق إشكالات بلا معنى ، ولا ضرورة ! ! .

ان بعض المحظوظين من الناس لم يكونوا واقعين تحت ضغط سلطة معينة ، وخاصة في حالة اختيار الغربة أو المنفى ، هؤلاء ربما أعطوا لانفسهم « حريات اضافية » في التعبير عن قضايا معينة .. مما يتحرج كتاب آخرون ، في اقطار اخرى ، في التعبير عنها .. ربما لخشيتهم الوقوع تحت طائلة القانون ، او غضب السلطات .

لكن مع ذلك كله ، فان كل من يحاول التعبير عن افكار معينة ، يواجه عنتا وصعوبات كبيرة جدا .. وبالتالي يضطر أن يقول الأشياء بطريقة ملتوية ، غير مباشرة ، وهذا ، في بعض الاحيان ، يضعف العمل الروائي .

ويعتقد عبد الرحمن منيف ، من خلال رواياته ومواقفه أن الرواية ليست رغبة فقط في تغيير العالم .. وانما في تدمير هذا العالم القائم حاليا .. تمهيدا لخلق عالم آخر افضل ، اكثر سعادة .. واكثر إنسانية .. فاذا كانت الرواية وسيلة من وسائل « التغيير » ، او « التدمير » ، فهي ، بطبيعة الحال ، مانزال وسيلة ثانوية ، لان الظروف السياسية التي يعيشها مجتمعنا العربي ظروف خاصة ، وشاذّة واستثنائية .

وعلى هذا الاساس ، فان مدرسة توظيف الرواية لصالح التغيير أو التدمير تطلب من كل كاتب أن يلجأ الى جميع الوسائل التي من شأنها ان تفعل ما هو اكثر من « تغيير العالم » .. اي الى خلق عالم جديد .. وطبيعي ، فان هذه المهمة وان كانت طموحة ، فهي صعبة .. لكن مع ذلك يجب ان تتم « المحاولة » في سبيلها ، وبكل الوسائل ، لان الرواية ، في الوقت الحاضر ، هي الوسيلة المتاحة ، والاكثر تواضعا في التغيير المتوقع والمطلوب .

وبالطبع ، فان نقل الواقع والتاريخ ، وارادة التغيير ، يجب أن تؤديها رواية مبنية على اسلوب خاص ، يسميه الاستاذ منيف « أسلوب الاستفزاز » .. استفزاز القاريء وتحديه .. من أجل خلق نوع من التحريك لهذه « البحيرة الساكنة » ، على أمل أنه من خلال الكلمة ورد الكلمة يتحقق شيء يحرّك الوضع الساكن الموجود . وهذا يتحقق روائيا عن طريق « البعد الثقافي » الذي يمنحه الروائي لشخصياته . يجب أن يكون دائم التركيز على هذا « البعد » في الشخصية .. فهو يعكس ــ بالضرورة ــ الكثير من افكاره ومفاهيمه الثقافية ، والحضارية ايضا ، عن طريقها .. محاولا ان يحقق هذه « النقلة » في حياة الاخرين من قرائه عن طريق هذا « البعد » .. وهذا واضح جدا في « الأشجار واغتيال مرزوق » .

ان الرواية في الغرب بدأت تتجاوز الاشكال التقليدية ، وتبحث لنفسها عن اشكال جديدة .. والرواية ، بصورة عامة ، وخاصة الرواية القديمة نسبيا ، بالمقارنة مع روايتنا العربية ، هي التي لعبت الدور الاهم في التغيير . وفي التوثيق وفي التاريخ لمجتمعات معينة . صحيح ان المهم بالنسبة لأي كاتب هو الحرص باستمرار على تطوير اساليبه ، بما فيها الاسلوب الروائي ، لكن بنفس الوقت ، الموضوع الان ، هو : ان توجد رواية ، بمعنى انه قبل ان تتطور الاساليب ان توجد الرواية اولا .. ومن خلال وجودها وبنماذج مهمة ، يمكن ان تشكل تقليدا . وهذا « التقليد » بالتراكم التاريخي يمكن ان يعطي اساليب جديدة ، وابداعات وطرقا للتعبير مختلفة عن السابق .

المشكلة بالنسبة للرواية العربية حتى الان ، انها لاتزال في بدايتها .. وبالتالي فان الكثير من المحاولات التي يقوم بها بعض الشباب بهدف البحث عن اسلوب جديد سابقة لاوانها ، وكأنها محاولة للقفز عن امور وتجاوزها . لتوجد اولا الرواية .. ثم نحاول ، من بعد ، ان نطور هذا الاسلوب تدريجيا تمهيدا للانتقال الى اساليب جديدة .

الذي حصل حتى الان هو ان بعض الشباب اخذ الاسلوب الوجودي ، او الاساليب الغربية الحديثة المتطرفة .. انها اساليب سابقة لاوانها . « قصة حب مجوسية » ، كرواية مبنيّة بشكل مختلف عن الروايتين الاخريتين « الاشجار واغتيال مرزوق ، وشرق المتوسط » ، وايضا في الروح وطريقة التعبير التي كتبت بها هذه الرواية ، ولانها رواية غير سياسية ، اعطاها الكاتب مجالا وطريقة في التعبير مختلفة .

ان الروائي عندما يكتب رواية سياسية ، ويقرأها الناس ، فانهم يتصورون انفسهم قد قاموا بعمل سياسي ، وهذا نفسيا يريحهم ، اما بالنسبة لـ « قصة حبّ مجوسية » ، وباعتبار المرحلة الحالية سياسية ، والناس عندهم هموم سياسة كبيرة ، وغير مستعدين لان يقرأوا الا في هذا المجال ، او ضمن هذا الاطار .. فانهم يعتبرون أيّة قصة خارجة عن اطار السياسة فيها نوع من الوضع الخاص والاستثنائي غير المرغوب فيه .. علما بان القضايا متشابكة ، وهناك وجوه متعددة لقضية واحدة .. وبمقدار ما هو ضروري ان يكتب في السياسة ، وتبحث الامور السياسية . فان قضية الحب هي قضية مهمّة .. وتصورها حتماً في لحظات ضعفها ولحظات تخاذلها وهروبها ، قضية تعكس جانبا مهما من حياة الناس .

من حسن الحظ أن السلطات العربية تعتبر الرواية موضوعاً ثانوياً

والذي اتصوره هو ان هذه الرواية من الممكن ان تكون اكثر اهمية في المستقبل من روايات اخرى .. وربما من رواية « الاشجار واغتيال مرزوق » .. فالاشجار واغتيال مرزوق كان من الممكن ان تكتب بشكل آخر ، أفضل .. وتعطى جوانب معينة اغنى واوضح ، لكن لاعتبارات سياسية لم يستطع الروائي تحقيق هذا الهدف ، ولذلك تظل هذه الرواية بحاجة الى اضافات واكمالات واعادة نظر اساسية ، بطبيعة الحال ستجري باشكال مختلفة ، متنوعة .. لكنها ليست الطموح الاساسي .. لا تشكل الطريقة الافضل والاكمل في التعبير عن الكفاءة التي كانت وراءها وهدفا لها ، وهذا راجع في الأساس الى ضغوط يتعرض لها الكاتب حتى خارج وطنه ، وليس من الضروري أن تكون الضغوط نابعة من تواجده الجغرافي .

يقول منيف في مقابلة له أذيعت في أواسط الثمانينات : « في بعض الاحيان اذا نظرنا نظرة سريعة الى عمل معين نحسّ ان فيه سقطات ، أو نقاط ضعف .. وخاصة اذا كان الجو السياسي هو الجو الاساسي المخيم ، اعتقد ان هذا ما حصل بالنسبة لقصة حب مجوسية » .

ويتصور عبد الرحمن منيف أن الرواية العربية في السنوات العشرين الاخيرة استطاعت ان تكون لها قواعد اوضح واقوى من السابق .. ومن خلال هذه القواعد ، وبالاعتماد على العلوم الانسانية وعلى التجارب في الغرب ، وبكل الوسائل الجديدة المتاحة ، « سواء كان الاتجاه الشعري او السينما او وسائل التعبير الاخرى من الرسم وغيره من الفنون » ، قد اتاحت للرواية فرصة كبيرة ومهمة لأن تتقدم كفن كان الى حد ما مجهولا او ضعيفا بالنسبة للغة العربية . ومن هذا الجانب يتوقع ان تبرز الرواية كاحدى وسائل تعبير اخرى اكثر غنى وتعقيدا .. وقادرة على ان تتناول الموضوع من جوانب مختلفة .

القصة القصيرة ، هي لحظة الهام مهمة ، ولحظة تأثير ايضا .. لكن عمقها ونفاذها وتأثيرها الكامل يظل محدودا ونسبيا ، قياسا للرواية .. طبيعي المسرح مهم جدا .. لكن لاعتبارات كثيرة ، سياسية وغير سياسية ، سوف يبقى في بلادنا متخلّفا .. او ليست متاحة له الظروف والبيئة الملائمة لان يلعب دوره البارز . لكن ، وبرغم ذلك ، يبدو ان الرواية والمسرح تتاح لهما الفرص الان اكثر من قبل . والرواية بالتحديد .. ذلك ان المسرح مرتبط بالوضع السياسي .. لما يتركه من آثار مباشرة .

من حسن حظ الرواية انه متاح لها من الاساليب ووسائل التعبير غير ما هو متاح لسواها .. وبمقدار ما يمكن للرواية ان تكون شاعرية ، بمعنى معين ، او ان تستخدم الشعر في طريقتها ووسائلها للتعبير .. يعطيها نوعا من المدى والقدرة على التعبير بأشكال متنوعة وغنية ، بحيث ان مجالات الفن الاخرى اقل قدرة على استخدامها ، فالشاعر مثلا ، مهما بلغ لا يستطيع استخدام اسلوب الرواية بالتعبير ، والعكس صحيح ، وكذلك بالنسبة للفنون الاخرى هنا توجد ميزة يجب ان تستغل الى اقصى حد .. أن تتنوع الاساليب وتغتني .. بحيث ان كل الطاقات والامكانيات المتاحة يجب استثمارها وتوظيفها .

وما زال الكلام فسيحا ، ومجال رؤية عبد الرحمن منيف لعبد الرحمن منيف واسعة .. وخاصة حينما يتقابل السياسي فيه مع الروائي .. تحت سقف القمع أو راية الأمل في المستقبل □

المعارضة في السعودية
التأرجح بين الهوى الإقليمي والوطنية الجامعة !

حمزة الحسن

■ ■ هل هناك خصوصية للمعارضة في السعودية عن نظيراتها في الخليج أو ربما في البلدان الأخرى ، العربية وغير العربية ؟ .. ما هي هذه الخصوصية : في الأسلوب ، في الأهداف ، في الخبرة والتجربة .

المعارضة في المملكة السعودية ، شأنها شأن أيّ معارضة أخرى ، لا بدّ وأن تكون متأثرة بالبيئة التي تنشأ فيها ، وبنوعية المجتمع الذي تعمل من أجله : مستواه الثقافي ، أفكاره وقيمه ، ظرفه الإقتصادي ، كما تتأثر بنوعية السلطة التي تواجهها ، وبالظرف السياسي والاقتصادي للمحيط الاقليمي ، وغير ذلك .

إن المعارضة هي وليدة بيئتها ، وإن كان هذا لا يلغي تأثرها بنمط معين أو بفكر آخر ، أو بتجربة قد تقترب أو تبتعد عن الواقع المحلي . غير أن من المستحيل نقل تجربة كاملة وتطبيقها على بلد آخر ، كما أن نجاح أي معارضة مرهون بالدرجة الأساس بقدرتها على التعبير عن واقع مجتمعها وبيئتها ، ومقدار تجاوبها مع طموحات الناس وأفكارهم وقيمهم ، ومدى معرفتها للخصم وآليات التغيير التي توصل للهدف .

من هذه الزاوية ، يمكن القول أن هناك خصوصية للمعارضة في المملكة ، تميزها عن نظيراتها في بلدان خليجية وعربية أخرى ، وإن كانت تتفق معها في كثير من الخصائص ، بل يمكن القول أن هناك خصوصية لأكثر من معارضة في المملكة ، نظراً لتعدد أقاليمها وثقافة وتاريخ مجتمعاتها .

وبإمكان أيّ باحث لتاريخ المعارضة في المملكة ، أن يقسّمها على أسس مختلفة : كالأيديولوجيا : إسلاميين « سلفيين ، سنّة ، شيعة » ، ويسار بشتّى أصنافه ومسمياته . أو على أساس مناطقي ، أو على أسس اجتماعية : قبلية ، تجار ، مثقفين . أو على أساس وسائل المعارضة وأهدافها : جذرية ، إصلاحية ليبرالية ، وبالتالي عنفيّة مسلّحة ، أو سلميّة ، وهكذا .

ولقد عرفت المملكة كل هذه الأنواع من المعارضة منذ أن تأسس كيانها الحديث وحتى اليوم .. لكننا نرى من المهم النظر الى تأثير الانتماء الاقليمي على عمل كل فصيل من فصائل المعارضة لاسيما تلك التي اقتصر نطاق عملها على اقليم او اقاليم محددة .

□ □ الحزب الوطني الحجازي : الحزب الإقليمي النخبوي

ظهر الحزب قبيل سقوط دولة الحجاز وانهائها على يد الملك عبد العزيز ال سعود ، وتولّى زعماؤه وهم أعيان الحجاز : عبد الرؤوف الصبان ، وفؤاد الخطيب ، والقائم مقام محمد صادق ، وطاهر الدباغ ، وعبد الحميد الخطيب ، ومحمد الطويل وغيرهم ، معارضة الحكم السعودي داعين الى استقلال الحجاز ،

وقاموا بنشاط سياسي واعلامي ضد الحكم السعودي ، واتصلوا بالجمعيات الإسلامية في الهند وغيرها وبالدول العربية كاليمن ومصر والأردن ، من أجل تخليص الحجاز ، كما حاول بعض أفراد الحزب إقامة تحالف مع قبائل حجازية بدوية من أجل الإستفادة من قواها العسكرية .

ورغم أن الحزب لم يكن يمانع من استخدام العنف ، إلا أنه كان حزب نخبة وأعيان ، ولم يكن بالتالي قادراً على القيام بأي عمل عسكري ، وكان نشاطه السياسي مؤثراً بشكل غير قليل . وقيل أن ثورة قبيلة « بلي » في شمال الحجاز عند بداية الثلاثينات كانت بتحريك من أعيان الحزب ، وقالت تقارير بريطانية بأن اعتقالات واسعة قد طالت الحجازيين أثناء ثورة حامد بن رفادة زعيم القبيلة ، الذي قُتل أثناء الثورة ، وتلاعب الصبيان برأسه ــ كما يقول خير الدين الزركلي في كتابه شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ! ــ .

غير أن معظم أعضاء الحزب عادوا الى البلاد بعد إخماد الثورة المسلحة ، وانتهى الحزب من الوجود ، وشغل الملك عبد العزيز بعض اعضائه بالمناصب .

ففؤاد الخطيب الذي كان وزيراً لخارجية الحكومة الهاشمية في عهد الشريف حسين ثم في عهد إبنه الملك علي بن الحسين ، ظلّ ملازماً للأمير عبد الله في شرق الأردن ، قبل ان يعيّنه الملك عبد العزيز سفيراً للمملكة العربية السعودية في أفغانستان حتى وفاته .

ومحمد الطويل الذي كان وزيرا مسؤولاً عن الرسوم والضرائب في عهد الملك علي ، عينه الملك عبد العزيز ناظراً لعموم جمارك الأحساء .

وطاهر الدباغ عُيّن مديراً عاماً للمعارف ، وهو أعلى منصب تعليمي يومئذ .

وعبد الحميد الخطيب ، الذي كان أحد أهم علماء مكة ووجهائها ، والذي فرّ لاجئا الى مصر ورأس جمعية الشبان في مصر ، تمّ تعيينه فيما بعد في الخارجية ثم سفيراً للمملكة لدى الباكستان .

أما عبد الرؤوف الصبّان ، فقد عيّنه الملك

عضواً في مجلس الشورى الحجازي .

في حين تم تعيين القائم مقام محمد صادق مديراً لإحصاء النفوس في المملكة .

لقد تمركز معظم هؤلاء الأشخاص في القاهرة ، وكانت حكومتها الملكية في ظل الملك فؤاد ساخطة على الحكم السعودي ، بسبب استيلاء الوهابيين على الأماكن المقدسة ، وما تلاها من مشاكل للحاج المصري .. وقام الحجازيون بنشاط إعلامي غير قليل ، ولكنهم وبعد مضي نحو عشر سنوات من سقوط دولة الحجاز عادوا الى بلادهم ، بتمهيد قدّمه الملك عبد العزيز ، حيث أصدر عفواً عاماً عن وجهاء الحجازيين في السابع من شوال ١٣٥٣ هـ ، فعادوا وقدّموا اعتذاراتهم للملك عمّا بدر منهم ، وألقوا خطب مدح واعتذار ، بل أن بعضهم ألّف كتب مديح ، كعبد الحميد الخطيب ــ صاحب مؤلف : الملك العادل ــ .

وإذا كان الحزب الوطني الحجازي يعتبر حزباً نخبوياً إقليمياً ، فلأن أهدافه المعلنة كانت تتلخص في تحرير الحجاز من يد السعوديين ، وإعادة بناء الدولة الحجازية التي كانت قلب الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين وأبناؤه .. والحزب الوطني الحجازي هو أول حزب شبه منظّم يضمّ خلاصة أعيان الحجاز وقواه الفاعلة من تجار ، وسياسيين ، وأصحاب مصالح ، ورجال دين .. ومثل هذا الحزب أو التجمّع ، اعتبر نفسه الوريث الشرعي للأشراف ، خاصة بعد ان قضى الإنجليز على حلم زعيمهم الشريف حسين ، ونفوه الى خارج الديار العربية ــ الى قبرص ليموت فيها بعد فترة وجيزة من خلعه ــ .

اما ابناء الشريف فقد انشغلوا بمناصبهم الجديدة : الشريف عبد الله في شرق الأردن ، والأمير فيصل في سوريا ثم في العراق .. في حين تمّ تناسي موضوع الحجاز .. لهذا اعتبر أعيان الحجاز أنفسهم مسؤولين عن تحرير بلادهم ، وكان نشاطهم يلقى دعماً خفياً من العراق والأردن ، وكان الملك عبد العزيز يدرك بأن الحزب رغم ضعفه العسكري ، إلاّ انه يمثل البديل السياسي لحكومته ، فوجد أن من الأفضل استقطاب عناصره ، وإشراكهم في حكمه ، بدل أن يكونوا عامل نقمة وتثوير .

عادت قيادات الحجاز التي اختارت المنفى لتنضمّ الى تلك التي بقت داخل البلاد ، على أمل أن تنفذ ما يمكن إنقاذه ، خاصة بعد أن أدرك هؤلاء أن الأوضاع الإقليمية والدولية تسير باتجاه معاكس لمسعاهم في الإستقلال وبعث دولة الحجاز ، وانخرطوا في أجهزة الدولة على أمل أن يكونوا شركاء في السلطة ، ولقد قدّمت النخبة الحجازية خدمات جلّى للحجاز ولعموم المملكة ، فقد جاء تقنين البلاد من قبلهم ، وأعطوا الكثير من أجل تحديث الإدارة الحكومية ، التي كانت في تلك الأيام الخوالي مجرد أشكال هلامية هزيلة .

أرادت النخبة الحجازية إصلاح الوضع العام في المملكة ، إنطلاقاً من الحجاز ومؤسساته المدنيّة الحديثة المتفوقة على كل ما هو موجود في أنحاء المملكة الأخرى ، وتبوّأوا بحكم تأهيلهم العالي كل المراكز في المؤسسات الجديدة باعتبارهم الأقدر والأكثر خبرة في ادارتها .

لكن هذه النخبة ، كانت تبحث عن « شراكة سياسيّة » بعد أن قبلت ــ وعلى مضض ــ بالأمر الواقع الذي ترتّب على سيطرة الملك عبد العزيز على الحجاز . غير أن العائلة المالكة لم ترد أكثر من إستخدام تلك النخبة كـ « أداة فنيّة »

كل أنواع المعارضة وجدت على أرض المملكة ، وتأثرت بواقعها المحلّي في الغالب ، ولهذا فشلت في مجملها التعبير عن الوحدة الوطنيّة

لتعزيز سيطرة الدولة والحكم على البلاد والعباد ، وبشكل آنيّ أيضاً ، وليس الى إشراك النخبة الحجازية بشكل حقيقي في صناعة القرار السياسي للمملكة الوليدة .

وتنبّهت هذه النخبة بشكل متأخّر الى حالها ، فوجدت أن المراكز التي كانت بيدها بدأت بالتسرّب كما يتسرب الماء في رمال الصحراء العطشى ، فحتى الأجهزة الفنيّة لم يعد الحجازيون الأساس فيها اليوم ، بعكس ما كان عليه الحال في العقود العديدة الماضية .

لقد قبل زعماء الحزب الوطني بالشراكة الجزئية في الدولة ، شأنهم شأن أعيان الحجاز الآخرين الذين بقوا داخل البلاد ، وذلك مقابل تخلّيهم عن موضوع « الإستقلال » .

غير أن الشراكة التي أرسيت معالمها عبر مجالس الشورى الأهليّة ، وتوظيف النخبة الحجازية في بعض مؤسسات الدولة الوليدة والتي كانت بحاجة ماسّة إليها .. لم تعد مرضية للحجازيين اليوم ، ذلك أنهم لازالوا بعد مضي نحو ثلاثة ارباع القرن من الزمن غير قادرين على ضمان تكافؤ في شراكتهم السياسية مع النجديين الذين يسيطرون على مفاتيح السلطة في المملكة .

ان معظم الحجازيين لاسيما النخبة العليا منهم يشعرون بان شركاءهم يعملون دون كلل لازاحتهم الى الهامش ، وقصر مشاركتهم في السلطة على المستويات الدنيا التي لا تجعل منهم شركاء حقيقيين في صناعة القرار الوطني .

ومن هنا فإن نفس النخبة الحجازية ، وذات المواصفات السابقة ــ تجار ورجال اعمال ورجال دين وكتاب وسياسيين ــ تتطلع اليوم الى بديل للحكم السعودي القائم ، يتمثل في دولة يشترك فيها الجميع على قدم المساواة ، لكنهم ايضا لا يستبعدون فكرة العودة الى الماضي التليد الذي فقد يوما ما حينما كان الحجاز دولة مستقلة يعترف بها العالم ، غنية ومتمدينة .

ويبدو أن تجربة الحزب الوطني الحجازي ، تُعاد صياغتها على أرض الواقع ، مع إعادة الهدف الأساسي الذي سبق وأن ناضل الحزب الوطني الحجازي من أجله في الماضي : استقلال الحجاز .

إن عليّة المجتمع الحجازي اليوم ما فتئت تذكّرنا بالجذور الماضية ، فهي وريثة ذلك التراث الإستقلالي الذي لم تتنازل عنه حتى بعد أن تنازل أبناء وحفدة الشريف أنفسهم .. ولم يكن غريباً إذن أن تكون نفس النخبة الحجازية التي استقطبها أبناء عبد العزيز هي التي تقود الإنشقاق ، أو العودة الى الجذور ، وإن كانت مصالح بعض أفرادها توحي للنظام بأنها تخلّت عن مطلب « الإستقلال » كما تخلّت من قبل نخبة الحجازيين في عهد الملك عبد العزيز .

لايزال التجار ورجال الدين والأعمال والمثقفون الحجازيون يدعون اليوم الى استقلال الحجاز ، ويمارس بعضهم أعمالاً سياسية وإعلاميّة شبيهة بتلك الأعمال التي قامت بها النخبة في منفاها بالقاهرة وشرق الأردن في العشرينات وبداية الثلاثينات الميلادية من هذا القرن . يدفعهم في ذلك شعورهم بأن تصورّهم للشراكة اختلف واختلّ لغير صالحهم .

إن المجتمع الحجازي ذا خاصيّة مختلفة ، جعلت المعارضة فيه تتميّز في معظم الأحيان بتلوينات خاصّة ببيئته وظروف شعبه :

● لم تنشأ في الحجاز معارضة واسعة على الصعيد الوطني ، وتتبنّى مطالب عامّة . كان الهمّ الإقليمي هو الغالب على ما سواه وهو

« الإستقلال للحجاز » .

صحيح أن عدداً غير قليل من الحجازيين ، تأثروا بالحركات الوطنيّة في العالم العربي ، خاصة في مصر ، التي كانت على الدوام صاحبة التأثير الأكبر سياسياً ودينياً .. وصحيح أن أقطاب معارضة حجازيين حملوا الهمّ الوطنيّ العام ، وسعوا الى إصلاح وضع المملكة ، وبينهم ضباط في القوات المسلّحة ، وفي أجهزة الأمن كانوا قد تأثروا بالأفكار القومية التي حمل لواءها الرئيس جمال عبد الناصر ، ووقفوا معه ورفضوا حين اشتعلت ثورة اليمن أن يحاربوا النظام الجمهوري الوليد .. بل أن عدداً من الطيارين رفضوا استخدام طائراتهم لقصف القوات المصرية في اليمن ، وفرّ عدد منهم بطائراتهم الحربيّة الى مصر ، في قصّة معروفة ومشهورة .

كل هذا صحيح .. لكن المسحة العامّة للحركة الحجازية المعارضة ــ كما يقول باحثون ــ كانت تغلّب الهمّ الإقليمي ، في حين كان ولايزال بإمكان المعارضين الحجازيين أن يتبوّأوا المقاعد الأولى في الإصلاح ، من أجل المملكة ومن أجل الحجاز نفسه . وإذا كان اختلال مبدأ « الشراكة السياسية » وصعوبة التغيير في هرم الدولة السياسي .. سبباً مباشراً في التركيز على الهمّ الإقليمي .. فإن المناطق الأخرى من المملكة تعاني من نفس المشكلة ، وبصورة أسوأ مما يعاني منه الحجازيون .

● ولم تنشأ في الحجاز حركة شعبيّة معارضة ، يكون الجمهور مشاركاً فاعلاً في صياغتها ، بل وجدت وتوجد على الدوام تجمعات نخبوية ، تعبّر عن طموحات الشارع الحجازي .. إن النخبة الحجازيّة ــ كبيرة الحجم ــ هي التي تغذّي الشارع بمقوّمات الحفاظ على الهويّة ، وتنفخ فيه روح التميّز ، وتالياً طموح الإستقلال والإنفصال .

● ولم تنشأ في مراكز الحجاز المدينية حركات عنف ، فالمجتمع الحجازي بطبيعته مسالم ، يميل الى الإحتفاظ بمكتسباته وما تحت يده ، إنه مجتمع تجاري مدني ، وباعتبار الحجاز مكاناً مفتوحاً لكل المسلمين في العالم ، فقد كان من الطبيعي أن يتصف مجتمعه بالإعتدال ويحمل الأفكار اللينة النابذة للعنف والتطرّف .

وإذا ما وجدت حركات عنف فإنها في الغالب آتية من قبائل الحجاز وليس من مراكزه المدينية ، وقد لاحظنا ذلك مثلاً في ثورة قبيلة بلي . وحدث مرّة أن حاول أحد الطيارين الحجازيين في الأربعينات الميلادية ، هو المرحوم عبد الله المناديلي قصف مخيم الملك عبد العزيز من أجله قتله ، وقيل ان ضباطاً حجازيين خططوا أكثر من مرّة لإعداد انقلاب في القوات المسلّحة .

● وبعد هذا فإن المعارضة الحجازية أو من يصنّفون على أساس معارض ، تحمل ويحملون صفات لا تخطئها العين .. فإضافة الى ما ذكر : تجد تأثر المعارضة بالبيئة الدينية ، مع ملاحظة ان الحجاز لم يعرف في تاريخه منذ بزوغ الإسلام حركات عنف وتشدّد ديني على الإطلاق .. ويمكن ملاحظة ان الحجازيين يميلون الى التكتل والتجمّع ، والتعاون من خلال القنوات الإجتماعية الطبيعية ، ولا يبدو أنهم يحبذون ــ كما أن الأوضاع الأمنيّة الداخليّة القمعية لا تسمح بذلك ــ اعتماد تنظيم سياسي محدّد المعالم كما هو متعارف في البلدان الأخرى ، كما أن معارضة النخبة الليبرالية التجارية ، يصعب تأطير عملها ضمن قنوات حديديّة ، لأنها سرعان ما تنفر من ذلك .

وباختصار .. فإن المعارضة الحجازية تحمل الصفات الأهم التالية : حجازيّة ــ نخبويّة ــ ليبرالية معتدلة دينياً .

□ □ « نجد الفتاة » : من آل سعود الى نجد

يتقاسم العمل الوطني المعارض في نجد تياران من حيث تأثرهما بالأقليم . فمن جهة نلحظ أن معظم قيادات التنظيمات الوطنيّة والتي كانت قاعدتها في المنطقة الشرقية وكوادرها الوسيطة من المواطنين الشيعية ، قد جاءت من نجد .. سواء كانت هذه القيادات تقطن المنطقة الشرقية ، أو نجد نفسها . ومن جهة أخرى ، تبقى مسحة الإقليم مؤثرة على عمل فصائل المعارضة الليبرالية وحتى الدينية ــ السلفيّة ــ .

ولقد وجدنا الكثير من الشخصيات النجدية طيلة العقود الماضية ، ترفد ساحة العمل الوطني في البلاد بنتاج وعمل خصب ومثمر من أجل إصلاح الوضع السياسي في المملكة ، ومن خلال مواقع هذه الشخصيات في الإدارة الحكومية .

وإذا كانت حائل ، عروس نجد الشماليّة ، والتي كانت قاعدة الحكم الشمّري قبل أن ينهيه الملك عبد العزيز ، قد أعطت الكثير من شبابها ورجالها وضحّت بأبناء كثيرين لها من أجل الوطن بمجمله .. فإن منطقة القصيم ، كما يشهد تاريخها المعاصر والغابر الأقل مطواعية للعائلة المالكة ونظامها السياسي .

لقد حملت بعض أصناف المعارضة في نجد مواصفاتها الخاصّة بها ، وهي في الغالب الأعم : إقليميّة الهوى ، مذهبيّة ، عنفيّة .

وفي بعض الأحيان ، يجمع بعضها الصفات الثلاث .

● إن حركة الإخوان التي نشأت في منتصف العقد الثاني من القرن الميلادي الحالي ، والتي قام على اكتافها عبء التوسع ، والتي تحوّلت فيما بعد الى حركة معارضة للملك عبد العزيز حتى صفّاها وصفّى قيادتها في يناير ١٩٣٠ .. هذه الحركة كانت تؤمن بإدخال الناس في الدين حسب فهمها : بالعنف وقوّة السلاح ، ومع أن من المفترض في حملة رسالة ظاهرها الدين وتجديده ، أن تنظر الى الناس باعتبارهم سواسيّة ، وتبتعد عن اعتبارات الأصول والأعراق والأقاليم ، إلا أن حركة الإخوان التي انضمّ اليها كل المجتمع النجدي بالقهر او بالرغبة ، لم تفلت من الداء الإقليمي . ولا ينكر في المقابل إخلاص الكثيرين في المعارضة السلفيّة ، وهناك الكثير من المتدينين الواعين الذين يتحركون في معارضتهم اليوم للحكم القائم على أساس مشروع وطني بعيد عن الإقليمية الضيّقة ، وعن الطائفيّة المريضة ، ولقد وجد أيضاً الكثير من السلفيين من مناطق مختلفة من غير نجد ، بما يعزّز الإنطباع بأن حركة « الإقليم » بدأت بالتراجع .

● ومثل حركة الإخوان اقتفى أثرها مجمل الحركات السلفيّة التي ظهرت على الساحة النجدية .. فلا يزال ينظر لها الكثيرون من أبناء الوطن على أنها حركة مصابة بداء « الطائفية » حتى وإن لم تقصدها بذاتها ، بمقدار ما كان للتشدّد في فهم الدين أثرا على تلوينها الطائفي .

أما العصبيّة النجدية التي كانت إحدى أدوات الصراع ابان تأسيس المملكة ، فإنها بدأت تخفّ في الوسط الديني السلفي ، بعد أن أصبح متاحاً أمامها أن تكسب الأنصار والأعوان في مناطق مختلفة من البلاد التي جمعتها وحدة سياسية .

وأما العنف ، فرغم أن المعارضة السلفية استخدمته على نطاق واسع أو أريد لها أن تستخدمه في العقدين الثاني والثالث من هذا القرن ، ورغم أن حركة المرحوم جهيمان عادت وأكدت عليه في نوفمبر ١٩٧٩ م .. فإن شعوراً لدى الكثيرين ، ولدى النظام نفسه ، بأن الحركة السلفية الحاضرة والتي نشطت خلال الأعوام الثلاثة الماضية أصبحت أقلّ ميلاً للعنف ، لظروف المجتمع السياسية والإقتصادية ، ولإحكام أجهزة الأمن القبضة الحديدية .

وحتى إن كانت هناك توقعات لأعمال عنف ، وهي كبيرة ، إلاّ أنها ستكون في الأغلب الأعمّ محدودة ، فلقد أصبحت القاعدة السلفيّة مع مرور العقود من السنين أقلّ ميلاً اليه ، وإن بدا أن عدداً من قادة التيار السلفي يحبّذونه وربما يهددون باستخدامه .

إن حركة أحفاد « الإخوان » التي قادها

المرحوم جهيمان العتيبي في نوفمبر ١٩٧٩ ، والتي وصفها النجديون أنفسهم ، ومن مختلف شرائحهم ، بأنها كانت متطرّفة ، لأنها حملت السلاح في البيت الحرام ، وقاتلت النظام الذي اعتبر أنصارها من الخوارج ! .. أكّدت أيضاً على مذهبيّة الحركة ، وبدا ذلك واضحاً في عدائها الشديد للمواطنين في شرق البلاد وغربها وجنوبها ، من الذين لا يعتقدون بمذهب الدولة الرسمي .. وكان جهيمان يشنّع على الدولة السعودية ــ كما يرد تكراراً في كتبه ــ لأنها سمحت لمن هم على غير طريقته بالحج ، بل بأن يكونوا مواطنين في الأساس .. يقول المرحوم جهيمان في رسالة بيان الشرك وخطره : « لماذا لا يكفّر اليوم من يدعو علياً وفاطمة رضي الله عنهما ، وكذلك من يدعو الرسول ﷺ من دون الله ؟ . ولماذا تُرك العمل بقوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ ؟ . بل نرى المشركين الشيعة وأمثالهم يملؤون مكة والمدينة ويجاهرون بشركهم ؟ ! . ثم نتساءل : هل وجد في دين الإسلام من يأخذ الزكاة من الروافض ، ويعطيهم الإعانات ، ويعتبرهم من رعاياه ، كما يعامل اليوم رافضة الجنوب ــ جنوب البلاد ــ والأحساء » ! ! .

● والحركة السلفيّة الأخيرة التي برز أقطابها بعيد احتلال العراق للكويت ، اعتبرت من قبل النظام ومجمل الليبراليين في البلاد ، حركة عنف وتطرّف ، ودعا بعض اقطابها الى حمل السلاح ، وضرب الأعناق بالسيوف ، ليس لرموز النظام فحسب بل لآخرين لا يعتبرون أنفسهم في حالة عداء معهم ! . ورغم وضوح تمذهبها وعنفها « انظر العدد السادس من مجلة الجزيرة العربية ، السنة الأولى » ، إلاّ أن البعض يلتمس لها ولأنصارها العذر ، بأن من طلب الحق فأخطأه ، ليس كمن طلب الباطل فأصابه .. وأن بيئة الإنغلاق والثقافة الأحادية ساهمت في مثل هذا التوجّه ، وأن النظام نفسه لايزال أحد محركات التعصّب والعنف بسبب ممارساته الفاسدة وقمعه الشديد .

● الشيء المدهش ، هو أن الحركة الليبرالية المعارضة في نجد ، والتي تضمّ نخبة المثقفين ، يعارضون النظام بطريقة تبدو لكثير من الناظرين والمراقبين وكأنها لا تشذّ عن قواعد الهوى الإقليمي .

فرغم أن مثقفي نجد لعبوا دوراً مستنيراً كبيراً في الخمسينات الميلادية وبداية الستينات لإخراج الحكم من أيدي الأقليّة الحاكمة ، ومارسوا دوراً أساسياً في النضال الوطني في كافة بقاع المملكة .. إلاّ أن بعض هؤلاء لمعارضين اليوم ، لا يعتبرون أنفسهم معنيين بكامل التراب الوطني .. وإنهم لا يسعون لإنصاف من هم على شاكلتهم في المناطق الأخرى .

لقد أصبح إصلاح النظام عند بعضهم يعني : إشراك مثقفي نجد في السلطة مع العائلة المالكة ، وعلى أحسن التقادير : فإن البعض قد يكون مهتماً بإخراج السلطة كاملة من يد آل سعود ، لتتداول في المحيط النجدي بحيث لا تتجاوز أسواره .

ومما يؤسف له أن نجداً التي تعتبر قاعدة التوحيد السياسي للمملكة يصرّ بعض مثقفيها على دور نجد « الحاكم » و « المتميّز » .. بل ويصرّ هؤلاء على الهويّة المذهبيّة أيضاً ، وليس في ذلك ضير ، لأنها أصبحت أساس الهويّة النجديّة .

ويقول الكثير من المثقفين الليبراليين النجديين ، أنه ليس من مصلحة المملكة أن تنزوي المعارضة النجدية المطالبة بالإصلاح فتحصر نفسها في إقليمها لأن ذلك يخنقها ، ويضرّ بسمعتها ، بل ويضرّ بحركة المعارضة الإصلاحية التي تجتاح المملكة من شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها .

وهناك خشية لدى عدد من مثقفي المملكة ، بأن تكرر تجربة تنظيم « نجد الفتاة » في جانبها السلبي . فرغم الإيحاءات غير المريحة للإسم ، إلاّ أن التنظيم ضمّ بين صفوفه خيرة شباب نجد من الذين اسهموا وضحّوا بما كان بين أيديهم من سلطات من أجل تصحيح العلاقة بين العائلة المالكة وشعبها ، وتحرّك التنظيم رغم وجود بعض الأهداف الإقليمية ، من أجل اهداف وطنيّة عامّة ، وكان بين مؤسسيه من خدموا المملكة وأصرّوا على وحدة كيانها السياسي .

الخوف ، هو أن يغلّب الجانب الإقليمي ، إسماً وفعلاً .

لقد تأسّس تنظيم نجد الفتاة في الخمسينات ، وضمّ بين صفوفه الطبقة العليا من العاملين في جهاز الدولة ، وشددت مطالبه المعلنة على الإصلاح السياسي ، وخاضت قيادته وبينها الطريقي والأمير طلال صراعاً مريراً لإجبار العائلة المالكة على تقديم تنازل ما للمواطنين ووضع البلاد على طريق الإصلاح باعتماد دستور وإنشاء برلمان وتطبيق نظرية الحكم اللامركزي .. مع أن هناك من يعتقد بأن حركة التنظيم كانت تستهدف في حقيقتها : إعطاء مثقفي نجد دوراً أكبر في جهاز الخدمة الحكومي ، وإشراكهم في إدارة الدولة .

وفي الحقيقة فإن هذا الأسم : نجد الفتاة ، يثير الإستغراب الشديد .. إنه يحمل شعوراً إقليمياً متعاظماً للغاية .. ومن الصعب ان يلقى تفهماً اذا كان حملته يمثلون المقاطعة الحاكمة .. ولو أن الحجازيين فعلوه في الغرب أو الشيعة في الشرق ، لما كانوا ملومين لأن مناطقهم أو بعضها على الأقل تبحث عن دور او مشاركة ولا معنى لتميّز نجد المتميّزة هي فعلاً بالحكم إلاّ إذا كان المستهدف فصلها عن جسد الدولة .

ولو كان الإسم : السعودية الفتاة ، على غرار مصر الفتاة أو تركيا الفتاة ، لما كان الإسم يثير ما أثاره من اندهاش واستغراب ، خاصة أنه لا مقا لنجد بدون جناحيها في الشرق والغرب .

ويمكن تلخيص ما يتعلق بالمعارضة في نج في الآتي :

أولاً : بحكم إنغلاق نجد عن العالم لقرون طويلة ، كان لا بدّ لأهلها أن يحتفظوا بعصبيّته ويمجّدونها ، وكان من الطبيعي أن تتأثر توجّهات المعارضة بهذه العصبيّة .

ثانياً : لقد ولدت الأفكار المذهبيّة ضمن بيئ مغلقة كانت الى الستينات الميلادية بعيدة عن التواصل مع العالم .. ويعتبر الإنغلاق مؤثراً في توليد أيديولوجيات العنف والتطرف ، بسبب عدم التواصل الفكري مع الجوار فضلاً عمّا هو أبعد منه .

ثالثاً : إن المعارضة في نجد ، سواء كانت سلفيّة دينيّة ، أو إصلاحيّة ليبراليّة ، تستهدف الحصول على نصيب من السلطة ، باعتبار أن آل سعود لا يمثلون سوى بيت من بيوتات نجد . ولكن بعض المعارضين النجديين يتفقون مع العائلة المالكة في تقديم نجد على ما سواها من المناطق ، وأن تكون لها السيطرة وقصب السبق في كل الأمور .

إن عدداً من مثقفي نجد ــ سواء كانو ليبراليين أو سلفيين أو حتى قبليين ــ يحصرون اليوم خلافهم مع النظام في أمر جزئي : أن يكون لهم تمثيل في الحكم بنسبة أكبر مما كان في السابق ، وهذا هو سرّ الخلاف الحالي بين السلفيين وآل سعود ، وهذا هو سرّ تذمّر النخبة النجديّة الليبراليّة ، التي تبدي حرصاً كبيراً على النظام ، ولا تريد أن تمسّ بأساساته .

ما بين المعارضة النجدية والعائلة المالكة شعرة واحدة : فقد تجدها معارضة أشد المعارضة للنظام ، ولكنها قد تنقلب في لحظة من اللحظات الى أهم الداعمين له .

وإذا كانت تجربة الفكر السلفي وما يولده من حركات عنف قد عززت قناعة الكثيرين ، بأن الموجة السلفيّة الحاليّة ستستخدم العنف من أجل إسقاط النظام والسيطرة على الحكم ، لتكوين حكم ومذهب نجدي صرف يفرض على كل الشعب ممارسته .. فإن إمكانيّة انقلاب السلفيين الى موالين كما كانوا في السابق ، أمرٌ متاح ، إذا ما أحسن الملك فهد إدارة اللعبة السياسية معهم

رابعاً : المعارضة الدينية في نجد تنتظم في تيار واسع ، وهي قليلة التنظيم ، وتتحلّق حول عدد من المشايخ . أما المعارضة الليبرالية ، فهي أشبه ما تكون بتجمّع للنخبة . ولربما كان من الصعب جداً إيجاد تنظيم في صفوف المعارضة في المنطقة الوسطى ، ذلك أن الروابط التقليدية ، خاصة القبليّة ، هي أحد العوائق الأساسيّة لأي تنظيم . بل أن بعض التجمعات الدينية السلفيّة تعتبر التنظيم « بدعة » ، وهو ما يقول به المرحوم جهيمان ومن يقتفي أثره ، ولولا نجاح بعض التنظيمات الإسلامية في العالم العربي ، واحتكاك جمهور غير قليل من السلفيين بها ، لما وجد حتى الآن التنظيمات المبتدئة الكثيرة على الساحة .

□ □ المعارضة في الشرق : مثاليّة ، منظّمة ، شعبيّة

كانت مناطق الشيعة في شرق المملكة وعلى الدوام بؤرة توتر .. ولم يكن السبب في ذلك يعود لمجرد السخط من استبداديّة النظام الحاكم ، وحرمان المنطقة وأهلها من المشاركة في الحكم فقط .. بل الأهم من كل هذا هو أن سياسة التمييز الطائفي التي اتبعت ولاتزال منذ عام ١٩١٣ .. جعلت أهالي المنطقة معزولين عن الحياة السياسية بشكل عام ، ويصنّفون كمواطنين من الدرجة الثالثة ، محرومون من حقوق المواطنة .

وإذا كان « المذهب » الذي يدين به معظم مواطني الشرق يعتبر السبب المباشر في اضطهادهم .. فإن من المدهش ملاحظة التالي :

● أن المعارضة الشيعية ، لم تكن منذ بروزها المنظّم في الخمسينات الميلاديّة ، وحتى منتصف السبعينات الميلادية تصنّف مذهبياً .. لم يتم التصنيف إلاّ في وقت لاحق ، بعد نشوء الحركة الإسلامية الحديثة في المنطقة ، حتى وإن كانت هذه الحركة تحاول أن تبعد نفسها عن التصنيف المذهبي ، أما في السابق فقد كانت التنظيمات العاملة في الوسط الشيعي تحمل عقائد مختلفة : قوميّة ، بعثيّة ، ويساريّة متطرّفة ، وبالتالي كانت بعيدة عن التصنيف المذهبي .

كان من المتوقع أن ينكفيء المواطنون على أنفسهم ويدافعوا عن ذاتهم على أرضيّة مذهبيّة ، مثلما يتم تحجيمهم بسبب المذهب ، ولكن ذلك لم يحدث طيلة ثلاثة عقود ، وإنما حدث ذلك بشكل متأخر .

من بين الأسباب التي أبعدت المذهب عن الصراع من طرف المعارضة الشيعيّة ، هو عقائديّتها السياسية ، ذلك أنها كانت تحارب من قاعدة فكريّة غير دينيّة .

ومن جانب آخر ، كان شعور الشيعة بشكل عام ، شعور الأقليّة ، وكانت هناك خشية أن توصم — رغم أقليتها — بالطائفيّة ، حتى وإن كانت موجهة ضد نظام طائفي .

● في الوقت الذي نجد فيه النخبة الحجازية تركّز على استقلال الحجاز ، وترفع شعار : « الحجاز للحجازيين » .. وفي الوقت الذي تتلوّث فيه النخبة الحاكمة وبعض المقرّبين منها في أوحال الإقليمية ، فإن المعارضة الشيعية — وهذا من الأمور المثيرة حقاً — لم تطرح في يوم من الأيام ، مسألة استقلال المنطقة الشرقيّة بخيراتها عن جسد الدولة الأم . لم يطلب الشيعة — المحرومون من حقوق المواطنة أساساً — بانفصال أو استقلال ذاتي يرفع الحرمان والغبن عنهم ، بل كان نضالهم يستهدف تغييراً في أسس الحكم ، تعيد الإعتبار اليهم ، وتحقق المصلحة لعموم الوطن .

وهذا ما جعل البعض ينظر الى المعارضة الشيعية وكأنها معارضة « مثاليّة » تفكّر في المجموع قبل أن تفكّر في ذاتها وواقعها ، بعكس عدد من شخصيات وحركات المعارضة في المناطق الأخرى .

● المعارضة الشيعيّة لم تكن في يوم من الأيام ، معارضة نخبة ، بل كانت معظم الحركات التي انبثقت في الوسط الشيعي أو التي شكّل الشيعة أغلبيّة فيها : شعبيّة ، لم يقدها أحد ذو ارتباط بالأجهزة الحكومية العليا ، أو صاحب منصب حكومي رفيع .. كانت الطبقة الوسطى هي القيادة وهي القاعدة . وكانت الطبقة العليا من التجار — رغم قلّتهم في الوسط الشيعي — ومن القيادات التقليدية والبيوتات الحاكمة ، بعيدة في الغالب عن مسار الحركة المعارضة .

● والمعارضة الشيعية كانت على الدوام أرقى تنظيماً من مثيلاتها في مناطق المملكة المختلفة ، لقد كانت منظّمة وفق مقاييس التنظيم المتعارف عليه في البلاد العربية الأخرى ، ومنذ زمن غير قصير . ولقد نبتت كل حركات المعارضة الوطنيّة الشيعية بمختلف هوياتها وأيديولوجياتها ، في أرض يسهل الزرع فيها ، فقد كان المواطنون الشيعة يبحثون عن أيّة راية معارضة للإلتفاف حولها ، يدفعهم في ذلك الشعور بالظلم والقهر والتمييز ، فكانوا بحقّ وقود كل حركات المعارضة المنظّمة .

كانت بعض هذه الحركات عنفيّة ، أو على أقل تقدير لا تمانع من استخدام العنف ضد النظام .. وكانت في أكثرها والى وقت قريب جذريّة ، لا تستهدف تغيير أوضاع الطائفة الشيعية وتحسينها ، بقدر ما تبحث عن حلّ شامل لمشكلة الوطن .

وبالرغم من أن معظم الحركات الوطنية التي نشأت في الساحة الشيعية ، وساهم في قيادتها في الغالب كوادر سنيّة ، لم تتجاهل موضوع التمييز الطائفي ، ودعت الى إلغائه .. إلاّ أن هذا المطلب كان أحد الموضوعات وليس أهمها .. ولم يتم التركيز على موضوع التمييز هذا وضرورة حلّه ، وإعطائه أهميّة قصوى إلاّ على يد الحركات الدينية الشيعية ، وفي مقدمتها منظمة : الثورة الإسلامية التي تأسست في العام ١٩٧٥ م .

ولربما ، كان من أهم أسباب الدعوة الى حل المعضل الطائفي ، هو ان التنظيمات غير الدينية السابقة لم تستطع من خلال تبنّي مطالب وطنيّة عامّة تحقيق مكاسب يعتدّ بها لقاعدتها ، في وقت كان الهمّ المحلّي يشغل بقيّة المناطق عن تبنّي الإصلاح العام لخير الوطن بأكمله .

التنظيمات السياسية

كما ذكرنا ، فإن معظم التنظيمات الوطنيّة ، اتخذت من المنطقة الشرقية قاعدة لها ، لوجود أرض خصبة للمعارضة بشكل عام ، من بين هذه التنظيمات :

○ **أولاً ، جبهة الإصلاح الوطني** : أعلن عن تأسيسها في العام ١٩٥٣ م ، وكان محور نشاطها في المنطقة الشرقيّة ، بين صفوف العمال في المنشآت النفطيّة الذين كانوا طيلة الخمسينات الميلادية يخوضون صراعاً شاقاً مع شركة أرامكو والحكومة السعودية على حدّ سواء ، من اجل تحسين أوضاعهم المعاشية من قبيل زيادة الرواتب وتعديل احوال السكن والمواصلات والضمان الإجتماعي وغيرها .

واستقطبت الجبهة التي ضمّت بين قيادتها عدداً من المتعلمين عناصر من مناطق أخرى ، وكان لها بعض النشاط في المنطقة الوسطى . أمّا أهداف الجبهة فكانت وطنيّة عامّة : إصلاح النظام السياسي ، بوضع دستور وتأسيس برلمان منتخب ، وإجازة الأحزاب والنقابات ، وتوسيع رقعة التعليم ، ومكافحة نشاط شركة أرامكو ، وإلغاء قاعدة الظهران الأميركية ، وغيرها .

ووجهت الجبهة بحملات قمع متتالية ، وقبض على كثير من قيادات العمال ، وفي عام ١٩٥٨ ، تأسس على أنقاضها : جبهة التحرير الوطني ، ولكنها لم تكن فاعلة — رغم جذريتها ودعوتها لإسقاط النظام بالقوة — . وفي عام ١٩٧٥ ، قام بقايا من كوادرها ببعث نشاطها وإعادة النظر في أسمها ، وتحولت الى : « الحزب الشيوعي في السعودية » .

○ **ثانياً ، اتحاد شعب الجزيرة العربية :**
والتصق إسمه بإسم أمينه العام السيد ناصر السعيد ، وهو من مواليد حائل في نجد ومن عائلة معارضة ، وقد اختطفته المخابرات السعودية من بيروت في ديسمبر ١٩٧٩ . والإتحاد تنظيم ناصري أسّس في منتصف الخمسينات ، وهو أشبه ما يكون بتجمّع منه الى تنظيم . وقد كانت قاعدته الأساسيّة في المنطقة الشرقية ، التي تأثرت بشدّة بمواقف وأفكار الرئيس المصري جمال عبد الناصر أكثر من أي منطقة أخرى من المملكة ، وكانت هناك قلّة من الأنصار للإتحاد في المناطق الأخرى ، وقام الإتحاد بنشاط إعلامي في صفوف أبنائها .

والإتحاد ، تنظيم يدعو الى العنف في التغيير واستخدام السلاح للإطاحة بالنظام السياسي وتصفية جميع أمراء العائلة المالكة ، وأهدافه الجذريّة لم تؤثر على دعوته لتأسيس برلمان منتخب ودستور حر ، واطلاق الحرية للأحزاب والمنظمات ، والصحافة والنشر ، وقطع الروابط بالولايات المتحدة الأميركية ، وعلى الأخص إلغاء القاعدة الأميركية في الظهران .

وقد حاول عبد الرحمن الشمراني الذي كان على علاقة وثيقة بناصر السعيد أن يقوم بانقلاب وقيل محاولة اغتيال للأمير فيصل ــ الملك فيما بعد ــ في الطائف عام ١٩٥٥ ، ولكن محاولته باءت بالفشل وأعدم أمام مرأى ومسمع من الجنود في معسكر بالطائف .

وقام الإتحاد بتفجيرات عديدة لأنابيب النفط ، عقب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ثم في عام ١٩٦٧ ، وذلك لإجبار الحكومة السعودية على إيقاف التصدير ، وتلت ذلك موجة اعتقال واسعة في صفوف الناصريين وكل المعارضين ، لأن أجهزة الأمن حينها لم تكن تستطيع التمييز بينها في ظل موجة من الولاء العارم للرئيس عبد الناصر وسياساته .

وفي الحقيقة فإن التيار الناصري في المملكة في مرحلة الخمسينات والستينات كان كبيراً ، وقد فشل الإتحاد في احتواء التيار ، لأن قنواته كانت صلبة لم تتسع للكثيرين ، ولأن التيار كان أكبر من أن يستوعبه تنظيم واحد .

أهم نشاطات الإتحاد إعلاميّة ، فقد دأب ناصر السعيد على كتابة الكتب وتوزيع المنشورات ، كما كان يدير برنامج « أعداء الله » الموجّه ضد العائلة السعودية المالكة وفسادها ، وذلك من إذاعة صوت العرب بالقاهرة ، وحين قامت الثورة اليمنية ١٩٦٢ انتقل الى اليمن مؤملاً أن يكون بإمكانه جذب مجموعات من الشبان السعوديين لقيادة النضال المسلح ، فافتتح ناصر مكتباً للإتحاد في صنعاء ، وأشرف على إعداد برنامج إذاعي حمل إسم « أولياء الشيطان » .

وضعف نشاط الإتحاد كثيراً بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ، وتفرّقت قاعدته ، كما أن العديد من قياداته السابقة عادت الى البلاد بعد إعلان العفو العام في ١٩٧٥ بعد مقتل الملك فيصل .. وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ اختطف ناصر السعيد ، فلم يبق للإتحاد اي وجود ، اللهم إلاّ تراثه من الكتب والنشرات الإعلامية .

○ **ثالثاً ، حزب البعث العربي الإشتراكي :**
وهو امتداد لنشاط حزب البعث في سوريا والعراق ، نشط في بداية الستينات الميلادية ، وتوسّع نشاطه بعد وصول البعثيين الى السلطة ، ولكن الحزب ما لبث ان انشقّ على نفسه نتيجة الخلاف بين قيادتي سوريا والعراق .

ويعتبر حزب البعث ــ فرع العراق ــ من أنشط الأحزاب المنظّمة التي ظهرت على الساحة ، فقد امتدّ نشاطه الى كل المؤسسات الإجتماعية من مدارس وجمعيات وأندية وشركات .. وكانت له تحالفات ونشاطات واسعة في صفوف الجيش ، وخاصة في القيادة الجويّة في قاعدة الظهران ، وتضاعف نشاطه بعد نجاح البعثيين في الوصول الى الحكم في العراق عام ١٩٦٨ ، وبعد عام واحد ، أي في عام ١٩٦٩ ، قام الحزب بالإعداد لإنقلاب عسكري ولكنه كُشف واعتقل العشرات من العسكريين والضباط والمئات من المواطنين في المنطقة الشرقية ، واجتاحت حالة من الرعب صفوف المواطنين الشيعة بسبب شدّة الحملة الأمنيّة وقسوتها ، وقد قضى العشرات من المواطنين نحبهم في السجون بسبب التعذيب .

وبعد أن تلقّى الحزب تلك الضربة القاصمة ، وتشرّدت قيادته في الخارج ، ضعف نشاطه .. واكتفى بنشاط إعلامي انطلق من بغداد ، وكان من أهم أصداراته مجلّة « صوت الطليعة » الرصينة ، والتي توقّفت بعد أن عقد صدام حسين تحالفاً مع المملكة وحكومات الخليج في بداية الثمانينات لمواجهة الثورة الإسلامية المنتصرة في ايران . فعُطّل نشاط الحزب ، وضيّق على قيادته التي هي في أغلبها شيعية ، أو تقطن المنطقة الشرقية ، وأعلن صدام حسين مراراً استعداده لتسليم علي غنام ، وهو سنّي من مدينة الجبيل ، وعضو القيادة القومية في العراق ، الى أجهزة الأمن السعودية .

وفي الوقت الحالي ليس هناك نشاطاً إعلامياً للحزب ، وترك معظم أعضائه العمل ، فاسحاً المجال للحركة الإسلامية الوليدة التي شقّت طريقها في الوسط الشيعي لتأخذ مواقعه بين الجمهور ، شأنه شأن معظم الأحزاب اليسارية التي عجزت عن مواكبة المستجدات على الساحتين الداخلية والخارجية ، خاصة بعد تصاعد قوّة الحركة الإسلامية في مختلف مناطق العالم العربي والإسلامي .

○ **رابعاً ، الحزب الديمقراطي الشعبي :**
وهو حزب ماركسي ــ ماوي ، تأسس عام ١٩٧٠ م ، ودعا الى إسقاط النظام السعودي عبر الحرب الشعبيّة ، وبعث بعض عناصره للتدرب على السلاح والقتال في ظفار بسلطنة عمان .

وانضمّ للحزب عدد من عناصر التنظيمات الصغيرة أو المنشقّة على بعضها ، من بينهم أعضاء سابقون في حزب البعث ، انشقوا وكونوا تنظيماً يحمل اسم « الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير الجزيرة العربية » معتمدين أفكاراً ماركسيّة لينينيّة ، ومن بينهم أيضاً كوادر عملوا تحت مظلّة منظمة « الثورة الوطنيّة في الجزيرة العربية » كانت إحدى الفصائل المنضوية تحت لواء حركة القوميين العرب .

لم يخرج الحزب الديمقراطي الشعبي على المألوف ، فقد كانت قاعدته الأساسية في المنطقة الشرقية بين عمّال النفط والمتعلّمين ، كما وضمّ في صفوفه بعض الأنصار من مناطق أخرى في المملكة ، وقيل أن الحزب كان من أوائل التنظيمات السياسية التي استطاعت ضمّ عناصر نسائية في صفوفه .

بعد أقلّ من عامين من تأسيسه تعرّضت عناصر الحزب الى الإعتقال طالت كوادره ، فركز جهوده على العمل السياسي والإعلامي خارج المملكة منطلقاً من اليمن الجنوبي ، فصدر العدد الأول من مجلّة « الجزيرة الجديدة » في مارس ١٩٧٢ ، وصدر من المجلّة سبعة أعداد الى أن توقفت في عام ١٩٧٤ .. وأدارت كوادر الحزب برنامجاً إذاعياً من جنوب اليمن بإسم « صوت الجزيرة العربية » لم يطل عمره هو الآخر .

وأقامت قيادة الحزب علاقات مع المناضل ناصر السعيد ، وساهمت في تأسيس « رابطة أبناء الجزيرة العربية » قبل مقتل الملك فيصل في أواسط السبعينات ، انطلاقاً من دمشق .

وبعد انشقاقات عاصفة أصابت الحزب ، حول الأيديولوجيا ، وأساليب التغيير .. أبدى الحزب في أواخر أيامه ليناً فيما يتعلّق بالإسلوب ، فقد أيّد الدعوات المطالبة بالإصلاح السياسي للنظام ، وأعلن استعداده لممارسة المعارضة من منبر البرلمان فيما لو تحقق ذلك .

وبمقتل الملك فيصل ، وصدور العفو العام عن المنفيين السياسيين .. عادت الكوادر والقيادات الى البلاد ، وانتهى تنظيم الحزب بعد أن تخلّى العائدون عن العمل السياسي .

○ **خامساً ، الحزب الشيوعي في السعودية :** قام على أنقاض جبهة التحرير الوطني ، وذلك في الحادي والثلاثين من أغسطس ١٩٧٥ ، حيث انعقد اجتماع لكوادر يسارية سابقة وأعلنت حلّ الجبهة ، وتحويل إسمها الى : الحزب الشيوعي .

ويؤكد الحزب الشيوعي على الإلتزام بالماركسية اللينينية ، وعلى العلاقة بدول المعسكر الإشتراكي ، وبالأحزاب الشيوعية في المنطقة العربية .

مشكلة الحزب الشيوعي في السعودية ، غربته الفكرية ، فلم يكن مقبولاً من المجتمع خاصة وأنه اتخذ اسماً صريحاً وقد كان ذلك باعتراف أعضائه خطأ قاتلاً .. ثم ان الحزب الذي يفترض فيه الدفاع عن العمال ، لم يجد دعماً حقيقياً في صفوفهم ، لعقيدته الصدامية أولاً ، ولأن الحزب نشأ في فترة ازدهار للمدّ الإسلامي ، فضلاً عن أن ارامكو استطاعت امتصاص أهم مشاكل العمال في حقول النفط ، والعمال على أيّة حال قلّة قليلة في المجتمع .

لهذا كان الحزب الشيوعي بلا قاعدة حقيقية ، ونظراً لأن القاعدة استعصت عليه ، فقد لجأ الى استقطاب أفراد من المثقفين ممن يبحثون عن التغيير ، فانضوى تحت جناحه عدد منهم ، وركّز جهوده على بناء الكادر ، وبعض النشاطات الإعلامية المحدودة ، فقد أصدر بعض الكراسات ، كما أصدر نشرة صغيرة تحمل إسم « صوت الكادحين » ، ودأب عدد من كوادره على المشاركة في التجمعات والمؤتمرات للأحزاب الشيوعية التي تعقد في أماكن شتى من العالم ، كما اهتمّ بقدر لا بأس به بموضوع « حقوق الإنسان » في المملكة والإنتهاكات الكثيرة لحقوق المواطنين .

لقد كانت قاعدة الحزب الشيوعي وكذلك كواده في المنطقة الشرقية ، وحاول ان يمدّ خطوطاً في مناطق مختلفة من المملكة ، ونجح بقدر قليل في استقطاب عدد من المثقفين هناك ، وكان بينهم المرحوم خالد النزهة الذي قتل تحت التعذيب .

لم يدع الحزب الشيوعي للعنف وحمل السلاح ، وإن كان لم يمانع من استخدامهما ، وفي المقابل أكد في نشراته على ضرورة « إصلاح » الأوضاع في المملكة وطالب بما تطالب به مختلف التنظيمات والفاعليات السياسية : مجلس شورى منتخب ، ودستور مكتوب ، وحرية الصحافة والتجمعات ، واحترام حقوق الإنسان الأساسية .

أدرك الحزب الشيوعي صعوبة شقّ طريقه في وسط شعبي محافظ ، ونظراً لتناقضه الفكري مع كل ما يمتّ الى الدين الإسلامي بصلة ، وجد نفسه معزولاً عن الأحداث التي تفجرت قبل ثلاث عشرة سنة ، حيث قامت انتفاضة عارمة في مناطق الشيعة صحبها تظاهرات يومية صاخبة وعنف وقتلى على يد قوات الأمن السعودي ، وفي المنطقة الغربية قام المرحوم جهيمان العتيبي بالإعتصام المسلح في الحرم المكي .

لم يستطع الحزب الشيوعي ، شأنه شأن الأحزاب العربية الأخرى ، ان يواكب حركة التغيير السريعة في بداية الثمانينات والتي تبوأت فيها الحركة الإسلامية مقعد الريادة ، فاصطدم — في البداية وبشكل محدود — معها ، ولكنه ما لبث أن اعتبر الحركات الإسلامية ركناً مهماً في العمل الوطني ، وأبدى استعداده للتعاون معها لتحقيق أهداف وطنية جامعة لا يختلف حولها العاملون على الساحة الوطنية .

غير أن عقدة الإسم ، إسم : الحزب الشيوعي لم تحل ، حتى وإن غيّر الحزب بعض أفكاره وقناعاته ، فالجمهور شديد الحساسية ضد كل ما يمتّ الى الشيوعيّة بصلة .. وجاءت التغيرات الواسعة في المعسكر الإشتراكي منذ أواخر الثمانينات ، وما تلاها من تفكك الإتحاد السوفياتي وسقوط الشيوعية ، لتهزّ الحزب من جهة ، ولتخلصه في واقع الأمر من مشكلة صنعها بنفسه ، ودفعته ليؤكد محليّته ، ويستقي أفكاره من واقع مجتمعه ، وليواكب حركة التغيير في البلاد كما هي على أرض الواقع .

ورغم التفكك والشرخ الكبير الذي أصاب الحزب ، إلاّ أنه حاول تنظيم صفوفه من جديد ، وإعادة صياغة أفكاره وأهدافه ومنطلقاته ، فأعلن بعد انتهاء أزمة الخليج الثانية — أي بعد الغزو العراقي للكويت — عن تسمية نفسه بـ « التجمّع الديمقراطي في السعودية » متخلياً عن الشيوعية ، ومؤكداً على التغيير السلمي والإصلاحي في مسلكه .

○ **سادساً ، حزب العمل العربي الإشتراكي :** تأسس الحزب في أواسط السبعينات الميلادية على يد أعضاء سابقين في حركة القوميين العرب ، وانضمّ إليه العديد من الطلبة السعوديين في الولايات المتحدة الأميركية ، الذين كانوا قد انخرطوا في منظمة الطلبة العرب والتي يديرها عدد من الفلسطينيين المنتمين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وقد نشأ حزب العمل برعاية من الجبهة الشعبية فتأثر بأهدافها وافكارها ومنطلقاتها .

والحزب ، ضمن التصنيف الفكري ، ماركسي .. يؤمن بالعنف الثوري ، والثورة المسلحة ، إذا ما أخفقت الوسائل السلمية في تقريب النظام الى النهج الديمقراطي .

ودعا الحزب الى تكوين جبهة وطنية ديمقراطية تتسع لكافة القوى المعادية للنظام على اختلاف مناهجها الفكرية من اجل تحقيق الأهداف الوطنية المشتركة .

أصدر الحزب نشرته المركزية « المسيرة » بشكل دوري وصدر منها أحد عشر عدداً في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٤ ، كما أصدر عدد من كوادره في الولايات المتحدة الأميركية مجلة « الجزيرة الحرّة » بإسم : « أنصار الحركة الوطنية في الجزيرة العربية » ، وصدر عددها الأول في عام ١٩٨١ ، واستمرت في الصدور حتى أبريل عام ١٩٨٥ .. كما أصدر حزب العمل عدداً محدوداً من الكراسات والكتب التي توضح آراءه ومواقفه .

قاعدة حزب العمل وكوادره الأساسية تمركزت في المنطقة الشرقية ، وبين الطلاب السعوديين الذين كانوا يتلقون تعليمهم في الولايات المتحدة الأميركية ، واستطاع الحزب أن يجد له عدداً من الأنصار في صفوف المثقفين والصحافيين ، التفوا حول بعضهم في صحيفة « اليوم » اليومية التي تصدر في الدمام بالمنطقة الشرقية ، حيث دأبوا على نشر بعض نقدهم في ملحقها الثقافي الإسبوعي « المربد » .

لكن الحزب الذي توسّع نشاطه في بداية الثمانينات الميلادية سرعان ما تلقّى ضربة قاسية للغاية حين اعتقلت أهم كوادره وقيادته إضافة الى مجاميع من الصحافيين والمثقفين والأعضاء قدّر عددهم بنحو مائة شخص ، وذلك في مايو ١٩٨٢ ، أطلق سراح معظمهم في نهاية العام نفسه ، وتخلّى اكثرهم عن العمل السياسي .

وفي عام ١٩٨٣ تلقى الحزب الضربة النهائية التي قصمت ظهره ، وهو بعد لم يتشافى من الضربة الأولى ، حيث اعتقل الكثيرون من أنصاره .

في السنوات اللاحقة ، تقلّص نشاط الحزب الإعلامي والسياسي والتنظيمي ، وانشقّ الحزب على نفسه في أجواء اتهامات متبادلة بين كوادره ، وحاول حتى منتصف الثمانينات ان يعيد تشكيل نفسه من جديد ولكنه أخفق في ذلك .. وبعد فترة وجيزة صدر قرار من بعض كوادره بحلّ الحزب وإنهاء نشاطه حتى إشعار آخر ! .

○ **سابعاً ، حزب الله — الحجاز :** وهو حزب عقائدي يؤمن بالعنف وسيلة لإسقاط النظام ، الذي يعتبره الحزب قائماً على أسس غير دينية ، وبدعم دول الكفر والإلحاد . تأسّس الحزب في العام ١٩٨٧ في أوساط طلبة العلوم الدينية

الشيعة الذين درسوا في النجف الأشرف في العراق ثم في قم ، بعد انتصار الثورة الإسلامية في ايران ، وبعد تردّي الأوضاع في العراق بعد قيام الحرب بين البلدين .

ورغم أن الحزب لا يؤمن بالتنظيم المتعارف عليه ، ويشدّد على طريقة « حزب الله » في العمل الإسلامي ، التي تتعاطى مع الروابط التقليدية في التجمعات الإسلامية .. إلاّ أن الحزب لا بدّ وأنه قد أجبر على اعتماد رابطة ما بين أعضائه ومؤيديه .

ويعتبر حزب الله الحجاز ، نسخة مصغّرة عن حزب الله في لبنان ، بل يمكن القول أن الأخير كان النموذج « الناقل » لكل الأحزاب التي ظهرت في المنطقة العربية في عقد الثمانينات والتي كانت تطلق على نفسها إسم : حزب الله .

في عام ١٩٨٧ ، أصدر حزب الله الحجاز « يطلق حزب الله على المملكة السعودية إسم الحجاز » نشرته الأولى وحملت إسم « الفتح » ، وكتب مصدروها بأنها تصدر عن « جمع من طلبة الحجاز » ، وقد صدر منها ثلاثة أعداد ، كما أصدر عدداً من المنشورات وزّعت في قم وبيروت تحمل إسم : حزب الله الحجاز ، وأبناء حزب الله في الحجاز . ويصدر حزب الله الحجاز في الوقت الحالي مجلّة شهرية هي « رسالة الحرمين » بدأ إصدارها في أواخر الثمانينات من بيروت .

ويؤمن الحزب بعلاقة وثيقة مع الجمهورية الإسلامية في إيران ، كما يعتقد بأن العمل السياسي السلمي ضدّ النظام السعودي غير مجدٍ ، لأن هذا النظام لا يؤمن إلاّ بالعنف والقوّة . وفي أواخر عام ١٩٨٧ شبّ حريق ضخم في معمل تكرير الغاز في منطقة « الجعيمة » في المنطقة الشرقية ، قالت تحقيقات الحكومة أنها كانت نتيجة التماس كهربائي ، في حين أعلن حزب الله مسؤوليته عن الحادث .

وفي أبريل ١٩٨٨ ، ألقت السلطات الأمنية السعودية القبض على عشرات من مؤيدي الحزب في المنطقة الشرقية ، بتهمة قيامهم بتفجيرات في منشآت نفطية في ورشة كهربائية في معامل تكرير النفط في ميناء الجعيمة ، وفي المعمل رقم ١٠ في رأس تنورة ، وفي معمل صدف للبتروكيماويات في الجبيل ، في حين اكتشفت قنابل أخرى أبطل مفعولها . وسرت شائعات قويّة بأن أجهزة الأمن هي التي قامت بتلك الأعمال المفتعلة بغية توفير مبررات لتصفية الحزب ، كما اتخذت تلك الممارسات ستاراً لممارسة القمع والتضييق والمغالاة في التمييز الطائفي ضد المواطنين الشيعة .

وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٩٨٨ ، صدرت فتاوى دينية بأثر رجعي بناء على طلب وزارة الداخلية تبيح القتل لمن أسماهم النظام بالمفسدين ، وجرى اعدام ثلاثة من مؤيدي الحزب بشكل علني في الدمام في الثلاثين من اكتوبر ١٩٨٨ ، بينما كان رابع محكوم بالاعدام في نفس الحادث قد توفي تحت التعذيب في السجن ، الامر الذي دفع بالحزب لتصعيد نشاطه فقام بعدّة عمليات اغتيال لدبلوماسيين سعوديين في تركيا وباكستان ولبنان .

وفي العام التالي ، شنّت أجهزة المباحث حملة اعتقالات ، طالت عدداً من المهندسين ورجال الدين ، ووجهت لهم تهمة الإنتماء لحزب الله .

ويبدو ، بعد أزمة احتلال العراق للكويت ، وبعد إصلاح العلاقات السعودية الإيرانية ، ان الحزب يتجه لاستبدال للعمل السياسي والإعلامي ، متخلياً فيما يبدو عن المواجهة المسلّحة .

○ **ثامناً ، منظمة « الثورة الإسلامية » :** وهي على خلاف ما يوحي إسمها ، حركة سياسية تدعو الى التغيير السلمي . تأسست المنظمة في عام ١٩٧٥ ، وتتبنّى المنهج الإسلامي في عملها السياسي ، وتعتبر نفسها حركة إحياء وإنهاض ديني .

بدأت المنظمة نشاطاتها السياسية على قاعدة عمل ثقافي واسع قبل أن تعلن نفسها على الملأ بين عامي ١٩٧٥ ــ ١٩٨٠ ، بعيد الإنتفاضة الشعبية العارمة التي تفجّرت في أوساط الشيعة في نوفمبر ١٩٧٩ ، والتي كانت نقطة تحوّل في تاريخ المواطنين الشيعة في المملكة .

وتعتبر المنظمة تقليدياً حزب الشيعة السياسي في المملكة ، كما ان قيادتها تعبر تماما عن الراي العام لهذه الطائفة ، فهي ليست فقط أقوى تنظيم سياسي يضمّ نخبة المواطنين الشيعة من وجهاء مثقفين ورجال دين وأساتذة ، بل قد تكون أقوى تنظيم سياسي على صعيد المملكة بشكل عام .

وتؤمن المنظمة بضرورة بناء تنظيم قوي يتكفل بإدارة وتوجيه حركة الشعب السياسية ، يستطيع الصمود أمام محاولات القمع والإعتقال .. وتقوم الجماعات التابعة للمنظمة بنشاطها الثقافي والإجتماعي بصورة شبه علنية في داخل المملكة ، حيث يقول اعضاء المنظمة ان توعية الجمهور بقدرته على ممارسة العمل السياسي هو احد اهدافها الرئيسية .

وفي طرف ثالث ركزت منظمة الثورة الإسلامية على العمل السياسي والإعلامي المعارض من الخارج ، من أجل تكثيف الضغوط على النظام .

وقد حققت المنظمة نجاحات ملموسة على هذه الأصعدة ، وصمدت أمام موجات القمع المتتالية طيلة الثمانينات ، رغم تعرض الآلاف من أنصارها للاعتقال والتعذيب ، واستشهد عدد منهم في السجون ، وفق تقارير منظمات دولية لحقوق الانسان ، لكن الأرضية التي اقامتها المنظمة خلال سنوات عملها السري ساعدتها على إعادة تنظيم نفسها في كلّ مرة ، بفضل التيار الواسع المتعاطف معها .

وكانت المنظمة تعبر عن نفسها من خلال مجلّة « الثورة الإسلامية » الشهرية التي صدرت في عام ١٩٨٠ من العاصمة البريطانية ، وقد تزامن توقّف المجلة عن الصدور في يناير ١٩٩١ ، مع صدور مجلة « الجزيرة العربية » التي هي الاخرى تتعاطف مع المشروع السياسي للمنظمة .

كما أصدرت المنظمة عشرات الكتب والدراسات حول مختلف المواضيع المهمّة المطروحة في البلاد .

وأقامت المنظمة علاقة وثيقة بالمنظمات الحقوقية العربية والدولية وساهمت في نشاطاتها ، كما أقامت علاقات واسعة مع الصحافة العربية والأجنبيّة ، وانفتحت بشكل كبير على مجمل الحركات الإسلامية والوطنية في الوطن العربي ، إضافة الى علاقاتها الواسعة مع الحركات والشخصيات الوطنية داخل المملكة وخارجها .

ومع أن المنظمة لم تطرح الموضوع الطائفي .. إلاّ أنّها ــ وبحكم ظروف المجتمع السعودي والسلطة السياسية ــ صنّفت مذهبياً ، شأن كل الأعمال في المملكة .

ولم تستطع المنظمة رغم قوّة نشاطها أن تخترق الحاجز الطائفي السميك المضروب على تحركاتها في مناطق المملكة الأخرى ، رغم وجود العديد من مؤيدي نشاطاتها بين الفئات المثقفة ، ذلك أن المجتمع السعودي ــ وبسبب التركيز الطائفي الحكومي ــ أصبح مشبعاً بالروح الطائفيّة التي أصبحت إحدى أدوات العمل السياسي الذي تستخدمه السلطات .

وتصنف المنظمة نفسها كقوّة وطنيّة ، وبذلت جهداً مكثّفاً على هذا الصعيد ، ونادت بمطالب وطنيّة عامّة سبق لكل القوى المعارضة المندثرة أن نادت بها : الدستور ، والبرلمان المنتخب ، والحكم اللامركزي ، والحريات الصحافية والسياسية وغيرها .. إلاّ أن التصنيف المناطقي / الإقليمي كان الأقوى ، وسواء أرادات المنظمة ، أم لم ترد ، فإن واقع المملكة المذهبي المتنافر ، والمناطقي التنافسي الحاكم ، لا بدّ وأن يفرضا ظلالهما على الحكم عليها .

لكن هذا كلّه لا يلغي حجم القوّة التي تتمتع بها ، ولا دورها المستقبلي ، على أيّة أرضيّة جاء الإصلاح السياسي ، مناطقياً أو مذهبياً أو وطنيّاً عاماً .

دولٌ بالوكالة !

■ في منتصف يونيو الماضي سّلم السفارة السعودية في لندن شيكا بمبلغ ١٥٠ الف جنيه استرليني « مليون ريال سعودي » تبرعا من خادم الحرمين لمعالجة طفلة بريطانية .. وفي اخر ذلك الشهر تبرع امير الكويت بمبلغ مليون جنيه استرليني لانقاذ حديقة حيوانات لندن .

وبين تبرع الملك فهد ، وهدية الشيخ جابر كانت وكالات الانباء تنقل اخبارا عن وفاة خمسة الاف طفل صومالي يوميا لأنهم يحتاجون الى ربع مليون دولار ، وهو ما يعادل ذات المبلغ الذي تبرع به الملك تقريبا ، لحقنهم ضد الامراض الوبائية وامراض الاطفال الفتاكة .

وفي ذلك الوقت ايضا كانت اليونسيف تسعى لجمع صدقات الغرب من اجل اغاثة نحو ستين الف طفل فلسطيني في الضفة والقطاع كّسر الاحتلال اطرافهم او اصيبوا باعيرة مطاطية او نارية او اصيبوا بتسمم نتيجة استنشاق الغازات المسيلة للدموع اثناء الانتفاضة الفلسطينية .

في ذلك الوقت ايضا كان اطفال المسلمين في البوسنة والهرسك يتيهون على وجوههم بين الحدود الدولية والموانيء البحرية بحثا عن دولة تؤويهم من القصف الصربي .. وفي حين يعتبر مئات الالاف من الاطفال العرب اقتناء لعبة او قارورة حليب او علبة دواء سلوكا مترفا .. فإن امير الكويت لم ينس حيوانات لندن المهددة بالضياع والتشتت بعد ان قررت إدارة الحديقة تحديد موعد إغلاقها لنقص التمويل الحكومي .. وفي حين لم تذرف له دمعة على آلاف الاطفال الذين يلتصق جلدهم بعظامهم ويموتون على صدور امهاتهم في الصحراء على حدود الصومال او السودان او نيجيريا .. فإن الامير ذرف دموع التماسيح على فئران وقرود وكلاب لندن .

اما مساعدة الملك فهد للطفلة البريطانية التي تستطيع حكومتها معالجتها وفي ارقى المستشفيات ، فإنه لا يمكن ان يصنف الا باعتباره خبطة سياسية واعلامية .. والا فليس من المتوقع ان يكون هدف الملك من وراء هذه الهدية انسانيا .. والا اتهمنا الملك في انسانيته « ! » فحين ارسل بالشيك الى سفارته مطالباً بالتعجيل في ايصال المبلغ لعائلة الطفلة ، كان الملك حينها في جدة يشرف على مناسك الحج .. وفي ذلك الوقت بالتحديد جنحت سفينة صومالية كانت تتكدس باللاجئين الفارين من الحرب الاهلية والجوع بالقرب من ميناء جدة لكن السلطات منعتها من الاقتراب مما حدا بها للجوء الى سواحل اليمن بعد ان هلك من النساء والاطفال الذين كانوا على متنها قرابة الربع .. فكيف سمع الملك أنات طفلة بريطانية عبر الالاف الاميال ولم تسمع اذناه عويل وصراخ نساء واطفال السودان والصومال وفلسطين وحتى اطفال العراق المفروض عليهم الحصار .

اذا قلنا ان تبرع الملك فهد للطفلة البريطانية عمل خيري فهذا يعني ان عواطف جلالته مبرمجة آليا للاستجابة لابناء العيون الزرقاء والملامح السكسونية ، والشعور الشقراء .

هذا التناقض في عمل الخير يجعل من الصعب تصديق ما تقوله البيانات الرسمية من ان الهدف من وراء هذا السيل الكبير من التبرعات هو الجانب الانساني .. ففي موسم الحج استضاف الملك « وعلى نفقته الخاصة طبعا » نحو اثني عشر الفا من حجاج اسيا الوسطى وقالت البيانات الرسمية ان الهدف هو « وجه الله » ــ جّل وجهه ــ لكن ما ان انتهى الحج حتى شاهدنا وشاهد العالم خمسة آلاف حاج نيجيري يتسولون في مكة المكرمة لاطعام اطفالهم وسد رمقهم ، بينما كانت قوات الامن تلاحقهم بالعصي وتجلد النسوة اللاتي شوهن وجه مملكة النفط .. وسبب نكبة الحجاج النيجيريين هو تأخر الخطوط الجوية عن اعادتهم اربعة ايام بعد ان نفذت اموالهم ، ولم يجدوا ما يطعموا به اطفالهم .. فهل كان ايواء ضيوف الرحمن من ضعفاء المسلمين ومساندتهم يخالف وجه الله ؟ ! .

ولأن عمل الخير يبقى ، والعمل الدعائي يزول ، فقد غادر حجاج آسيا الوسطى الرحاب المقدسة وهم ساخطون اشد السخط على حكومة المملكة .. لأن كسب الناس فن دعامته الاخلاق وليس تجارة دعامتها الاموال .. ولأن جلب اولئك المسلمين كان الهدف منه تحويلهم الى دعاية للملك ومشروع السعودية في الجمهوريات الاسلامية ، فقد فشل هذا المشروع بعد ان وجهت الى اولئك الحجاج اهانات تمس عقائدهم ، وفكرهم من قبل ميليشيا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

في الماضي فشلت دعوة « نفط العرب للعرب » .. واعتبرت دعوة شوفينية عنصرية ، وقبلها نسيت نظرية « المسلمون امة واحدة يأخذ بذمتهم أدناهم » وجاءت بعدها شعارات مصلحية على نحو بترول الخليج للخليج ، ونفط الكويت للكويت .. لكن حتى هذه الشعارات المصلحية انهارت وتلاشت ليحل محلها شعار جديد اكدته حرب الخليج وهو « نفط العرب للغرب » .. وليتفرع منها شعار فريد اشتقه امير الكويت يدعو لأن تكون ثروة العرب لحيوانات الغرب .. فهل هذا مايراد لدول الخليج ان تكون عليه : نستخرج النفط ونحصد الدخان ؟ في حين أن غيرنا يتدفأ وينعم بثرواتنا ؟ ! .

هل كتب على بلادنا ان يحولها الحاكمون الى شركات مقفلة وبنوك تصب الاموال لخدمة امريكا والغرب ؟ ! .

وبعد .. ماذا يبقى من انتمائنا العربي والاسلامي اذا كانت حكوماتنا تعصر مساعداتها لدول شقيقة كالسودان واليمن ومصر وسوريا .. وتمطر الاموال والاستثمارات والقروض لدول كروسيا ولعصابات كمتمردي الكونترا ؟ ! .

وماذا يبقى من استقلالنا اذا كانت واشنطن تخطط وحكوماتنا تدفع .. وتدفع بدون حساب ؟! وماذا يبقى لنا من شخصية اذا كان الحاكمون يتقربون للغرب بكيل الصدقات على حيواناتهم ؟! .

ويقولون ان الخليج ليس نفطا .. فهل ابقى هؤلاء للخليج تراثاً او حضارة ؟ ! □